اليهود
فى الأدب الروسى

د. رمسيس عوض



اليهود فى الأدب الروسى

دكتور
رمسيس عوض
استاذ الأدب الإنجليزي
كلية الألسن — جامعة عين شمس



٣٢ شارع طلعت حرب - القاهرة

الكتـــــــــــاب : اليهود في الأدب الروسي
المؤلـــــــــف : د. رمسيس عوض
رقــــم الطبعـــــة : الطبعة الأولى
تاريــخ الإصـــــدار : يناير ٢٠٠٢

الناشــــــــــــر : دار نهضة الشرق
العنــــــــــوان : ٣٢ شارع طلعت حرب - القاهرة
تليفـــــــــــون : ٥٧٩٥٩٦٠ - ٥٧٥٨٣٨٤
فاكــــــــــــس : ٥٧٩٥٩٨٠
رقـــم الإيـــــداع : ١٧٣٠٠
الترقيــم الدولــــي : I.S.B.N. 977-245-169-7

القسم الأول

اليهود في الأدب الروسي
في القرن التاسع عشر

•••••••••••

كـــان اليهود في روسيا في القرن التاسع عشر أغلبية كثيرة العدد فقد بلغ عددهـــم حســـب الــتعداد الذي تم إجراؤه عام ١٨٨٧ خمسة ملايين ونصف المليــيون نسمة بعد أن كان عددهم في مطلع القرن التاسع عشر لا يزيد على ملـــيون نســـمة . وبعد اغتيال القيصر الكسندر الثاني (الذي تآمر ضده بعض الـــيهود) فـــي عام ١٨٨١ تعرضت الجالية اليهودية في روسيا لحملات إبادة جماعية لم يسبق لها نظير الأمر الذي بث الرعب والفزع في قلوب عدد كبير مـــن أفرادها . فهاجر منهم من هاجر . وبعد حملات الإبادة والتطهير العرقي انقسم اليهود الروس من الناحية العسكرية والعقائدية إلى أربع شيع :

١ – يهود رأوا الحل في الهجرة خارج روسيا
٢ – يهود صهاينة رأوا في ازدهار القومية حلا لمشاكلهم
٣ – يهود رأوا في التغييرات الاجتماعية وتطبيق النظام الاشتراكي حلا لمشكلتهم كأقلية
٤ – يهود مثل تروتسكي تطلعوا إلى اندلاع ثورة شيوعية عالمية تختفي فيها مشكلة الأقليات .

وبوجه عام لم يظهر اليهود في روسيا أي تحمس للنظام القيصري القائم على الدين المسيحي وتصرف على نحو لا يتعاطف مع السامية .

واللافـــت للـــنظر أن عددا لا يستهان به من كبار الكتاب الروس ضمنوا انتاجهم الأدبي عداوة للسامية غير خافية . وفي كثير من الأحيان عالج الأدب الروســـي اليهود على نحو كاريكاتوري مضحك . وبعد اندلاع الثورة البلشفية عـــام ١٩١٧ أصـــبحت السلطات السوفيتية لا تعترض على وجود العناصر الـــيهودية ما دامت موالية للثورة الشيوعية مثلما نجد في رواية إليا أهرنبرج (١٨٩١ – ١٩٦٧) " حياة لازيك روتشوارتز العاصفة " .

لقــد درج الأدب الروسي منذ بوشكين (١٧٩٩ – ١٨٣٧) حتى تشيكوف (١٨٦٠ – ١٩٠٤) علــى رســم صورة نمطية مضحكة أو منفرة الأمر الذي أثــار حنيطة وامتعاض غلاة القوميين والمتشددين من اليهود . وعجبوا كيف يعجــز الأدب الروسي المفعم بالإحساس بالأخوة الإنسانية عن معاملة اليهود بإنسانية . ومع ذلك فإنه من الخطل أن نعتقد أن هذا حال الأدب الروسي على الــدوام لأن هذا الأدب أبعد ما يكون عن التجانس ففيه معاداة السامية بقدر ما فــيه مــن عطف عليها . ولهذا يصعب التسليم بأن الأدب الروسي في مجمله يــتجه إلى النيل من اليهود والحط من شأنهم . هذا بالرغم من أن كتابا روسا شــوامخ مــثل بوشكين وجوجول (١٨٠٩ – ١٨٥٢) وتورجنيف (١٨١٨ – ١٨٨٣) حــتى ليرمنــتوف (١٨١٤-١٨٤١) الــذي تخلو مسرحيته الباكرة " الأســبان" مــن معاداة السامية يصف اليهود في بعض كتاباته مثل " الحفلة التــنكرية " على نحو تقليدي سيئ ونفس الشيء ينطبق على بوشكين فبينما لا تتسم قصته " بداية حكاية " بالسامية نجد أن بعض انتاجه الأدبي مثل " الفارس الحســود " و " الــيهودي الحقــير " في حكايته الشعرية تدل على عودته إلى وصــف اليهود بطريقة نمطية منفرة مثلما فعل جوجول في روايته المشهورة "طراس بولبا " . وتورجنيف يصور اليهودي على أنه جاسوس .

ويعود السبب في هذا إلى الخلاف بين ظروف نشأة المذهب الإنساني في الأدب الأوربي وظروف نشأته في الأدب الروسي . فقد نشأ المذهب الإنساني الأوربــي فــي ظل اشتداد ساعد النظام البورجوازي القائم على رجال المال والأعمــال والــذي أســهم التجار والمرابون اليهود في ازدهاره في حين أن المذهب الإنساني في روسيا نشأ في أحضان الكنيسة والإقطاع وطبقة النبلاء. ولهذا نلاحظ أن الأدب الروسي يناصب الحضر والطبقة البورجوازية واليهود العداء ويناصر الريف ويعلي من شأنه في حين أن الأدب الأوربي (وخاصة بعــد الــثورة الفرنســية) الذي يستمد جذوره من النظام البورجوازي يظهر إنسانية وتعاطفا أكبر مع شعب إسرائيل . وينبهنا كارل ماركس (وهو يهودي) إلى حقيقة مهمة مفادها أن يهود بولندا عاشوا في وسط البولنديين في حين أن معظــم يهود روسيا عاشوا على الأطراف والحدود النائية ، الأمر الذي جعل الأدبــاء الروس لا يحسون بمشاكلهم ، ومما ساعد على صرف انتباههم عن مشــاكلهم أن عشرين مليون فلاح من بني جلدتهم كانوا يعيشون كأرقاء تحت

خط الفقر . ورغم أن إحساس الأدباء البولنديين بمشاكل اليهود كان أعظم من إحساس الأدباء الروس بها فقد عجز الأدباء البولنديين عن سبر غور اليهود وإدراك مثلهم وطموحاتهم الأخلاقية والدينية واستعدادهم للشهادة . والذي لا شك فيه أن الاضطهاد الذي لقيه اليهود عبر التاريخ أدى إلى إنكفائهم على أنفسهم وانغلاق مجتمعهم وبالتالي على تشكك الأغراب والأجانب فيهم ونفورهم منهم باستثناء الذين قيض لهم أن يخالطوهم ويعاشروهم لفترات طويلة تمكنهم من معرفة بني إسرائيل من الداخل . ولا شك أيضا أن الأقليات بوجه عام والمضطهدة بوجه خاص تكتسب في سعيها إلى الحفاظ على النفس بعض الخصائص غير المرغوب فيها مثل اللجوء إلى المكر والتحايل والخديعة إلى جانب القدرة على مسايرة المجتمع الخارجي بمواصفاته المقيتة تجنبا لشره ومحاولة الاستفادة المادية منه ، الأمر الذي يجعل الكاتب الروسي يتحدث عن حقارة الشخصية اليهودية دون التنبه إلى وجود يهود أكثر مثالية وخلقا وسموا من هذه النماذج الوضيعة.

وقد أسهم الروائي الروسي المعروف جوجول بنصيب وافر في رسم صورة منفرة لليهودي في أذهان الطبقة المثقفة وطبقة المدارس من الروس الذين لم يقابلوا يهوديا في حياتهم . وتأثرت هذه الصور المنفرة بوضع اليهود في أوكرانيا بوجه خاص حيث انصرف الكثير منهم إلى بيع الخمور للروس الأمر الذي أثار كراهية الفلاحين الروس والقوزاق ضدهم . فضلا عن أن اليهود دأبوا على استئجار الأراضي التي تملكها الكنيسة الروسية . غير أن الأبحاث التاريخية التي أجريت مؤخرا تدل على أن المستأجرين الحقيقيين لهذه الأراضي وأصحاب الحانات الفعليين كانوا من كبار رجال المال والأعمال في بولندا وأن اليهود الروس كانوا مجرد أدوات طيعة في أيدي سادتهم البولنديين نظير الفتات من المكافآت ، والجدير بالذكر أن الصورة التي رسمها جوجول لليهود لا تخلو من بعض الجوانب الإيجابية وأن روسيا استمدت إلى حد كبير صورة اليهودي البغيضة من الفكرة العامة التي شاعت في أوربا في القرون الوسطى . ويذهب بعض الدارسين أن كلاً من بوشكين وليرمنتوف استمدا صورة اليهودي الكريهة من الصورة الشائعة عنهم في اوربا في العصر الوسيط .

وبعد نشوب حرب القرم ١٨٥٣ - ١٨٥٦ تغير وضع اليهود في كل من ليتوانـــيا وأوكرانيا . صحيح أن النظام القيصري لم يمنحهم أية حقوق قانونية ولكـــن ســـمح لبعض فئات منهم مغادرة الجيتو (حارات اليهود) والعيش في الأراضـــي الروســـية نفسها وخاصة في مدينة بطرسبرج التي سمحت للجنود الـــيهود المتقاعديـــن وبعض رجال المال اليهود ان يعيشوا فيها وخاصة لأن الدولة كانت بحاجة إلى أموالهم لتحديث الاقتصاد الروسي . فلا غرو إذا رأينا انـــتعاش المضاربة والبورصة والمصارف والبنوك وشركات الاستثمار وبناء الســـكك الحديدية . وساهمت رءوس الأموال اليهودية بنصيب وافر في إنجاز هـــذه المشروعات ولكن المثقفين التقدميين في الطبقة البورجوازية الروسية لم يرحـــبوا بمساهمة رءوس الأموال الكبيرة في المشاريع الروسية مثلما رحبت بهـــا الـــبورجوازية الأوربية بل يمكن القول أنها ناصبت رأس المال العداء . ولعل نكراسوف (١٨٢١ - ١٨٧٨) خير من يمثل هذا الموقف العدائي نحو الأقليات الأجنبية والغريبة التي تستثمر أموالها لدفع الصناعة الروسية قدما إلى الأمام . وترسم قصيدته الهجائية " المعاصرون " صورة كريهة لهذه الأقليات الاستثمارية الطفيلية . ولكن عداءه للرأسمالية واحتقاره لها انصب بوجه خاص على رجال المال والأعمال اليهود . وذهب في زرايته بهم إلى حد انه قلد في شعره اللكنة اليهودية في الكلام ونطق الألفاظ . ويقارن نكراسوف بين النهابين الروس وأمثالهم من اليهود فيقول أن اللص الروسي يندم على لصوصيته في حين أن اللص اليهودي لا يعرف الندم أبداً.

ويلقى موقف الفوضوي الروسي النبيل الأصل باكونين (١٨١٤- ١٨٧٦) الضوء على كراهيته المشبوبة للرأسمالية الأوربية والاشتراكية الألمانية التي بشر بها كارل ماركس على حد سواء فكلاهما في نظره وجهان لعملة واحدة . آمـــن باكونيـــن بأن اليهود طغمة من المستغلين الطفيليين الذين يلهثون وراء مكاســـبهم الشخصية ومنافعهم المادية . والرأي عند باكونين أن ثلة من اليهود السفلة أحاطت بكارل ماركس والتفت من حوله . فهو يقول في هذا الشأن أنه علـــى يقين من وجود تفاهم مشترك وتقدير متبادل بين عائلة روتشيلدز الثرية وكـــارل مـــاركس . وتـــرجع كراهـــية باكونيـــن المشبوبة لليهود إلى نشأته الارستقراطية وخلفيته العسكرية وإلى انطباعاته السيئة في شبابه عن حارات اليهود في مناطق روسيا الغربية .

ولكـــن صـــوتا جديـــدا مخالفا ارتفع في سماء الأدب الروسي متمثلا في أعمال تشرنشفسكي الذي ناصب الطبقة الأرستقراطية الروسية العداء ووضع الأســـاس في بناء الفكر الديمقراطي الروسي . ويرسم هذا الأديب في روايته الشهيرة " ما العمل ؟ " صورة هامشيه لشخصية يهودي يعمل كتاجر صغير . وبهـــذا يكـــون تشرنشفســـكي قد سبق غيره في إبراز الجوانب الإيجابية في الشخصية اليهودية. وهكذا يصبح هذا الكاتب من أوائل الذين ميزوا بين صغار الـــتجار مـــن اليهود وكبار الرأسماليين منهم . فضلا عن أنه من أوائل الذين لاحظـــوا فـــي وقـــت باكر للغاية عطف صغار التجار اليهود على الحركات الراديكالية الروسية.

وبعـــد أن تحـــررت روسيا مؤخرا من نظام الرق والتخلف ظهرت فيها كوكـــبة مـــن الـــيهود النابهين استطاعت أن تتقن اللغة والفكر والأدب والفن الروســـي وأن تبتعد عن جذورها اليهودية مثل انتون روبنشتين في الموسيقي وأنتوكولســـكي فـــي الفن ومنسكي ونادسون في الأدب . وكان لهؤلاء اليهود الذيـــن تقطعـــت الوشائج التي تربطهم بماضيهم وتقاليدهم شيء من الأثر في تحســـين فكرة المثقفين الروس عن اليهود . والجدير بالذكر أن هؤلاء اليهود شـــجعوا على توسيع رقعة الاستنارة والتحرر الروسي ورأوا في ذلك توسيعا لرقعة الحرية التي يتمتع بها اليهود أنفسهم .

وبنهاية العقد السابع وبداية العقد الثامن في القرن التاسع عشر ظهر عدد مـــن الكـــتاب اليهود الروس (أمثال ليفاندا وبوجروف) الذين صوروا حياة اليهود الروس على حقيقتها . فضلا عن تصوير آمالهم وأحلامهم ومثلهم العليا وطموحاتهم ومآسي حياتهم .

ولكن هذا لا يعني بحال من الأحوال أن الصورة كانت مضيئة أو ناصعة البـــياض . ففـــي عام ١٨٨١ – ١٨٨٢ تعرض اليهود الروس لحملات إبادة وتطهـــير عرقـــي . غـــير ان الطبقة المثقفة في روسيا أخذت تحس بوضوح بوجود مشكلة يهودية . وانقسم الروس فيما بينهم إلى معسكرين واضحين في تبايـــنهما : معســـكر يناصـــب السامية العداء ومعسكر تقدمي لا يخفي عطفه عليهم. حتى الكاتب سالينكوف – شيدرين (١٩٢٦ – ١٨٨٩) الذي أظهر في بداية أعماله الأدبية مقتا شديدا لأصحاب المال اليهود ما لبث فيما بعد أن عالج

مشكلة اليهود بقدر أكبر من الجدية ناظرا إلى محنتهم من منظور الديمقراطية والمذهب الإنساني الأوربي . وفي المقال الذي نشره سالينكوف – شيدرين في أغسطس ١٨٨٢ بعنوان " نسمة شهر يوليه " نراه يبرز الملامح الخارجية لليهود التي تبعث على الضحك والاستهزاء ومن بينها طريقتهم في نطق الكلمات ذاهبا إلى أنها تبرر كراهية الناس لهم وحقدهم عليهم .

وبوجه عام يمكن القول أن الأدباء الروس الشعبيين يرسمون على نحو ما صورة متعاطفة مع اليهود مثلما فعل الكاتب ما تشيئ في كتابه " اليهودي " ومثل الصورة التي رسمها ملشين باكوبوفتش في كتابه " عالم المنبوذين " وكورولنكو في حكايتيه " يوم كبور"و" الذي خرس لسانه "

وأيضا عالج الأديب الكبير تشيكوف اليهود كأنماط بشرية مألوفة على نحو موضوعي . ويعتبر دعاه القومية اليهودية هذا المؤلف عدوا للسامية في حين يرى بعض الدارسين في هذا الاتهام نوعا من الشطط حيث أن تشيكوف يميل في أدبه إلى توصيل الملامح الخارجية للشخصية بطريقة نمطية وتقليدية. ويكاد جميع اليهود الذين يصورهم أن يكون مسلكهم الخارجي باعثا على الاستهزاء مثل نطقهم اللغة الروسية بطريقة مضحكة . ويلفت بعض الدارسين أنظارنا إلى أن تشيكوف لا يقصر زرايته باليهود على الشخصيات اليهودية وحدها بل هي تشمل حتى الأغراب من اليهود . ورغم زراية تشيكوف بالسلوك الخارجي لليهود وطريقة نطقهم للغة الروسية فإنه يحرص على تصوير خصالهم الأخلاقية والروحية المتنوعة مما يدل على أن المؤلف لا يتحامل عليهم أو يحمل أية كراهية مسبقة لهم . ففي قصته "مراعي الاستبس" يقدم لنا صورتين متناقضتين لأخوين يهوديين أحدهما يهيم بالمال ويبيع الخمور في الحانات والآخر رجل متمرد وغريب الأطوار لا يأبه بالمال ويقوم بحرق ميراثه من الروبلات في الموقد . وأيضا يرسم تشيكوف في قصته القصيرة " الطين " صورة امرأة يهودية طماعة وجشعة للمال ثم يرسم صورة مخالفة تماماً في قصة " العشب" حيث نشاهد شابا يهوديا يتحرق شوقا إلى نور المعرفة . والأهم من كل هذا أن تشيكوف يرسم في مسرحيته " إيفانوف " امرأة يهودية اسمها سارة أنبل وأفضل من كل المحيطين بها. وتحظى سارة بعطف الكاتب عليها فهي تتميز بالإيثار والكرم والاستعداد للتضحية بالنفس . وهي تخلو تماماً من كافة الخصال المعيبة التي تشوب في العادة شخصية

اليهودي . هذه اليهودية أفضل بكثير من زوجة موظف روسي في الأقاليم تتصف بالبخل والاشتغال بالربا .

أما الكاتب الأرستقراطي ليو تولستوي (١٨٢٨ – ١٩١٠) الذي احب الريف وكره المدن فيخلو أدبه تماماً من أية إشارة إلى اليهود الأمر الذي يدل على أنه لم يقابلهم أو يعرفهم طوال حياته قط . وبالرجوع إلى مسودات روايته المعروفة " البعث " نجد أنه حاول أن يصور شخصيته يهودي ولكنه لم يفلح حتى في اختيار اسم مناسب له . ولكن هذا لم يمنع تولستوي من الدفاع عنهم كأقلية مضطهدة ومطحونة انطلاقا من إيمانه بالأخوة الإنسانية ولكن دفاعه عنهم يخلو من الحرارة كما يخلو من إحساسه بوجود مشكلة يهودية مؤرقة .

وفي العقد الأول من القرن العشرين حدث تطور كيفي ملموس في الطريقة التي عالج بها الأدب الروسي اليهود يختلف تماما عن طرائقه في الفترات السابقة نتيجة عاملين هما انبثاق الديموقراطية وانخراط بعض اليهود في صفوف الطبقة العاملة . وقبل حدوث هذا التطور الكيفي لم يحظ اليهود من الأدباء الروس بأكثر من الشفقة عليهم مثلما نجد في أدب كل من سالينكوف وماكسيم جوركي الذي ألف " قابيل وأريتوم " حيث نشاهد يهوديا يدعى قابيل يعيش تحت إمرة صعلوك روسي اسمه أريتوم . وفي العقد المشار إليه تحول موقف الأدباء الروس التقدميين واليساريين من اليهود فبعد أن كان هذا الموقف يتأرجح بين الزراية والاشفاق أصبحنا نرى اليهود أبطالا ويلعبون دورا إيجابيا ونشيطا في تطوير التاريخ الروسي وأيضا في تحرير الشعب الروسي من ربقة العبودية . وبالنظر إلى أن الحركات التقدمية واليسارية لم تخف احترامها لليهود وللدور الإيجابي الذي لعبوه في الحياة الروسية فقد تسبب هذا في تعميق كراهية المحافظين واليمينيين لهم . وقد دفعت مشاركة اليهود الإيجابية في إذكاء حركة التحرير عدداً من المؤلفين الروس إلى الغوص في أعماق أرواحهم لسبر غورها والكشف عن مكنونها .

وألف الأديب يوجين تشيركوف Chirikov عملا مسرحيا تشوبه العيوب الفنية بعنوان " اليهود " يصور عددا من الشخصيات اليهودية المتضاربة والمتناقضة فمنهم يهود تقليديون في نظرتهم إلى الحياة يدعون إلى

السلبية والاحتمال الصامت للمكاره ومنهم مناضلون ومقاتلون مثل الصهيوني مانتشمان الذي يسعى ما وسعه السعي إلى تأكيد الهوية اليهودية ومنهم العامل الماركسي الذي يقسم البشر إلى قسمين : عالم الأغنياء وعالم الفقراء . وفي أوقات المحن والتعرض للإبادة يتحالف اليهودي الصهيوني واليهود الماركسي الثوري في تكوين جبهة تهدف إلى الدفاع عن النفس ومقاومة المعتدين في حين نرى أن اليهود الذين ينتمون إلى الجيل الأكبر سنا يختبئون كعادتهم في القباء والمخازن وهم مستسلمون تماما لأقدارهم . والجدير بالذكر أن مسرحية تشيركوف " اليهود " تنتمي إلى الأدب الدعائي الذي يجسد أفكار المؤلف في شخوص مسرحية .

وهناك أديب روسي آخر تفوق معرفته بالحياة اليهودية معرفة تشيركوف بها . هذا الأديب هو الكسندر كوبرين (١٨٧٠ – ١٩٣٨) الذي تأثر بأدب تشيكوف وعرف حارات اليهود معرفة وثيقة ولصيقة . ومما يزيد من أهمية أدب كوبرين أنه أولى تصوير اليهودي العادي (وليس اليهودي الواعي سياسيا) جل اهتمامه كما أنه اختار هذا اليهودي بصورة عشوائية من صفوف الجماهير . ولأول مرة في الأدب الروسي يقوم كوبرين بتصوير اليهود على أنهم أشداء أقوياء وشجعان صناديد . وحتى ندرك أن صورة اليهودي الشجاع جديدة على الأدب الروسي نذكر أن قصة اليهودي التي ألفها مانتشيت عام ١٨٨٧ تدور حول طبيب يهودي اسمه جيرنس لم يستطع – رغم شجاعته – أن يتغلب على جبنه المتأصل في بني إسرائيل إلا بصعوبة بالغة وبشق الأنفس على نحو قد يثير الضحك بخلاف شخصيات كوبرين اليهودية الذين ولدتهم أمهاتهم شجعانا لا يتطرق الخوف إلى قلوبهم مثلما نشاهد في أعماله الأدبية " الجبان " و " الزفاف " و " جاميرينوس "

ولكن إسهام اليهود في الحركة الديموقراطية الروسية ما لبث أن توقف نحو عام ١٩٠٥ بسبب ردة الكثيرين منهم عن الأفكار الليبرالية والراديكالية وزيادة اندماجهم في شريحة الطبقة المتوسطة (البورجوازية) . ويرجع السبب في ذلك إلى أن دور العلم والجامعات الروسية لم تعد تستبعد الطلبة اليهود من قاعات الدرس الأمر الذي أدى إلى تخريج الكثيرين منهم واشتغالهم بالمهن المختلفة ومزاحمتهم للروس أنفسهم في سوق العمل . وأدى هذا بطبيعة الحال إلى غيظ الروس منهم واتهامهم باحتكار المهن والأعمال الذهنية . وقد ساعد

ذلــك علــى خلق رأي عام يناهض السامية بين المثقفين والتقدميين الروس . ولكــن العداوة للسامية كانت أسوأ حالا في بولندا لأن تنافس اليهود هناك على الوظائف والاشتغال بالمهن والأعمال الذهنية كان أحمى وطيسا .

ويصور الأديب روبشين (الذي يسمى سافنكوف في روايته الشهيرة التي ألفهـا عـام ١٩١٢ بعنوان " الذي لم يحدث أبداً ") عدداً من الثوار اليهود . ويـنطوي وصــف الكاتــب لهم بالادعاء والهيستيريا على زرايته الواضحة بالسامية. فجميع الشخصيات اليهودية التي يصورها روبشين في أدبه يتشنجون ويحــركون قســمات وجوههــم بطريقة مضحكة عند الحديث . ومن كل هذه الشخصيات اليهودية لم ينج من استهزاء المؤلف بهم غير اثنين من اليهود .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ شعر كثير من الروس بشــكوكهم في إخلاص الأقلية اليهودية الأمر الذي دفع بعض الكتاب الخلاقين إلــى كتابة مجموعة من المقالات المنشورة عام ١٩١٥ في بتروجراد بعنوان " الدرع " . وفي هذا الكتاب أكد الأديب فلاديمير كورلنكو (١٨٥٣ – ١٩٢١) أن الــيهود ليســوا بحاجــة إلى عطف الروس أو حدبهم عليهم بل إلى التمتع بــالحقوق المدنــية والسياسية المتساوية معهم . وباندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ظهر نوعان من اليهود : نوع يتحرق شوقا إلى تحقيق الأخوة الإنسانية كمــا تتمثل في الأيديولوجية الشيوعية . ونوع آخر طفيلي ولا خلاق له على استعداد للتأقلم مع أي نظام مهما كانت طبيعته .

واتخــذ الأديــب بوريــس ايزاكوفتش جولدمان (١٨٧٤ – ١٩٣٧) اسم ب. جوريــف المســتعار . أصــبح جوريف عام ١٩١٧ وهو من المانشيفيك البارزيــن (أو حــزب الأقلــية الــذي دخل في صراع مع حزب البلشفيك أو الأغلبية الذي قاد الثورة الشيوعية في روسيا ونجح في الاستيلاء على السلطة) عضــوا في اللجنة المركزية في حزب العمال الديمقراطي الإجتماعي . وكان والــده من شعراء العبرية كما كان أخوه من زعماء حزب المانشيفيك . تلقى جوريــف تعلــيمه فــي جامعــة بطرسبرج حيث انخرط في النشاط الثوري الطلابــي. وفــي ١٨٩٥ اشترك جوريف في جمعية المقاومة من أجل تحرير الطــبقة العاملــة وهــي واحدة من أوائل التنظيمات الماركسية الروسية التي ظهــرت فــي العاصــمة بطرســبرج . وقد كان لينين في يوم من الأيام أحد

المنتميـــن إلـــى هذه الجمعية . وفي أواخر القرن التاسع عشر صار جوريف واحــدا مــن أبرز الموجهين لهذا التنظيم بعد إلقاء القبض على زعمائه . ولم يمــض وقت طويل حتى ألقت السلطات الروسية القبض عليه وقامت بنفيه في ســيبريا حيث أمضى عامين في سجن انفرادي . وبعد أن تم الإفراج عنه عام ١٩٠٥ انخــرط بكــل قوتــه في إذكاء نار الثورة في فيلفا مسقط رأسه وفي بطرســبرج . وانتهى الأمر بالقبض عليه مرة أخرى عام ١٩٠٦ ولكنه تمكن مــن الهرب ليلتحق بصفوف المانشيفيك ويشاركهم في نشاطهم الثوري . وفي عام ١٩٠٧ اختاره المانشيفيك عضوا في اللجنة المركزية بحزبهم الذي اتهمه البلاشــفة بالســعي إلـــى تصفية الثورة . وفي أغسطس عام ١٩١٢ تحالف المانشــيفيك مــع بعــض التنظيمات الأخرى للتصدي للبلشفيك والوقوف في وجههم وعقب رحلته إلى غرب أوربا لحضور بعض المؤتمرات الدولية عاد إلى روسيا لتلقي السلطات هناك القبض عليه من جديد وتنفيه مرة أخرى إلى سيبريا وبعد سقوط النظام القيصري عام ١٩١٧ أصبح جوريف رئيس صحيفة " أبــناء العمل " لسان حال المانشفيك . وعندما نشبت الحرب الأهلية الروسية في الفترة من ١٩١٨ حتى ١٩٢٠ انضم إلى صفوف الشيوعيين ضد المنشقين عليهم دون أن يتخلى عن ولائه لحزب المانشيفيك إلا في أغسطس عام ١٩٢٠ عــندما هجر حزب الأقلية (المانشيفيك) في أغسطس عام ١٩٢٠ لينذر حياته للــتدريس والبحــث الأكاديمـــي . ويبدو أن اسمه اختفى من السجلات بسبب حملات التطهير التي شنتها السلطات السوفيتية على أعدائها إبان عهد ستالين رغم أن موسوعة السوفيت العظام الصادرة في١٩٣٠ سبق أن أشارت إليه . ثم عاد اسمه إلى الظهور في الموسوعة الفلسفية السوفيتية في عهد خروتشوف الذي هاجم الستالينية بضراوة عام ١٩٥٦ .

كتــب جوريـــف نبذة بالغة الأهمية بعنوان " اليهود في الأعمال الأدبية للكتاب الروسي " عام ١٩١٧ وأعيد نشرها بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليها في المجلد الذي نشره ف. لفوف روجاتشفسكي بعنوان " الأدب اليهودي الروسي " في مدينة موسكو عام ١٩٢٢ . ثم أعاد جوريف نشر نبذته المهمة فـــي مخـــتاراته المنشورة في موسكو عام ١٩٢٣ تحت عنوان " على الجبهة الأيديولوجـــية " ولهذه النبذة فضل السبق والريادة فهي أول دراسة جادة ترسم صـــورة الـــيهودي فـــي الأدب الروسي في القرن التاسع عشر . وتتميز هذه

الدراســة بأنها أكثر اكتمالا من غيرها من الدراسات في نفس الموضوع مثل دراســات كــل من دافيد زاسلافسكي وجوشوا كمونتير وبول برلين وشلومو برانيــن . ويــتهم البعض جوريف وأترابه بأنهم قلبوا ظهر المجن لأصولهم الــيهودية وبالتنصل من الأفكار اليهودية القومية بسبب انخراطهم في صفوف الثائرين على النظام القيصري ورغبتهم في الاندماج في بوتقة الحياة الروسية وخاصــة لأنه أغفل ضراوة المشاعر الأوكرانية المعادية للسامية وبعد إعادة نشر نبذة جوريف المشار إليها تحت عناوين متعددة أصبحت تحمل في النهاية عنوان " الأدب الروسي واليهود " .

ويركز جوريف في مبحثه الأدبي المهم " الأدب الروسي واليهود " أساساً علــى أدب تشــيكوف . ويفسر لنا هذا التركيز من جانب المؤلف على أعمال تشــيكوف ســبب استبعاده لنفر من الكتاب المهمين في هذا المجال مثل ليوبيد أندريف (١٨٧١-١٩١٩) الذي ساهم في تحرير مجلة " الدرع " التي ظهرت أثــناء الحــرب العالمية الأولى لمحاربة التعصب العرقي ضد اليهود كما أن جوريف تجاهل في مبحثه عددا من أبرز الكتاب الذين عبروا عن تعاطفهم مع الــيهود مــثل ميخائيل أرتسيبا شتيف (١٨٧٨-١٩٢٧) والكسندر أمفتراروف (١٨٦٢-١٩٣٨) وايفان بونين (١٨٧٠-١٩٥٣) وكلهم من المهاجرين الذين ناصبوا النظام البلشفي العداء .

وبالإضــافة إلــى ذلك أسقط جوريف في دراسته الشاعر الكبير جابريل درزهافن (١٧٤٣- ١٨١٦) الذي أذكى المشاعر المعادية لليهود بكتابة تقرير عــنهم اســتندت إلــيه الحكومة الروسية في سن قانون يحد من حريتهم عام ١٨٠٤ . وأيضــا تجــاهل جوريــف الإشارة إلى كاتب النثر الكبير نيقولاي ليســكوف (١٨٣١ - ١٨٩٥) الــذي دافع بطريقة مستترة عن ضرورة منح الــيهود حقوقهم المدنية . وشمل الحذف أيضا واحداً من أكثر الأدباء صراحة في مناصرة السامية هو د.د. مينيف (١٨٣٥-١٨٨٩) الذي ترجم ونظم عددا مــن القصــائد التــي تتناول حياة اليهود إلى جانب رواية " البحر العاصف " (١٨٦٣) التــي ألفها ألكسيس بيسمسكي والتي تحدثنا عن يهودي اعتنق الدين المســيحي حتى تروج تجارته . وكذلك حذفت الدراسة الثلاثية المعادية لليهود التي ألفها الروائي فسفولود كريستوفسكي (وهي تتكون من " ظلمة مصرية " و " تامار بن داوود " و " انتصار بال ") في الفترة من ١٨٨٨ حتى ١٨٩٢.

ومـــن المحذوفات أيضا رواية عن اليهود بعنوان "الطريق المظلم " ألفها كوت مورلـــيكا عـــام ١٨٩٠ . وينسب بعض النقاد هذا الحذف إلى قصور يشوب البحث منع الباحث من أن يغطي كل جوانبه وهم يلتمسون العذر لهذا القصور ويقولـــون إنـــه لا يقلـــل بحال من الأحوال من قيمة مبحث جوريف " الأدب الروسي واليهود " . ولكن بعض الدارسين يرى أن جوريف سعي إلى التهوين من حدة المشاعر المعادية لليهود التي يتضمنها الأدب الروسي .

من المعروف أن الكتاب اليهود في البلاد الأوربية المختلفة مثل المشاعر هايـــنى فـــي ألمانيا ساهموا بنصيب وافر في ازدهار الآداب في هذه البلاد . ويرجع السبب في هذا إلى تخفيف القيود التي فرضتها الدول الأوربية عليهم . ورغـــم أن عدد اليهود الروس يفوق بكثير عدد اليهود في البلاد الأوربية فإن إنـــتاجهم الأدبـــي يقل بكثير عن إنتاج الأدباء اليهود في أوربا . ومع تحسن أحـــوال الـــيهود الروس تمكن بعضهم من أن يشغل مكانة مرموقة في الأدب السوفيتي مثل أسحق بابل (١٨٩٤ – ١٩٤١) الذي تناولناه باستفاضة في كتابنا " أدبـــاء روس منشقون في عهد ستالين " (١٩٩١) . ولا يقتصر إسهام اليهود فـــي الأدب علـــى الفترة السوفيتية فحسب بل امتد إلى ما قبل الثورة البلشفية (١٩١٧) أي فـــي القـــرن التاسع عشر . ومن أبرز الكتاب اليهود في القرن التاســـع عشر الأديب د.س. مينسكي . ولكن المراجع الروسية تتجاهل الأديب اليهودي فروج كما أننا نجد أن الفترة السوفيتية تتجاهل في " الموسوعة الأدبية الموجـــزة " الصادرة في موسكو ١٩٦٢ – ١٩٧٥ كلا من الأديبين اليهوديين أنسكي وليفاندا .

وتبـــالغ عدد من غلاة القوميين اليهود من أنصار الأدب العبري أو أدب اليـــيديش في التقليل من أهمية الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية . فعلى ســـبيل المـــثال يقول فلاديمير جانوتسكي عام ١٩١٦ أن اليهود عجزوا عن إضـــافة أي شـــيء ذي بال إلى الأدب الروسي . وهو نفس الرأي الذي ارتآه شـــاعر العبرية تشيرنشكوفسكي الذي صرح عام ١٩١٣ بأن الأدب اليهودي الروســـي لـــم يفلح في إنتاج عمل أدبي واحد له قيمته الأدبية . فضلا عن أن المتخصـــص في أدب اليديش م.آي. لبروف (أو ليتفاكوف) سخر من الزعم القائل بأن اليهود أضافوا إنجازات عظيمة إلى الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية .

ولـــم يـــرق هذا الرأي للأديب روجانتشفسكي فتصدى لدحضه وتفنيده . فضـــلا عن أن الناقد أركادي جوزنفلد شارك روجانتشفسكي في وجهة نظره . ومـــن جانبه كال روجانتشفسكي المديح لبعض الكتاب اليهود في روسيا أمثال يوشكفتشـــي وإيـــزمان . ورغم أن جورنفلد يختلف حول قيمتهم فإنه يعتقد أن إضـــافتهم الحقيقـــية إلى الأدب الروسي تكمن في الموضوعات اليهودية التي عالجوهـــا في كتاباتهم فاليهود أدرى الناس بما يواجههم من مشاكل مثلما كان جوجـــول أدرى الناس بتصوير الحياة الأوكرانية . وأيضا وافق جورنفلد على نفـــس رأي روجانتشفسكي القائل بأنه ليس من المعقول ألا يمتد الأدب اليهودي الروســـي إلـــى أكثر من بضعة عقود في حين أن هذا الأدب راسخ في التربة الألمانية ويمتد تاريخه إلى عدة قرون .

وبغـــض الـــنظر عـــن قيمته الفنية فإن للأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية قيمة تسجيلية اجتماعية فالأدب الروسي يذكر اليهود قليلا في حين أن الأدب الـــيهودي باللغة الروسية يدور حولهم كما يدور حول تحيزات القوانين الروسية ضدهم وضرورة إعطاء اليهود حقوقهم المدنية . ولكن هناك شكا في أن يكـــون الأدب الـــيهودي الروســـي قد ترك أثرا يذكر في نفوس الروس . فالرأي عند ج. ب. سليوزبرج أن مثل هذا الأدب لم يترك أي أثر ملموس في غـــير اليهود . ويبدو أن قلة قليلة من الروس المتعاطفين مع اليهود هي التي توفـــرت علـــى قـــراءته . والجديـــر بالذكر أن الصحف والمجلات اليهودية المكتوبة باللغة الروسية ظلت محدودة الانتشار في روسيا حتى عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر . غير أن نطاقها اتسع بعض الشيء وازداد عدد قرائها بعد هذا التاريخ .

وعلـــى أيـــة حال ارتفع بمضي الوقت عدد اليهود الذين استجابوا للأدب الـــيهودي الروسي وتأثروا به . ويؤكد الناقد سولومون شوارز أن هذا الأدب انتشـــر بصفة خاصة بين اليهود الروس ممن يجهلون العبرية ولغة البيديش . فقد أصبح هذا الأدب وسيلتهم إلى إدراك وتعميق يهوديتهم ووعيهم القومي بها الأمـــر الـــذي جعـــل ماير واكسمان يقول أن هذا الأدب حل محل إحساسهم بالوطن كما أنه دعا تشايم زيتلووسكي إلى القول في نهاية القرن التاسع عشر إن الأدب اليهودي الروسي مسئول عن زيادة الوعي بين يهود أوربا الشرقية بأصولهم العرقية . والجدير بالذكر أن هذا الوضع أدي إلى بروز بعض اليهود

كـــأهم مؤرخـــي الأدب الروسي نفسه مثل سيمون ذوبنوف (١٨٦٠-١٩٤١) الــذي كتب أعماله باللغة الروسية وأحب الأدب الروسي خاصة شعر بوشكين وليرمنتوف من سويداء قلبه .

ماهية الأدب اليهودي الروسي وخصائصه :

ويدعونا ما تقدم إلى التساؤل عن ماهية الأدب اليهودي الروسي فليس له تعريف محدد . يرى البعض أنه الأدب الروسي الذي انتجه الأدباء المنحدرون من أصول يهودية بغض النظر عن مضمونه وحتى إذا كان يعالج قضايا غير يهوديـــة . ويذهب البعض الآخر إلى أنه ذلك الضرب من الأدب الذي يعالج المضامين اليهودية . ولكن يبقى السؤال :

هـــل المضمون اليهودي وحده يكفي لاعتباره أدبا يهوديا روسيا حتى إذا كـــان مؤلفه لا ينتمي إلى أصل يهودي ؟! ثم أين يقف شعر الفانسي فيت الذي يـــنحدر من أصل يهودي ولكنه يسعى جاهدا لإخفاء هذا الأصل ؟ وأيضا أين يقف الأدب الروسي الذي يؤلفه أدباء روس ويعبرون فيه تعبيرا قويا عن شدة تعـــاطفهم مـــع قضايا اليهود مثلما فعل الشاعر يفتشنكو في قصيدته المعروفة " بابيي بار " ؟!

ولهـــذه التســـاؤلات يذهـــب بعض الدارسين في تعريفهم للأدب اليهودي الروسي بأنه :

١ – يجب أن يكون مكتوبا باللغة الروسية .

٢ – يجب ان ينحدر كاتبه من أصل يهودي .

٣ – يجب أن يعبر عن قدر من الوعي بالذات اليهودية . وينتهي بنا مثل هـــذا الـــتعريف للأدب الروسي اليهودي إلى عدة نقاط (أولا) إنه إذا لم يكن المؤلف يهوديا فلا يمكن اعتباره منتميا إلى الأدب الروسي اليهودي مهما بلغت درجة تعاطف هذا المؤلف على القضايا اليهودية (ثانيا) إن الأعمال التي يكتبها يهود ولكنها تخلو من أي مضمون يهودي لا يمكن إدراجها تحت هذه التسمية.

والجدير بالذكر أن روسيا قبل ثورة ١٩١٧ نشرت عددا من الصحف الروسية التي اقتصرت على معالجة مشاكل اليهود مثل صحيفة "الفجر" و "الشروق" .

ويخطئ المرء إذا ظن أن الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية تطور من تلقاء نفسه فقد ساعد بعض القياصرة على انتشار اللغة الروسية بين اليهود مثل الكسندر الأول (١٨٠١ – ١٨٢٥) ونيكولا الأول (١٨٢٥ – ١٨٥٥) والكسندر الثاني (١٨٥٥ – ١٨٨١) . ورحب كثير من اليهود بتعلم اللغة الروسية يحدوهم إلى ذلك النجاح الاجتماعي والكسب المادي وسرعة الاندماج في المجتمع الروسي . فضلا عن أن اليهود غير التقليديين وغير المتشددين رأوا في تعلم بني جلدتهم اللغة الروسية سبيلهم إلى الحداثة والتطور والبعد عن الانغلاق على أفكار الآباء والأجداد الجامدة ... أي أنهم رأوا فيها السبيل إلى العلمانية .

وفي عقد الستينات من القرن التاسع عشر عندما ألغى نظام العبودية في روسيا تطلع اليهود إلى الحصول على حقوق مدنية مماثلة لحقوق الرقيق الروس المدنية . واعتقد اليهود أن تعلمهم للغة الروسية سوف يساعدهم على الحصول على هذه الحقوق المدنية فلا غرو إذا رأينا أول مجلة يهودية أسبوعية مكتوبة باللغة الروسية تنشر في شهر مايو عام ١٨٦٠ . وفي عام ١٨٦٣ قام عدد من الإصلاحيين اليهود بإنشاء " جمعية زيادة التنوير بين يهود روسيا " التي كان أحد أهدافها نشر اللغة الروسية بين اليهود في أنحاء الإمبراطورية الروسية . وقامت هذه الجمعية بتمويل عدد من المجلات اليهودية الصادرة باللغة الروسية إلى جانب ما يعرف في اللاهوت بالخمسة أسفار المنسوبة إلى موسى والتي يشك الدارسون في صحة هذا النسب والتي قام بترجمتها إلى الروسية ل. أ. ماندلستام. وقد عارضت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية نشر هذه الترجمة في روسيا فتم نشرها في برلين عام ١٨٦٢ . ولم يسمح لجمعية زيادة تنوير يهود روسيا باستخدام هذه الترجمة . ولكن هذه الجمعية كلفت شاعرا عبريا اسمه جوداه ليب جوردون أن يتولى إعادة ترجمة الخمسة أسفار الموسوية إلى الروسية بالاشتراك مع آي . سي. جيرشتين وتم نشر هذه الترجمة الجديدة في بطرسبرج عام ١٨٧٥. ومن أهم المنشورات الصادرة عن هذه الجمعية تلك المجلدات الثلاثة المنشورة في الفترة من عام ١٨٧٤ حتى ١٨٧٦ بعنوان " فلسفة التلمود " التي تحتوي على مختارات من

التلمود وتعليقات عليها كتبها كل من جوردون وليوليفاندا . وفي عام ١٨٦٩ قام جوشوا موردخاي ليفشتس بنشر معجم روسي – ييديش في أربعة أجزاء. ثم ألحقه عام ١٨٧٦ بأول قاموس ييديش – روسي سهل كثيرا على المتحدثين بلغة الييديش أن يتعلموا الروسية . غير ان بعض الظروف حالت دون سرعة استيعاب اليهود العاديين للغة الروسية . فمعظم اليهود العاديين اضطرهم النظام القيصري إلى أن يعيشوا على الحدود الغربية للإمبراطورية بين سكان لا يتحدثون الروسية مثل البولنديين والأوكرانيين واللتوانيين واللاتفيين والألمان والرومانيين وسكان روسيا البيضاء الذين آثروا جميعا أن يعيشوا بمعزل عن اليهود في المجتمع الروسي . ولكن الحكومة سمحت لبعض اليهود المميزين فقط أن يعيشوا وسط الروس في المدن الروسية الكبرى . والغريب أن هذه السياسة الانعزالية ساعدت على نحو ما على إنتاج الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية لأن اليهود في روسيا آثروا استخدام اللغة الروسية على استخدام اللغات البولندية والأوكرانية والليتوانية الخ . ولكن تطور هذا الأدب اليهودي الروسي كان بطيئا بسبب اتباع النظام القيصري سياسة عزل اليهود عن الروس . وأيضا أعاق تطوره أن اليهود في شرق أوربا اعتبروا اللغة والثقافة والعادات والآداب الألمانية أكثر رقيا وتحضرا من الأدب الروسي ومن ثم يستحق التقليد والاحتذاء والاستيعاب .

والجدير بالذكر أن لغة الييديش التي استخدمها كثير من اليهود في شرق أوربا تأثرت باللغة الألمانية . ناهيك عن ان الثقافة والفنون الروسية من القرن الثاني عشر كانت متخلفة مما جعلها تقفو أثر النماذج الألمانية والفرنسية .

وعلى أية حال ظلت اللغة العبرية حتى نهاية القرن التاسع عشر اللغة الأساسية المستخدمة في اللاهوت اليهودي وإقامة الطقوس والصلوات اليهودية ليس في روسيا وحدها بل في معظم أنحاء أوربا الشرقية . وحتى لا ينسى اليهود لغتهم العبرية عارض أحبارهم في كل من ألمانيا وروسيا ترجمة أسفار موسى الخمسة إلى اللغتين الألمانية والروسية كي لا تشغلهم روعة الترجمة عن دراستها بلغتها العبرية الأصلية .

ولم تقتصر معارضة ترجمة أسفار موسى الخمسة على أحبار اليهود وحدهم بل امتدت إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية التي لم ترحب بترجمة

الكتب المقدسة الخاصة بالديانات الأخرى . ولا غرو فقد خشيت هذه الكنيسة على اتباعها من الفرقة والتشرذم وخاصة لأن بعض الفلاحين الروس في عهد القيصر الكسندر الأول وقعوا تحت تأثير التعاليم اليهودية . الأمر الذي دفع بالسلطات الروسية إلى نفيهم إلى سيبريا والقوقاز . ولهذا السبب مارست الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الضغط على النظام القيصري لتحديد إقامة اليهود في أماكن معينة . وظل النظام القيصري ملتزما باتباع سياسة توطين اليهود في الجيتو حتى انهياره وقيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧ . ورغم الاضطهاد والإبادة التي تعرض لها اليهود في روسيا فقد اتجه عدد منهم إلى دراسة اللغة الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه إتضح من التعداد الذي أجرى عام ١٨٩٧ أن نسبة الأمية بين الفلاحين الروس كانت اكبر بكثير من نسبة الأمية بين اليهود . ويلاحظ أن الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية لم يكن وحده في الساحة فقد وقف بجواره أدب اليديش من ناحية والفنون المكتوبة باللغة العبرية الحديثة من ناحية أخرى . فلا عجب إذا رأينا بعض الكتاب اليهود ممن يكتبون بالروسية يستخدمون لغة اليديش أحيانا واللغة العبرية أحيانا أخرى مثل المؤلف المسرحي المعروف س. أ. أنسكي . وأيضا كتب الشاعر اليهودي فروج بعض قصائده بلغة اليديش . ونفس الشيء ينطبق على الكاتبين جاكوب رومبرو(أو فيليب كرايتز) وأوسيب ديموف اللذين تركا لنا بعض الكتابات المتميزة بلغة اليديش كما ينطبق على الأديبين الباحثين ابراهام كوفنر وابراهام بابرنا اللذين استخدما اللغتين العبرية والروسية في كتاباتهما . فضلا عن أن شاوول جنزبرج الذي تولى تحرير أول صحيفة يومية بلغة اليديش صدرت عام ١٩٠٣ بدأ حياته الأدبية بالكتابة باللغة العبرية . وأيضا ألف الكاتب الفكاهي المرموق شولوم التيشم أعماله باللغتين الروسية والعبرية .

أما كاتب اليديش المعروف ايزاك لوب بيرتز فقد كتب باللغات الروسية والبولندية والعبرية .

ويرجع الانتشار المحدود للأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية إلى عجزه عن منافسة الأدب الروسي القح . فمهما تفوق الأدباء اليهود فلم يكن باستطاعتهم منافسة ليوتولستوي أو غيره من أعلام الأدب الروسي الصميم . ومن أهم الأعمال التي أصدرها اليهود باللغة الروسية تلك الموسوعة التي

بدأهــا جولــيوس جيسين في بطرسبرج في الفترة من ١٩٠٨ حتى ١٩١٣ والتي تقع في ستة عشر مجلداً وتحمل عنوان " الموسوعة اليهودية" .

إن الــثورة البلشفية تركت أثرها الواضح في إعادة التوزيع الديموجرافي للــيهود فــإذا كان بعضهم دفعته هذه الثورة إلى الأمل في التحرر الكامل من ربقة الاضطهاد فإن بعضهم الآخر آثر مغادرة روسيا والهجرة خارجها الأمر الــذي حــدا باليهود الباقين في روسيا أن يسعوا إلى الاندماج أكثر وأكثر في الحياة الروسية وفي تمثل الثقافة الروسية .

ولكــن مهما اعترى وعي اليهود المستخدمين للغة الروسية في كتاباتهم عن أنفسهم من ضعف فقد ظل أدبهم المكتوب باللغة الروسية يحتفظ بأهميته .

والسؤال المطروح هنا . ما هو الجمهور المتلقى للأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية ؟ إن جمهوره يتكون من فريقين : أحدهما فريق محدود للغاية مــن اليهود العارفين باللغة الروسية وفريق آخر يتكون من قاعدة أعرض من القــراء الروس العموميين الذين يودون أن يعلموا شيئا عن الأدب اليهودي . وكما أسلفنا تنتمي هذه الأقلية اليهودية إلى أنصار الحركة الإصلاحية الساعية إلــى إجــراء تغييرات شاملة في حياة اليهود الاجتماعية والدينية وإلى انتهاج سبيل العلمانية والساعية أيضا إلى ذوبان اليهود في المجتمع الروسي . ولهذا الســبب رأى هؤلاء الاصلاحيون اليهود أن تعلم اليهود للغة الروسية واتقانها ســوف يحقــق للإصــلاح المطلوب . والجدير بالذكر أن اليهود الأصوليين ناصــبوا العداء لنقد اليهود لذواتهم المنشور باللغة الروسية أكثر مما ناصبوا العــداء لــنقد اليهود لذواتهم المنشور باللغة العبرية أو لغة الييديش حيث أن جمهــور القراء لهذا النقد الثاني محدود للغاية ومقصور على اليهود في حين أنهــم أدانوا الموقف الأول باعتباره نشرا لغسيل اليهود الوسخ أمام الملأ فهذا مــن شــأنه أن يزيد من حدة معاداة السامية . ولكن الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية أوضح للروس أن اليهود لا يعادون الثقافة الروسية وأنهم على استعداد كامل لتمثلها .

وينطوى الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية على قدر كبير من النقد الذاتــي أي نقــد اليهود لأنفسهم . فضلا عن أنه ناشد الروس لإنهاء المشاعر

المعادية للسامية . واستطاع هذا الأدب أن يثير عطف صفوة المثقفين الروس على اليهود . غير أنه فشل فشلا ذريعا في مهمته بعد ذلك . فقد أصاب نجاحا ملحوظا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدءا بعصر الاصلاح العظيم في الفترة من ١٨٥٦ حتى ١٨٧٠ الذي بشر بتحرير اليهود من ربقة الاستعباد. ولكن هذه البداية المبشرة بالخير سرعان ما انتهت نهاية فاجعة في أواخر القرن التاسع عشر عندما تعرض اليهود للإبادة الجماعية بالتواطؤ مع النظام الحاكم . وقد شجع حكم القيصر نيكولا الثاني الغوغاء على سفك دم اليهود لإرغامهم على اعتناق المسيحية أو الهجرة خارج البلاد . وانعكست هذه الأحداث الدامية على طبيعة الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية فقد خلا من الإحساس بالدعابة وطغت عليها الجهامة في حين أن أدب البيديش تميز بالفكاهة بل أنه خلا حتى من الفكاهة السوداء القاتمة التي نجدها في أدب جوجول وفي قصص البيديش التي ألفها شولوم أليتشيم . ويرجع أحد أسباب خلو الأدب اليهودي الروسي من الفكاهة إلى جدية الدعوة التي تصدي للدفاع عنها وهي تحرير اليهود من الظلم الواقع عليهم . ويخاطب الأدب اليهودي المكتوب بالروسية الطبقة البورجوازية من اليهود في حين أن أدب البيديش يعبر عن عامتهم وفقرائهم .

وأيضا يتسم الأدب اليهودي الروسي بالنزوع إلى تبليغ رسالة اجتماعية ذات طابع عام وليست ذات طابع فردي فالأديب اليهودي الذي يعبر عن أفكاره باللغة الروسية يعني في المقام الأول بالدفاع عن بني جلدته وتصوير ما يتعرضون له من ظلم واضطهاد دون أن يعنيه استجلاء فرديته في قليل أو كثير . ولهذا نرى هذا الضرب من الأدب يفتقر إلى العناصر الجمالية ولا يحفل بالشكل بسبب انصرافه الكامل إلى المضمون مثلما نرى في أدب يوشكفتش بوجه خاص .

والجدير بالذكر أن الأدب الروسي نفسه تطلع في كثير من الأحوال إلى تحرير الإنسان من ربقة الاستعباد . ومن ثم يمكن القول بوجود بعض وجوه الشبه بين موضوعات الأدب الروسي نفسه وموضوعات الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية . ولكن هذا لا يعني البتة تطابق هذين الأدبين . وأدى التشابه بين هذين الأدبين إلى توجيه الاتهام إلى الأدب اليهودي الروسي بأنه يقلد ويكرر بعض الموضوعات التي يعالجها الأدب الروسي ذاته .

والــذي لا ريب فيه أن اقتصار الأدب اليهودي الروسي على شرح الظلم الواقــع علــى الــيهود حدد آفاقه كما حد من قدرته على تصوير حياة اليهود الفردية واقتصر على تصوير قلة مظلومة تعيش وسط أغلبية ظالمة . وأيضا أعرض الأديب اليهودي الذي يكتب باللغة الروسية عن تصوير حكايات اليهود الشــعبية وتقالــيدهم الموغلة في القدم وإعلائهم من شأن حياة الورع والتقوى (التــي تجسد وصفا لها في أدب كل من بن أمي وأنسكي) على عكس أدب الــيديش الــذي اهتم بمعالجة الحياة الشعبية اليهودية كما أن الأدب الروسي المكتوب بالعبرية اهتم باستقصاء الفكر الديني اليهودي .

ويبرز الناقد ماير واكسمان جنوح الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية نحو استيعاب الثقافة الروسية والابتعاد عن الأفكار اليهودية الداعية إلى التقوقع والانعــزال الأمر الذي أثار مخاوف أنصار القومية اليهودية من عدم احتفاظ اليهود بنقاوتهم العرقية ودينهم وكيانهم القومي . وخاصة لأن تشبع اليهود في أوربــا الغربــية بالثقافة الأوربية أدى إلى اندماجهم الكامل فيها لدرجة أغرت كثــيرا من اليهود بنبذ دينهم ويهوديتهم والتزوج من مسيحيين ومسيحيات كما يتضــح لنا من الإحصائيات التي أجريت على يهود ألمانيا . ففي بداية القرن العشرين بلغت نسبة زواج اليهود بغير اليهود في برلين عام ١٩٠٥ ٤٤,٤% و ٤٩,٥% في هامبورج وأيضا زادت نسبة الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود في كل من إيطاليا والدانمارك فقد بلغت ٦١,٤% في تريستا و ٨٢,٩% فــي كوبنهاجــن . وقد حدا هذا الوضع بالناقد كارل كاوتسكي إلى القول بأن الــيهود لا يســتطيعون الاحــتفاظ بنقاوة أصولهم العرقية إلا في الجيتو حيث يعيشــون بمعــزل عن المجتمع الخارجي تحيط بهم العداوة والبغضاء من كل جانب لأن العداء للسامية هو الذي يجعل اليهودي يحافظ على يهوديته .

والجدير بالذكر أن اليهود في أوربا الغربية تمثلوا قيم وثقافات المجتمعات التــي يعيشــون فــيها في حين أن اليهود في روسيا لم يتمثلوا القيم والثقافة الروسية تمثيلا كاملا بسبب ما تعرضوا له من تنكيل واضطهاد . ولهذا نرى الناقد اليهودي الروسي ج . ب. سليوزبرج ينادى بوجود ثقافة يهودية روسية لا هــي بالــثقافة الروسية ولا هي بالثقافة اليهودية . ويضيف سليوزبرج أن البولنديين أصروا على أن ينبذ اليهود في بولندا ثقافتهم وعلى الاندماج الكامل فــي بوتقــة الــثقافة البولندية في حين أن الروس لم يطلبوا من اليهود الذين

يعيشــون بين ظهرانيهم نبذ ثقافتهم ولم يجدوا أي تعارض بين احتفاظ اليهود الروس بثقافتهم الأصلية وبين سعيهم إلى اكتساب الثقافة الروسية .

ويلاحظ أن بعض اليهود الروس أثر اعتناق الديني المسيحي . ولكن هذا لم يمنعهم من إظهار العطف على بني جلدتهم من بني إسرائيل . ولعل أفضل مثال على ذلك الأديب تان بوجورار الذي قام بعد الثورة البلشفية التي اندلعت عــام ١٩١٧ بتحرير مجموعة من الكتابات التسجيلية التي نشرت في موسكو عــام ١٩٢٦ بعنوان " المدينة اليهودية الصغيرة في الثورة " . أضف إلى ذلك أن بعــض اليهود الآخرين نبذوا دينهم اليهودي دون أن يتحولوا إلى أي دين آخــر أمــثال أ . ل. فولينسكي و ن . م. مينسكي وبوجروف الذي يقول عنه مايــر واكسمان أن نبذه لدينه اليهودي لم يمنعه من إظهار عطفه الشديد على مصير بني جلدته الحزين .

والغريــب أن بعــض الــيهود القوميين قبلوا الشتات اليهودي وضرورة اســتيعاب اليهود للغات البلاد التي يعيشون فيها كأمر واقع وحقيقة لا مناص مــنه . يقول المؤرخ اليهودي الروسي سيمون دوبنوف عام ١٩٢٩ في هذا الصدد أنه يتعين على اليهود أن يستوعبوا لغات البلاد المختلفة التي يسكنونها كلغــات أم وأن يتعلموا كيف يصيغون مضمون ثقافتهم اليهودية بهذه اللغات . فلــيس هــناك مجال للإيمان بشوفينية لغتهم العبرية حيث أن اللغات الأوربية والأمريكية أصبحت لغات أم بالنسبة لكثير من اليهود .

روجانشفسكي يغفل كتابا ومترجمين يهودا مهمين :

وفــي الكــتاب الذي ألفه روجانشفسكي عن المؤلفين اليهود الروس نراه يركز عن عمد على عدد منهم من غير المعروفين في انجلترا وأمريكا ويكاد يــتجاهل عامدا نفرا من أبرزهم مثل موردخاي رابينوافتش الصهيوني الكاره للــروس الذي سبق أن أشرنا إليه باسم بن أمي . وأيضا تغفل دراسته راشيل كيــن التي عالجت في أدبها محنة المثقف اليهودي الروسي الممزق بين حبه للثقافة الروسية وعطفه على شعب إسرائيل المشتت والمطحون . وبول فينبرج الذي ذاع صيته وألف مجموعة قصصية ساخرة وناقدة للذات بعنوان " مناظر مــن الحياة اليهودية " (١٨٧٠) تنتقد هذه الحياة والكاتب كوريمان المعروف

باسم ل . أوه كارمين الذي سبق اليهودي اسحق بابل في تصوير ميناء الأوديسا والمناطق الروسية التي يقطنها اليهود والطبقة الكادحة الروسية. و أ . آي سيفرسكي الذي قدم في مطلع القرن العشرين صورة حية للمطحونين من الروس واليهود وكذلك أغفلت الدراسة الشاعر الكسندر جلينبرج المعروف بساش تشوري وهو شاعر شعبي ساخر نذر أدبه لمعالجة الحياة الروسية ونادرا ما عالج الموضوعات اليهودية .

ومن الذين أغفلهم الكتاب أدباء منحدرون من أصل يهودي أسهموا في إثراء الأدب الروسي مثل الأديب الشعبي ليوكو ملبافسكي (١٨٥١ – ١٨٧٩) والشاعر الغنائي دانييل راتجوز (١٨٦٨ – ١٩٣٧) وهو مؤلف لبعض القصائد التي لحنها الموسيقاران الكبيران تشايكسوفسكي ورحمانينوف. ونظرا لأن روجانتشفسيكي في دراسته اقتصر على الفترة الواقعة بين ١٩٠٥ و ١٩١٧ فقد كان من المتوقع أن يتجاهل كوكبة من أهم الأدباء اليهود الذين لمعوا في وقت لاحق أمثال أوسيب ديموف وصامويل مارشاك وبوريس باسترناك .

وأيضا أغفلت الدراسة الدور البارز الذي لعبه المترجمون اليهود في ترجمة كثير من الأعمال الأجنبية المهمة إلى اللغة الروسية لمؤلفين يهود وغير يهود في أوربا الغربية . ومن أهم هذه الترجمات ترجمة القصص والروايات المكتوبة بالعبرية ولغة اليديش . وإذا كان روجانتشفسكي قد ذكر ترجمة جابوتنسكي الروسية لرواية التي ألفها بباليك بعنوان " في مدينة المجزرة " فإنه أغفل ذكر ترجمة جابوتنسكي للقصائد والأغاني التي ألفها بباليك رغم ما أصابته من شهرة وذيوع في عام ١٩١١ – ١٩١٢ . وأيضا أشار روجانتشفسكي إشارة عابرة إلى الترجمة الروسية المهمة التي قام بها ل . آي . ماند لستام للعهد القديم فضلا عن أنه أغفل تماما الترجمة الروسية التي قام بها ج . ل. جوردون لأسفار موسى الخمسة .

نقاد يهود يكتبون باللغة الروسية :

أسهم اليهود الذين يكتبون باللغة الروسية قبل ثورة ١٩١٧ إسهاما كبيرا في ازدهار الحركة النقدية في روسيا . ورغم أن القوانين قبل الثورة البلشفية كانت تحرم على اليهود الانضمام إلى عضوية هيئات التدريس بالجامعات فإن عـددا كبـيرا مـنهم تفوق في مجال النقد الأدبي الأمر الذي يدل على مقدار عشقهم للأدب الروسي . ومن بين النقاد اليهود المرموقين يو . آي . آيكندفالد – ن. ل. برودسكي – أ. ب. ديرمان – ب. م. ايكنيوم – س. ل. فرانك – م. أو . جيرشـنزون – أ. ج. جورنفلد – ل.ب. جروسمان – ب.س. كوجان – ف.ب. كرانكيفلد – ن.أو. ليرنر – ل. آي. شستكوف (أو شفارتسمان) – ف. ب. شوكولوفسكي – س. أ. فينجروف – أ. ل. فولينسكي . وفي عام ١٩٠٩ استند اعداء السامية إلى كثرة اليهود المشتغلين بالنقد الأدبي الروس فاتهموهم بالسيطرة الكاملة في هذا المجال . وحتى اليهود الذين هاجروا من روسيا إلى خارجهـا احـتفظوا بجـذوة حبهم للأدب الروسي متقدة . ومما يذكر في هذا الصـدد أن الباحث اليهودي ليو وانير شغل وظيفة أول أستاذ للأدب الروسي فـي جامعة هارفارد الأمريكية كما أن الباحث اليهودي نستور شورمان كان أول من أدخل الأدب الروسي إلى جامعة كامبريدج .

نبذة عن الناقد ف. ل. روجاتشفسكي (١٨٧٤ – ١٩٣٠)

ولد فاسيلي ليوفتش روجاتشفسكي في مدينة خاركوف في شرق أوكرانيا وكان والده العصامي يشغل وظيفة مرموقة هي مستشار في الدولة . كما كانت أمه ابنة تاجر .

ورغم ظروفه العائلية الحسنة فقد تمرد روجاتشفسكي على مظالم النظام القيصـري واتخـرط فـي صفوف الثوار السياسيين . وفي عام ١٨٩٧ ألقى القبض عليه بسبب اشتراكه في مظاهرة حين كان طالبا في جامعة بطرسبرج. وفـي ١٨٩٨ انضـم إلى تنظيم ماركسي اتخذ من بطرسبرج مقرا له . وبعد تخـرجه في كلية الحقوق انتقل عام ١٩٠٠ إلى خاركوف حيث عمل مساعد محـام كمـا أنـه اشـترك فـي تنظيم تجمع من البولشفيك (حزب الأغلبية) والمانشيفيك (حزب الأقلية) . وفي عامي ١٩٠٣ و ١٩٠٤ تكرر القبض عليه.

وبعد الثورة الأولى التي اندلعت في روسيا عام ١٩٠٥ والتي لعب دورا نشطا في الحض عليها قامت السلطات بنفيه خارج البلاد حتى تمت الإطاحة بالنظام القيصري في فبراير ١٩١٧ . وعند عودته إلى روسيا أصبح عضوا نشطا في حـركة المانشـيفيك . وقام بتحرير مجموعة من السجلات السياسية الخاصة بالفـترة من فبراير حتى أغسطس عام ١٩١٧ . وفي عام ١٩١٨ انسحب من حـزب المانشيفيك ومن حلبة السياسة ونذر حياته للبحث العلمي والاستقصاء الأكاديمـي . غـير أن روحـه الثورية ظلت تلازمه. وفي عام ١٨٩٩ نشر روجاتشفسكي أول أعماله النقدية قارن فيه بين الأديبين جوركي وفير سايف . ولكـنه لـم يحـترف النقد الأدبي إلا بعد عام ١٩٠٥ . وتولى لبعض الوقت تحرير الجانب الشعري من مجلة شهرية اسمها " العالم المعاصر" اشترك كثير مـن المانشيفيك في الكتابة فيها . واقتصر اهتمام روجاتشفسكي على التعليق على الأدب الروسي الحديث الذي وفر له فرصة التعبير عن معتقداته السياسية والاجتماعية ، الأمر الذي جعله ينتقد مضمون الأعمال الأدبية دون شكلها أو أسـلوبها . ولكـنه تنبه إلى أهمية الأسلوب والشكل في وقت لاحق مما جعله يؤكد أنه لا يمكن الفصل بين مضمون العمل الفني وشكله كما جعله يندم على تطبيق المنهج الماركسي وحده في نقده للأعمال الأدبية .

اشـتهر روجاتشفسـكي الذي ذاع صيته في مطلع الثورة البلشفية بعمله الـنقدي المتميز " الأدب الروسي المعاصر " والذي أعيد نشره سبع مرات في الفـترة بيـن ١٩٢٠ و ١٩٢٧ . وقـد أشـاد الأديـب المانشيفيكي ايفان كوبكنـيكوف الـذي ألف كتاب " الطبقة العاملة في الرواية الروسية " بنشاط روجاتشفسـكي الـنقدي المتمـيز معتـبرا إياه حجر زاوية في النقد الأدبي الماركسـي وأيضـا أعلى الناقد ن. ك . بيكسانوف من شأن إسهامه في النقد الأدبـي الماركسي فقال عنه أنه يجيء في المرتبة الثالثة بعد كل من ج. ف. بلـنجانوف و إ. أ . سوليفيف ولكن النظام الستاليني قلب له ظهر المجن بعد وفاتـه واعتـبره ناقدا ماركسيا مزيفا وعاب عليه الجمع بين النقد الماركسي والشـكلي والنفسي في صعيد واحد . وأيضا أنحى عليه الناقد ف . سيدروين باللائمة فكتب عام ١٩٣٢ مقالا بعنوان " المنهج المانشيفيكي في أعمال ف . لـيفوف روجاتشفسـكي الأدبية " اتهم فيه هذا الأديب باعتناق آراء تروتسكية ومانشـيفية فـي عقد العشرينات من القرن العشرين وإدان كتاباته لأنها تنشر

آراء معادية للماركسية والحزب والعلم . وكذلك اتهمه سيدروين بالمروق عن الخـط اللينينـي الصحيح بدفاعه عن ضرورة اتخاذ الحزب موقفا محايداً في أمـور الأدب في حين أن لينين طالب بضرورة التفكير في الحزب الماركسي عـند الـنظر فـي العلـوم والفـنون والآداب . ونحن نطالع تأكيدا لخطايا روجانشفسـكي الأيدولوجية على صفحات " الانسيكلوبيديا الأدبية " السوفيتية التي تصف كتاباته بالبعد الواضح عن الماركسية .

لقد أحب روجانشفيسكي الأدب الروسي حبا عظيما وحاول أن يستخلص منه الجوانب الإنسانية والتقدمية من الناحيتين السياسية والاجتماعية . ورفض مسايرة النقاد الماركسيين الذين اعتبروا الأدب الروسي في القرن التاسع عشر مجـرد أدب أرسـتقراطي أو بورجوازي . وإلى جانب شدة اهتمامه بالأدب الروسي ترك روجانشفيسكي وراءه عددا من الدراسات التي تدور حول بعض كـبار الأدبـاء من الغرب أمثال سيرفانتيس وإبسن . وفي نفس الوقت أظهر روجانشفيسكي اهتماما بالغا بالكتاب الروس الذين تناولوا الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين في أدبهم وقام بحصرهم في ثبت بيليوجرافي نشره بالاشتراك مـع ر. س. ماندلسـتام فـي موسكو ولينيجراد عام ١٩٢٦ بعنوان " المرشد الببيلوجرافـي إلـى الكتاب الذين يتناولون العمال والفلاحين في مؤلفاتهم " . ويتميز نقد روجانشفيسكي عن نقد الماركسيين التقليديين في أنه لا يقطع صلة الأدب الروسي الحديث بماضيه بل ينظر إليه في سياقه التاريخي .

ويتضح من كتاب روجانشفيسكي " الأدب اليهودي الروسي " شدة تعاطفه مـع اليهود . فضلا عن أنه سبق أن ألف كتابا آخر بعنوان " أسلاف الشعب اليهودي في روسيا " نشره في موسكو عام ١٩١٧ قبيل استيلاء البلاشفة على مقالـيد الحكم مباشرة . ثم أعيد طبعه وتنقيحه عام ١٩١٨ . ويوضح لنا هذا الكـتاب بالذات أن حب ناقدنا لليهود كان طاغيا وجارفا . ويسعى هذا الكتاب الأخير إلى دحض الاتهامات التي يكيلها أعداء السامية ضد اليهود . فضلا عن أن بعـض أجزائه تتناول الإسهامات الكبيرة التي قدمها اليهود للثقافة الروسية والتى تناولها بالتفصيل فيما بعد في كتابه " الأدب اليهودي الروسي " . وأيضا الف روجانشفيسكي كتابا آخر بعنوان " مضطهدو الشعب اليهودي في روسيا " الـذي اسـتقى الكثـير من مادته من المرجع الثقة الذي ألفه جولويس جيسين بعـنوان " تـاريخ الـيهود في روسيا " . ويدل كتاب روجانشفيسكي " الأدب اليهودي الروسي " — وهو أشمل مبحث في هذا الموضوع عن عهد القيصرية — على أمل المؤلف في أن يندمج اليهود في نسيج المجتمع الروسي .

الفصل الأول

الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية

في عرضنا لكتاب " تاريخ الأدب اليهودي الروسي " تأليف روجاتشفيسكي Rogachevsky قلنا أن كتاب ف. لفوف روجاتشفيسكي " تاريخ الأدب اليهودي الروسي " بالغ الأهمية . ويحتوى هذا الكتاب الصغير الحجم على اثنى عشر فصلا قصيرا سوف نقوم بتلخيصها .

الفصل الأول :

عنوان هذا الفصل " الأدب الروسي والأدب اليهودي الروسي " وفيه يقول روجاتشفيسكي أن كبار الأدباء الروس أمثال بوشكين وجوجول وتورجنيف ودستيوفسكي لم يعرفوا اليهود على حقيقتهم . ولهذا فإن الصورة التي يرسمونها لهم غير صحيحة . فاليهود في أدبهم إما يبعثون على الضحك أو يثيرون الكراهية . ولكن تغيرا حدث في نظره الأدباء الروس المحدثين لهم امثال ليوتولستوي – ف. ج كورولنكو – آي . أ. بونين – ليونيد أندريف – فيودور سولوجوب – مكسيم جوركي الذين أدركوا أن المشكلة اليهودية مشكلة روسية . ويرجع الفضل في تغير نظرة هؤلاء الكتاب المحدثين إلى الكتابات التي سطرها اليهود باللغة الروسية عن مشكلاتهم وهم أدرى الناس بها . ويقدر عدد اليهود في الإمبراطورية الروسية عام ١٩١٦ بسبعة ملايين نسمة أي نصف عددهم الإجمالي في العالم آنذاك . ومهما قيل عن حياتهم المنعزلة فلا مناص من الاعتراف بشدة تأثرهم بالأدب الروسي .

ويشير المؤلف إلى البحث الذي نشره عالم الاقتصاد اليهودي ب. د. بروتسكوس المنشور في بطرسبرج عام ١٩٠٨ بعنوان " التكوين المهني للسكان اليهود في روسيا " . كما يتناول بالدراسة والتحليل تعداد السكان الذي أجرى في روسيا في ٢٨ يناير ١٨٩٧ . ويتضح من بحث بروتسكوس أن عدد اليهود الذين كانوا يعتبرون اللغة الروسية لغتهم الأم كان محدودا للغاية ولا يتجاوز ٩% من عددهم الإجمالي . واعتبرت الغالبية العظمى من اليهود التي بلغت نسبتها ٩٦,٩% أن اليديش هي لغتهم الأم . ولكن هذه النسبة

تغـيرت بمرور الوقت حيث أن عدد اليهود الذين يعتبرون اللغة الروسية أخذ في الازدياد . ولا شك أن من المفارقة أن نعرف أن نسبة أمية اليهود في اللغة الروسـية كانت أقل من نسبتها بين الروس أنفسهم . والجدير بالذكر أن معظم اليـهود الـروس كانوا يعيشون في المدن الكبيرة والصغيرة ويحترفون المهن والـتجارة فـي حيـن كان عدد اليهود العاملين بالزراعة ضئيلا للغاية . وقد انعكس هذا في أدب ج. فروج الذي ولد في مستعمرة زراعية يهودية مما جعل هذا الأديب يعني بتصوير روعة المناظر الطبيعية والحياة الريفية .

يتسـم الأدب اليهودي الروسي بخاصية ميزته عن سائر الآداب الأخرى وحدت رؤاه وآفاقه وجعلته مقصوراً على تصوير العذاب الناجم عن استمرار اضطهاد اليهود عبر القرون الطوال . ويتضح من استقراء الأوضاع في المدن التـي يجـتمع فيها اليهود أنهم كانوا في فترة ما قبل الثورة البلشفية أشد من الـروس في حرصهم على قراءة الأدب الروسي وخاصة أعمال ليوتولستوي التـي كـادت أية مكتبة يهودية ألا تخلو منها . ومعنى هذا أن قراءتهم للكتب العبرية وكتب البيديش لم يصرفهم عن الاطلاع على عيون الأدب الروسي . ولكـن يجدر بنا أن نذكر أن مثل هذا الاهتمام بالأدب الروسي من قبل اليهود جـاء متأخرا في العقد السادس من القرن التاسع عشر فقبل هذا الوقت ذاعت اللغة الألمانية بين اليهود الروس قبل أن تشيع اللغة الروسية بينهم . وتتضمن روايـة " أزمنة مضطربة " التي ألفها ل. أو . ليفاندا خطابات فتاة يهودية إلى صـديقها يرجع تاريخها إلى عام ١٨٦١ . تقول الفتاة اليهودية في خطابها : " تؤكد سادين انني بمرور الوقت سوف اعتاد على حب اللغة الروسية والأدب الروسي . فهل تصدق أن الروس أصبح لديهم الآن أدب . وهذا اكتشاف جديد تمامـا بالنسـبة لـنا . أليس كذلك ؟ " والذي لا شك فيه أن الطلبة اليهود في مدارسـهم ومعـاهدهم الدينية بدأوا يعتادون بسرعة على حب الأدب الروسي واعتباره في منزلة الأدب اليهودي " وبعد أن كان الأديب الألماني شيلر مثلهم الأعلى حل محله ليو تولستوي وأترابه .

ويعتبر ف. أو. جار كافي أحد اليهود الذين تأثروا بالأدب الروسي . ولد جار كافي عام ١٨٤٦ في أقليم منيسك وتخرج من جامعة موسكو عام ١٨٦٤. ونحن نراه في مقاله " مختارات من ذكرياتي " يتحدث بحماس شديد عن الأثر العظيم الذي تركه فيه الأدب الروسي . ثم عرض في وقت لاحق لأثر مسرح

موسكو فيه . وبدت روسيا لجاركافي بلدا يثير الإعجاب ويزخر بالكتاب العظماء الذين أنجبتهم روسيا أمثال بلنسكي وتورجنيف ونكراسوف . وبلغ ولعه بارتياد مسرح مالي مبلغا جعله مفتونا بمسرحية جوجول "المفتش العام ". فضلا عن افتتانه بمسرحيات أخرى لأوستروفسكي وآخرين . ويصف جاركافي حماسه وحماس أقرانه الشباب لحضور المسرحيات الروسية التي تدور حول البطولات وحقوق المرأة والحقوق المدنية والمسئولية الاجتماعية والحرية السياسية والحب الطليق . وأيضا يحدثنا جاركافي كيف أنه وأقرانه ذرفوا الدمع سخينا عند مشاهدة تمثيل مسرحية أوستروفسكي " وضع مربح للغاية " إلى جانب بعض المسرحيات الأخرى .

ويلقي المقال الذي سطره س. ل. تسنبرج بعنوان " أول المجلات الاشتراكية في الأدب اليهودي " وكذلك المقال الذي كتبه في " فرومكين " بعنوان " من تاريخ الحركة الثورية بين اليهود في عقد السبعينات " ضوءا غامرا على مدى تأثر المثقفين والثوار الاجتماعيين اليهود بالأدب والفكر الروسي . وتركز اهتمام المثقفين اليهود على طبقة الفلاحين الكادحة التي بدأت تغزو الأدب الروسي في عقد الستينات على حد قول س. ل. تسنبرج فهذا الفلاح الروسي المطحون لمس قلوب اليهود المطحونين ممن يعيشون في الجيتو . وأخذ الدارسون اليهود المنحدرون من عائلات فقيرة يلفتون أنظار الشباب من بني جلدتهم إلى المشاكل التي تؤرق الشباب الروسي وكذلك المشاكل التي يعالجها الأدب الروسي الذي لم يكف الطلبة اليهود عن تهريبه داخل مدارسهم الدينية . وكان بيساريف ودوبرليوبوف وتشرنشسفكي في طليعة الكتاب الروس الذين أقبل الشباب اليهودي على قراءتهم .

وأيضا تأثر بأدب بيتر لافرون المفكر آرون ليبرمان أول يهودي روسي يؤمن بالاشتراكية وفي المقال الذي نشرته مجلة " إلى الأمام " عدد ٢٨ أول أغسطس ١٨٧٦ نرى ليبرمان يناشد المثقفين اليهود الروس الشبان أن يتبعوا شعار أنصار الأدب الشعبي المنادى بضرورة الالتصاق بالشعب . وفي عقد الستينات من القرن التاسع عشر ظهر الكاتب اليهودي موريس فينشفنسكي الذي وقع في وقت لاحق تحت تأثير كل من بيساريف وتشرنيشفسكي وقرأ لهذا الأخير روايته " ما العمل ؟" وأيضا ظهر في الساحة الكاتب اليهودي أنسكي (أوس . أ. رابوبورت) الذي صار فيما بعد سكرتير الكاتب الروسي

لافروف لمدة ستة أعوام . وعندما توفر المثقفون اليهود الشبان على قراءة المؤلفين الروس راق لهم المنادون منهم بضرورة الالتزام الاجتماعي أكثر مما راقهم اتباع المنهج النفسي أو الجمالي . ويصور أنسكي في حكايته " الرواد " أول من أعجبوا بالأدب الروسي وأحبوه بين المثقفين اليهود . والجدير بالذكر أن البطل الذي صوره أنسكي في قصته قرر الانفصال عن تراث الماضي والانكباب على قراءة أعمال أ. ك. ميخائيلوف . ويصف أنسكي رد فعل أحد أبطاله نحو تأثره بالأدب الروسي وتأثره بكتابات أ.ك. ميخائيلوف فيقول : " أنه (أي دستيوفسكي) لا يحرك مشاعري كما أن شعر بوشكين لا يترك في أي أثر فأنا أطالعهما ثم أنساهما. ولكن ميخائيلوف يحرك روحي من الأعماق. وعندما قرأت روايته " عند قطع الخشب التي تتطاير أجزاؤه " بصوت عال فنشجت بالبكاء العنيف . فشكراً لهذه الرواية التي جعلتني أولد من جديد. وجعلت مني شخصا جديداً تماماً .. " ويتبنى الأدباء اليهود الذين يكتبون بالروسية قضية الاستنارة وهم مفتونون بالأدباء الروس الذين يدافعون عن الأذلاء والمطحونين . وحتى إذا جار عليهم وهاجمهم بعض الأدباء الروس فإنهم يقابلون ذلك بسماحة ولا ينسون دفاع الأدباء الروس العظام عن المظلومين . وعندما توفي دستيوفسكي كتب س. كاجان عام ١٨٨١ يقول : " أن كل مثقف يذكر ما نشره دستيوفسكي في عدد مارس ١٨٧٧ من يوميات كاتب بعنوان " المشكلة اليهودية " . ورغم ما تتضمنه يوميات دستيوفسكي من مشاعر مسيئة لليهود فإن كاجان يقول إنه يتعين على القارئ أن يميز بين إخلاص دستيوفسكي وسعيه الأمين نحو الحقيقة والعدل وبين النصابين الذين يهاجمون اليهود ويزرون بهم . وحتى عندما أراد اليهود الروس التعبير عن شدة إعجابهم بكاتب يهودي لم يجدوا غير الأدباء الروس العظام يشبهونه مثل مثل قولهم عنه أنه تشيكوف اليهودي أونكراسوف اليهودي . ويذهب م. ن. لازاريف في المقال الذي كتبه بعنوان " هدف ومغزى الفنون الجميلة اليهودية الروسية " إلى أن الأديب اليهودي الذي يضطلع بالدفاع عن قضية أو وجهة نظر كان يقتفي أثر الأديب الروسي ويحاكيه . هذا ما حدث في الأدب اليهودي الروسي في العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر .

ومن الناحية الفنية يمكن القول أن الأدب اليهودي الروسي لم يضف إلى الأدب الروسي أية أشكال جديدة رغم انه بكل تأكيد أضاف إليه موضوعات

جديــدة تتعلق بضرورة إقرار العدالة والحقوق المدنية والمساواة بين البشر . وبالــنظر إلــى انشــغاله بهذه القضايا فقد كان من الطبيعي أن يصبح دعائيا ويكرس نفسه للدفاع عن قضية رفع الظلم عن اليهود مثلما نرى في مسرحية "الملــك" التي ألفها سيمون بوشكفتش . ولم يكن الأديب اليهودي الروسي يهتم بمخاطــبة الــروس المتعاطفين معه بقدر ما كان يهتم بمخاطبة الروس الذين يكرهونه ويناصبونه العداء حتى يكسبهم إلى صفه . ومن ثم فقد انصرف عن خلــق الأشــكال الفنــية الجديدة مركزا اهتمامه على التنوير والتبشير والقتال بالكلمات والاعتراض على الأوضاع السيئة . ويفسر لنا هذا السر في أن ينشأ الأدب الــيهودي الروسي في أحضان الصحافة اليهودية الروسية . وبالإضافة إلــى ذلــك تأرجح هذا الأدب بين الدفاع عن اليهود والاعتذار عنهم وتوجيه الاتهامات إليهم دون خشية اللائمين أو تقريع المقرعين فكتابه من اليهود وهم أدرى بعيوبهم من غيرهم . وبسبب صراحتهم مع أنفسهم رفضوا أن يرسموا صــورة ورديــة لبني جلدتهم . ومن بين هؤلاء الأدباء الصرحاء مع النفس رايفنوفتش وليفاندا وبوجروف ويوشكوفتش وسوبول .

واللافــت للنظر أن الأدب اليهودي الروسي تفاءل خيراً بمستقبل روسيا رغــم كل ما وقع عليهم من جور وخسف واضطهاد . وتفاؤله يستند إلى أن الإيمان بأن الغد أكثر اشراقا من اليوم . ويتمثل هذا في قول البطل في رواية " في المدينة " التي ألفها بوشكفتش " إنني أومن بانتصار الخير . إن الأوضاع ســيئة فــي الوقت الراهن ولكنها في طريقها إلى التحسن . ولا بد لها من أن تتحســن ". ومعنى هذا أن اليهود الروس استمدوا من يأسهم قوة وعزما وأملا في المستقبل .

ويطــرح ف. لفــوف روجاتشكفسكي السؤال التالي : هل يمكن اعتبار الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية أدبا قوميا يهوديا رغم أنه مكتوب بلغة تختلف عن لغة بني إسرائيل ؟ ويرد روجاتشفسكي على هذا التساؤل بقوله أن الأدب الــذي ينتجه اليهود بلغات أجنبية في بلاد الشتات أدب يهودي صميم ، فاليهود الخلاقون تتفتح قرائحهم بلغات البلاد التي يعيشون فيها . فابن ميمون علــى سبيل المثال كتب باللغة العربية كما ان المنشق الدينى اليهودي موسى مندلســون ترجم الكتاب المقدس من العبرية إلى الألمانية . يقول مؤرخ الأدب دويــنوف فــي معــرض حديثه عن شعر فروج : " إن اليهود عبر مشوارهم

التاريخي الطويل استخدموا كافة اللغات المستخدمة في العالم المثقف منذ عهد الإغـريق القدمـاء حتى روسيا في الوقت الحالي كوسائل للتعبير عن قدرتهم الروحية الخلاقة الأمر الذي أدى إلى أن تصبح شرائح كبيرة من آداب اللغات الأجنبـية جـزءاً مـن الأدب اليهودي دون أن يفقد هذا الأدب الأخير اكتماله الداخلي أو تميزه القومي . ويستشهد دينوف باشعار فروج للتدليل على صحة هـذا الاعتقاد . وأيضا تحدث الشاعر القومي اليهودي بياليك عقب وفاة فروج قـائلا: "عندما أقرأ فروج بلغة اجنبية أشعر بروحي لصيقة بروحه .. روحه اليهودية كما أني أشم عبق الكتاب المقدس والأنبياء . وأقبل فروج ليس كمجرد قارئ لشعره بل أقبله كيهودي . إن فروج في نظري لا يكتب باللغة الروسية . وحين طالعت شعره باللغة الروسية لم احس بأنه يستخدم هذه اللغة للتعبير عن نفســه . ففــي كــل كلمة طالعتها شعرت بلغة أسلافي ، لغة الكتاب المقدس وشعرت بروح رجل يتعذب من أجل الشعب اليهودي ".

ويعكس الأدب اليهودي الروسي نظرة اليهود المأساوية للحياة . وهو ما حــوا بالشــاعر الإنجليزي المعروف اللورد بيرون إلى الحديث في غنائياته العبرية عن الروح اليهودية المظلمة . يقول روجانشفسكي أننا نجد هذا النواح والــيأس الروحي في أول ما أنتجه الأدباء اليهود الروس من أعمال . ونحن نسمع نواحا وأنينا في الكتاب الذي ألفه بيفاكوفتش بعنوان " نواح ابنة جوداه " وهــي أول عمل يهودي مكتوب باللغة الروسية على الإطلاق . ونفس النواح موجود في شعر كل من منسكي وفروج وفي نثر كل من رابينوفتش وايزمان ويوشــكفتش . حتى ضحكات الأدباء اليهود تنضح بالألم . فالحزن هو الطابع المميز للأدب اليهودي الروسي .

ويذهــب روجانشفسكي إلى أنه لا يروم المبالغة في تضخيم قيمة الأدب الــيهودي الروسي وأنه يدرك أن كثيرا من القوميين اليهود يرفضونه ويقللون من شأنه . ففلاديمير جابوتنسكي يقول : " حتى الآن نجد أن اليهود لم يضيفوا شيئا إلى الأدب الروسي . " حتى نقاد العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر مثل م. ن. لازاريف تحدثوا عن الأدب اليهودي الروسي كشيء محدود القــيمة والموهبة . وكذلك شبه الناقد اليهودي الصهيوني فولينسكي الذي نشر ديوانا بعنوان " فلسطين في بطرسبرج " عام ١٨٨٤ الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية بأنه حجرة عبادة صغيرة في هيكل فسيح " . ثم أردف قائلا :

" بالأسف أن اليهود حتى الآن لعبوا دورا ثانويا في الأدب الروسي " ثم يؤكد فـي موضـع آخر أن اليهود عجزوا عن إضافة أي شيء ذي بال إلى الأدب الروسـي باستثناء فروج ومينكسي " . وفولينكسي لا يفتأ أن يكرر هذا الرأي فـي أماكن أخرى. ورغم إدراك روجانتشفسكي لضآلة إسهام اليهود في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر فإنه يؤكد أن هذا الأدب لفت نظر الروس إلى محنة اليهود .

ويقسم روجانتشفسكي الأدب اليهودي الروسي إلى أربع فترات :

١ – فترة التنوير اليهودي الباكرة ومقاومة الفكر اللكهنوتي داخل الجيتو أثناء حكم نيكولا الأول الظالم لليهود في عام ١٨٢٥ إلى عام ١٨٥٥ . في تلك الفـترة كـان الـيهود يميلون إلى المثالية ويأملون في أن يسود العقل علاقة الروس بهم .

٢ – حركة التنوير المرتبطة بعصر الإصلاحات العظمى الذي استمر من عـام ١٨٥٦ تقريـبا حتى عام ١٨٧٠ والذي اتسم بالتفاؤل والدفاع عند مبدأ الاندمـاج مع سكان روسيا الأصليين فالاندماج في رأي هذه الحركة هو سبيل اليهود إلى التحرير .

٣ – فـترة البعث القومي وازدهار أدب البيديش ونبذ فكرة الاندماج فبعد المجـازر التـي تعرض لها اليهود عام ١٨٨١ ظهر اتجاه قومي بين بعض المثقفيـن الـيهود يؤمـن إيمانـا عميقا بأن الحل لمشكلة اليهود لا يكمن في اندماجهم مع الروس بل في الحياة في كيان مستقل خارج روسيا .

٤ – الفـترة من ١٨٩٠ تقريبا حتى ١٩١٤ وهي الفترة التي ازدهر فيها الـنظام الرأسمالي واحتدم الصراع بين العمال وأصحاب العمل . وهي أيضا الفـترة التي شاهدت التناقضات بين المدينة وطموحات الطبقة الكادحة ومثلها العليا المتمثلة في الإيمان بالعدالة الاجتماعية والتضامن العمالي على مستوى العالم كله . وفي هذه الفترة اكتسب مفهوم التضامن أو الاتحاد الجماعي أهمية تفوق أهمية التضامن الوطني .

الفصل الثاني :

يعالج روجانتشفسكي في هذا الفصل – وهو بعنوان " الإيمان والعقل " – فترة حكم القيصر نيقولا الأول ورجال التنوير الأوائل بين اليهود الروس أمثال بابرنا وكوفنر وبوجروف وليفاندا وانسكي . ويذهب روجانتشفسكي إلى أن إنتاج اليهود الروس في هذه الفترة كان محدودا للغاية وأنه لم يصبح وفيرا إلا في بداية الستينات من القرن التاسع عشر بعد وفاة نيقولا الأول . ففي فترة حكم هذا القيصر اتجه اليهود الذين يكتبون باللغة الروسية إلى توثيق علاقتهم بالثقافة الألمانية وليس بالثقافة الروسية . ويمكننا أن نعرف ضآلة إنتاج هذا الأدب من خلال المقالات والتقارير التي ظهرت فيما بعد في عقد الستينات بالاطلاع على عدد من المجلات الصادرة آنذاك بعنوان " رازسفت " و" النهار وصهيون " وكذلك القصص القصيرة الطويلة التي نشرت في عقد السبعينات في" المكتبة اليهودية " ثم في عقد الثمانينات في صحيفة فرسكور ومن خلال الخطابات والمذكرات في " انتيكات يهودية " إلى جانب ما كتبه ج. آي بوجروف بعنوان " مذكرات يهودي " (١٨٧٠ – ١٨٧٢) و " اسكتشات من الماضي " التي ألفها ليفاندا عام ١٨٧٥ وحكايات أنسكي التي نشرها في الثمانينات . وخلال فترة حكم نيقولا الأول الاستبدادي تقوقع اليهود الروس وانكفأوا على أنفسهم وأصابهم الخوف من التجديد واقتصروا على مراعاة الطقوس وانتشرت فيهم الخزعبلات وتقطعت الصلة بينهم وبين العالم الخارجي وانفصلت علاقتهم بالثقافة الأوربية . وهكذا اكتفى اليهود بحياة الجيتو الذي انطوى على تركيبة اجتماعية يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى.

ولكن التطور ما لبث أن اعترى المجتمع اليهودي في روسيا تحت وطأة التحولات الاقتصادية ونشأة النظام الرأسمالي الذي قضى على عزلة اليهود وفتح آفاق اتصالهم بالمجتمع الخارجي . وبات من الواضح أن انغلاق اليهود القديم على أنفسهم لم يعد يتناسب مع التغيرات الاقتصادية الرأسمالية الجديدة. وانعكس هذا الوضع الجديد على تركيبة الجيتو أو المجتمع اليهودي التقليدي فقد دار صراع مرير بين غلاة المحافظين والمتشددين اليهود من دعاة الاستمساك بالماضي والتراث والتقاليد القديمة والبالية وبين شريحة جديدة من

الـيهود المستنيرين الذين ظهروا مؤخرا واستشرفوا المستقبل وشعروا برياح التغيير تهب عليهم .

عـالج بوجـروف فـي " ذكريات يهودي " وليفاندا في " اسكتشات من الماضـي" علاقـات اليهود ببعضهم البعض في أيام زمان عندما كان للأحبار والمتعصـبين اليد الطولى في المجتمع اليهودي الذي تشيع فيه الخزعبلات . ورغـم هذا الجو الخانق فقد برزت فئة ضئيلة من اليهود النابهين الذين سعوا إلى التخلص من هذا الجو الخانق والتنفس بحرية في جو أكثر انفتاحا ورحابة كما نجد في مذكرات كل من الأديبين اليهوديين ابراهام أي بابرنا وابراهام يو كوفنر اللذين توفرا على دراسة الكتاب المقدس لمدة عشر ساعات يوميا تحت إشـراف أحبار ومدرسي دين منذ أن كانا في سن الرابعة . يقول كوفنر الذي تحـول فيما بعد إلى مدافع عن المذهب الفوضوي المعروف بالعدمية في هذا الشأن : " ولست أتذكر متى تعلمت القراءة . أعرف فقط أنني بدأت في الرابعة انكـب علـى دراسة العهد القديم وانني عندما بلغت السادسة عذبوني بدراسة الـتلمود . " وحين بلغ كوفنر السابعة ألف قصيدة دينية طويلة باللغة العبرية . وفي الثامنة عشرة حفظ عن ظهر قلب جميع أجزاء العهد القديم تقريبا كما أنه عرف معرفة جيدة أبرز أعلام الأدب العبري . غير أنه بدأ آنذاك يولي ظهره للديـن ويـتجه شـطر قراءة الكتب العلمانية والاطلاع على الكتب الممنوعة والمحـرمة التـي غمـرت قلبه بالفرح وملأته بالانشراح . وهكذا توقف عن التفكير في سخافات اللاهوت والعقائد اليهودية البالية والتساؤلات الدينية غير المجدية مثل: هل أكل بيضة وضعتها الفرخة في يوم الإجازة حلال أم حرام ؟ وهـل حلال أم حرام استخدام طاسة وقعت عليها نقطة لبن في شواء اللحم ؟ ولـم يسـتطع كوفـنر أن يتخلص من الجو الديني الخانق والفكاك من قيود الماضي إلا بعد فترة من المعاناة والصراع الرهيب وهربه سرا لدخول جامعة كييف .

وأيضـا ابتعد بابرنا عن التربية الدينية الضيقة الأفق وانكب على قراءة الكتب العلمانية التي زخرت بها مكتبة والده الذي كان كثير السفر إلى ألمانيا. ومـن هـذه الكتب غير الدينية تعلم أن هناك مملكة واسعة وفسيحة لا تقتصر على الطقوس والشكليات الفارغة .

وهكذا استطاع كوفنر وبابرنا التخلص من الجو الديني الخانق الذي تربيا فيه وأن يعتنقا الأفكار المتحررة وأن يناضلا من أجل إقامة عالم رحيب تسوده الحـرية . ويصور الأديب أنسكي شابا ينجح من الفكاك من الأفكار والتقاليد الـيهودية البالـية . ويشن هذا الشاب المستنير على بني جلدته المتزمتين في الجيتو حربا على التربية الدينية اليهودية الجامدة والمتزمته وضيقة الأفق .

كـان يهود برلين ، في ألمانيا في طليعة الداعين إلى التنوير ويقتفون أثر الفيلسـوف موسـى ماندلسـون (١٧٢٩ – ١٧٨٦) الذي كان صديقاً للأديب الألمانـي الكبير لسنج الذي اشتهر بدفاعه عن اليهود في مسرحيته المعروفة " ناثان الحكيم " . آمن ماندلسون وأتباعه بضرورة إتقان اليهود للعلوم الطبيعية مـثل الفيزياء والرياضيات والفلك الخ ... ونادى اليهود الداعون إلى التنوير بضرورة دراسة اللغات الأوربية وخاصة الألمانية حيث أنها وسيلتهم إلى إتقان العلـوم الطبيعـية . وأيضا نادى هؤلاء التنويريون بضرورة اشتغال اليهود بالـتجارة سعيا وراء الاستقلال وحتى لا يعيشوا عالة على المجتمع . وذهب أتباع ماندلسون ومريدوه الذين اتبعوا المنهج العقلي إلى أن التنوير لا يتعارض مـع صحيح الدين اليهودي . وهم لم يعتبروا أنفسهم مهرطقين أو مارقين عن الدين بل مجرد مصلحين .

ولا مـناص من الاعتراف بأن التنويريين اليهود الأوائل عانوا الأمرين وكافحوا كفاحا مريرا في سبيل دعوتهم إلى الاستنارة . ولكنهم استطاعوا في نهاية الأمر من إلحاق شرخ في مجتمع الجيتو المغلق الذي ورثوه من القرون الوسطى . ويحدثنا الأديب أنسكي في قصته " الدواء " عن الأهوال التي لقيها التـنويريون الـيهود الأوائـل في محاولتهم تبديد الظلمة التي فرضها عليهم أحبارهم وكهنتهم لدرجة أن مجرد احتفاظهم بأي كتاب ديني يدعو إلى التجديد كـان عمـلا ينطوي على المخاطرة . فضلا عن انهم كانوا يلوذون بمخازن البـيوت وأحواشـها كي يتمكنوا من قراءة الكتب المحظورة من قبل الأحبار والأصـوليين الذيـن رأوا في قراءة اللغة الروسية عملا مناهضا للدين الأمر الذي اضطرهم أحيانا إلى تعلم اللغة الألمانية كلغة وسيطة يتمكنون من خلالها تعلـم اللغـة الروسية إذ لم تكن هناك آنذاك معاجم عبرية – روسية بل كانت هناك معاجم روسية – ألمانية .

وتـدور " مذكـرات يهودي " التي سطرها بوجروف حول شاب يهودي يـتجه إلى دراسة العلوم الطبيعية فتلحق به اللعنة ويعترض عليه المحافظون وكـبار السـن من بني جلدته ويواجه شيئا أشبه ما يكون بمحاكم التفتيش في القرون الوسطى . ولم تكن الحرب بين الجيل القديم المحافظ من اليهود والجيل الجديـد المتطلع إلى الحرية مستعرة في المدن الكبرى فقط حيث توجد مراكز الإشـعاع الفكـري والثقافـي بل أنها امتدت وهو الأهم إلى داخل الجيتو أو حـارات الـيهود . وبلغ احتدام الصراع بين الجيلين مبلغا جعل الجيل الجديد يركـز كـل اهـتمامه على مشاكله مع جيل الآباء والأجداد . ولا يلتفت إلى الخسـف الـذي يلقاه اليهود ككل على أيدي الروس . ومعنى هذا أن مشاكل الجيل الجديد الداخلية مع أهله وذويه أنسته مشاكله مع العالم الخارجي . وفي حين كان الجيل القديم المحافظ والظلامي والمتزمت يقاوم قدر استطاعته بطش الحكومـة الروسية ظل الجيل الجديد المتطلع إلى التغيير مواليا لها . وخاصة لأنها كانت تسعى أحياناً لتنوير اليهود من أجل خدمة أغراضها . وهو ما نجده في " ذكريات " بابرنا حيث نرى شخصية إيزاك باير لفنجسون ينادي بالولاء لسلطة الدولة الروسية . ولم يكن هذا راجعا بحال من الأحوال إلى عدم إدراكه لمـا يـتعرض له بنو جلدته من عنت واضطهاد بل لاقتناعه بأن المحن التي يجـتازها الـيهود تأتيهم من الداخل نتيجة تحجرهم وجمودهم وانغلاقهم على ذواتهـم . خلاصـة القول أن الجيل الجديد رأي في طبقة الأحبار والكهنوت عدوهم الأول.

وهناك ارتباط وثيق بين سعى اليهود الروس إلى الحصول على الثقافات الأوربـية وسعى الروس إلى تحديث أنفسهم والاحتذاء بأوربا . ولا غرو فقد كانـت روسـيا آنـذاك تمـر بمرحلة تحول من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسـمالي . ووقـف جـيل الشـباب من اليهود بجانب التغيير ضد الجمود والرجعـية والـتخلف . بـل أنه تحالف أحيانا مع السلطات الروسية الحاكمة الساعية إلى تحديث البلاد على غرار أوربا . وإذا كان الجيل القديم قد اقتصر فـي قـراءاته علـى الكتابات العبرية فإن جيل الأبناء اتجه إلى قراءة الكتب والمجـلات الأجنبـية وبخاصة الألمانية . فالأديب اليهودي بابرنا يخبرنا أن حقائـب والـده الكثـير السـفر إلى ألمانيا امتلأت بالكتب غير العبرية مثل الكلاسيكيات الألمانية وكتاب كالمان شولمان عن فلسطين .

وأيضـــا ألـــف رابينوفتش قصة بعنوان " المجند " تحدثنا عن بطل يطالع عددا من الكتب الفلسفية المكتوبة باللغتين الألمانية والعبرية إلى جانب الكتاب الـــذي ألفـــه مندســـون بعنوان " أورشليم " الصادر في برلين عام ١٧٨٣ . ويصـــور رابينوفـــتش بطلا يهوديا آخر يطالع أعمال جوته ويحتفظ بقاموس ألماني روسي . وفي رواية ليفاندا " أوقات مضطربة " نرى أن شخصية سونيا أورنســـون الروائية تحتفظ في مكتبتها بأعمال شكسبير وبعدد كبير من الكتب الألمانـــية من تأليف مندلسون وكانط وفيخت وفيرباخ . وهي كتب قام والدها الـــتاجر بجمعها أثناء زياراته المتكررة إلى ألمانيا . ويدل هذا على أن التنوير الـــيهودي جـــاء على أيدي التجار اليهود . ولهذا السبب كان في بادئ الأمر تـــنويرا ســـطحيا يـــتفق مع ضحالة التجار الثقافية . فالتاجر اليهودي قد يقلد الألمـــان فـــي عـــاداتهم وملبسهم ولكنه لا يتعمق في ثقافتهم . وقد حظي هذا التـــنوير الســـطحي بهجوم رابينوفتش عليه . ولكن الأجيال اليهودية اللاحقة سرعان ما حذفت الثقافة الألمانية بوجه خاص والثقافة الأوربية بوجه عام .

الفصل الثالث :

يتناول هذه الفصل اثنين في الكتاب اليهود الروس هما ليف نيفاكوفتش و ل.آي. ماندلســـتام . ويقـــول هـــذا الفصل أن بواكير الأدب اليهودي الروسي ظهرت متناثرة ومتفرقة وأنها تنم عن تأثرها بكتابات موسي مندلسون وتلميذه إيزاك باير لفنسون . وكما أسلفنا تتسم جميع الأعمال اليهودية المكتوبة باللغة الروســـية بالحـــزن الشامل العميم وبأن مستقبل اليهود في روسيا سوف يكون أفضل من حاضرهم .

ويعتـــبر جوداه ليف ميفاكوفتش – تلميذ موسي مندلسون – أول يهودي يكتب باللغة الروسية . نشر ميفاكوفتش عام ١٨٠٣ كتابا بعنوان "ابنة جوداه" دافع فيه عن بني إسرائيل وسعى إلى إصلاح شأنهم وتنويرهم . وحدا به الأمل أن تتغـــير قلوب وعقول الروس فتصبح حانية على اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم .

وفي عام ١٨٤٩ كتب روبن مويسفتش كوليشر قصيدة انتقلت من يد إلى يد أيام طلبه العلم في جامعة بطرسبرج . وتعكس القصيدة مواقف وآراء القلة

اليهودية المثقفة آنذاك . وتسعى القصيدة إلى القضاء على روح الاحتقار التي يكنها غير اليهود لليهود فهم شعب يستحق الاحترام لأنه عرف وصايا الله وعمل بها وتحمل الظلم وقسوة الحياة . وتتبأ كوليشر في قصيدته بأن الشعبين الروسي والبولندي سوف يتفقان ويتصالحان يوما ما مع اليهود .

ويشير هذا الفصل إلى شعر ل. آي. ماندلستام الذي نشر في موسكو عام ١٨٤١ ديوانا صغيرا يتحدث عن معاناة اليهود وعذابهم . تلقى ماندلستام تعليمه في جامعة موسكو وتوفر على دراسة التلمود ليلا ونهاراً . وكثيراً ما قام والده بزيارة ألمانيا حيث وجد الدين والعلم يتعانقان . وفي السادسة عشرة أخذ يعلم نفسه اللغة الروسية . ونحن نعرف من سيرته الذاتية التي تحمل عنوان " من مذكرات أول يهودي في روسيا يلتحق بالجامعة " أنه درس اللغة الروسية لمدة تسعة أعوام حتى يتمكن من قراءة بوشكين . ويعترف لنا هذا الأديب أنه وجد صعوبة بالغة في تعلم الروسية ويعترف بأنه كثيرا ما يستخدم تعبيرات ألمانية . يقول ل. ماندلستام في مذكراته : " أنني انظر إلى قصائدي كما لو كانت "ترجمات ذهنية وحرفية من اللغة العبرية " ويضيف أنه يستخدم تعبيرات غامضة وأن أسلوبه يفتقر إلى السلاسة . ويؤمن ل. آي ماندلستام أن العقل والحقيقة والجمال والخير والمبادئ الإنسانية سوف يكتب لها الغلبة والانتصار . وعبر ماندلستام عن أمله أن يبعث شعبه من جديد . وذهب إلى أن ألمانيا هي الوطن الحقيقي للاستنارة والتنوير .

الفصل الرابع :

هذا الفصل بعنوان " عصر الإصلاحات العظيمة " . وفيه يتناول المؤلف أولى الدوريات اليهودية الروسية التي ظهرت في روسيا . فضلا عن أنه يعالج أدب ثلاثة من الأدباء اليهود الروس هم رابينوفتش وبوجروف وليفاندا .

يقول المؤلف أن اليهود الروس في أواخر عقد الخمسينات وأوائل عقد الستينات من القرن التاسع عشر تحمسوا لإضفاء الطابع الروسي على مناحي الحياة اليهودية ولا غرو فقد آمنوا منذ بداية عصر الإصلاحات العظيمة أن تحرير اليهود من ربقة الاستعباد الروسي وشيك . ففي عقد الستينات آمن

اليهود الروس بالتنوير وكانوا رغم واقعيتهم ينزعون إلى الرومانسية ويحلمون بأن العدل سوف يسود العالم وأن الحرية آتية لا محالة .

كانــت الأعمــال اليهودية المنشورة باللغة الروسية في فترة حكم نيقولا الأول متناثرة ومتفرقة لا تمثل اتجاها . ولكن هذه الأعمال ما لبثت في عصر الإصــلاحات العظـيمة أن تحولت إلى ينبوع دافق . وكان بزوغ هذا الاتجاه مواكــبا لظهور الصحافة اليهودية الروسية ومواكبا لصدور عدد من المجلات الــيهودية الروسية مثل رازفت (١٨٦٠ – ١٨٦١) و " صهيون " (١٨٦١) و "دن" (١٨٦٩ – ١٨٧١) في ميناء أوديسا الأمر الذي ملأ قلوب اليهود الروس بالشــجاعة والــتفاؤل والثقة بالنفس . ويرى المؤلف روجاتشفسكي أن محرر مجلة " رازفت" اليهودية الروسية على حق تماما عندما يعتبر صدور صحيفته " حدثــا يــؤذن بدخول اليهود في روسيا مرحلة جديدة من الحياة الاجتماعية وخطا فاصلا بين الزمن القديم والزمن الحديث ".

ومــنذ البداية تنبهت حكومة القيصر إلى ما تمثله هذه المجلات اليهودية الروســية مــن خطــورة . ولأنها أدركت عواقبها بدأت في اتخاذ الإجراءات ضــدها . ففرضت الرقابة وضيقت الخناق عليها حتى كتمت أنفاسها . ويقول رابينوفــتش فــي هذا الشأن أن مجلة رازفت " توفيت نتيجة أصابتها بمرض الربو " . وأيضا كتمت أزمات الربو على حذ تعبير رابينوفتش – أنفاس مجلة " صــهيون " عندما حاولت الرد على سخرية صحيفة " الأساس " من الشعب اليهودي بأكمله . فضلا عن أن الحكومة كتمت أنفاس مجلة " دن " الأسبوعية عندما حاولت هذه المجلة أن تنشر تقريرا موضوعيا عن المجازر التي تعرض لها اليهود في أوديسا عام ١٨٧١ . وعندما رفضت هذه الجريدة السكوت على عمليات الإبادة الجماعية لليهود كان مصيرها الإغلاق .

ولكن هذا لم يفت في عضد الكتاب اليهود . فبعد عام ١٨٧١ انتقل مركز الإشــعاع التنويري اليهودي من اوديسا إلى بطرسبرج التي ازدحمت بصفوة المثقفيــن الــيهود رغــم افتقارها إلى قاعدة عريضة من عامة اليهود . وفي بطرسبرج تكونت في عام ١٨٦٣ جمعية نشر التنوير بين يهود روسيا وأيضا صــدرت فــي بطرسبرج عام ١٨٧١ جريدة يهودية روسية اسمها " الهيرالد للأنــباء اليهودية الروسية " . وكذلك بدأ ادولف ايفيموفتش لانداو عام ١٨٧١

فـــي نشر مجموعة من المتنوعات اليهودية الروسية . ولم يدخر هذا اليهودي جهـــدا فـــي جمع الأدب اليهودي الروسي في مئات المجلدات تم نشرها خلال ثلاثين عاما (من عام ١٨٧١ – ١٩٠٣) وهي مجلدات لا غنى عنها لدارس الأدب الـــيهودي الروســـي مـــن الناحيتين الأدبية والاجتماعية تحمل عنوان "ايفريسكايا ببليوتيكا " التي تضم اجزاؤها العشرة كتابات ف . ف . كورش – ف . ف . ستاســـوف – د.د. مينـــياف فضـــلا عن كتابات مثقفين يهود من المعارضـــة مثل إليا أورشانسكي – ابراهام هاركاني – م آي كوليش – أ. إ . لانـــدوا – د. ل. سلونمســـكي إلى جانب بعض الأدباء مثل بول فاينبرج – م أبراميوفتش ليفاندا – نيكتين – بوجروف . الذين سعوا بكتاباتهم إلى استكمال النقص الموجود في الأدب الروسي الذي كثيرا ما يغفل معالجة اليهود الروس. ويقـــول محررو المجلد الثاني من " ايفريسكايا ببليوتيكا " أن هدف المجموعة " هـــو أساسا تعريف الشعب الروسي باليهود كما كانوا في الماضي والحاضر ومـــا سوف يكونون عليه في المستقبل في ظل ظروف معينة " وتعني عبارة " ظـــروف معيـــنة " صـــراع الـــيهود من أجل تحقيق المصالحة مع الروس والاندمـــاج فـــيهم ومقاومـــة الاســـتبداد بهم وكذلك مقاومة أية صبغة مفتعلة وســـطحية لأوريـــة الـــبورجوازية اليهودية (أي جعلها تحذو حذو أوربا) . هـــؤلاء الكـــتاب الـــيهود شعروا بأنه يتعين عليهم أن يصفوا للروس كابوس الماضي وأحداثه المروعة وأن يدفنوا هذا الماضي ويهيلوا التراب عليه . وهو ما نادى به أدباء يهود أمثال أوسيب أرنوفتش رابينوفتش (١٨٢٧ – ١٨٦٩) – جريجوري ايزاكوفتش بوجروف (١٨٢٥ – ١٨٨٥) – ليو اسيبوفتش ليفاندا (١٨٣٥ – ١٨٨٨) – فيكتور نيكيفتش نيكيتين (١٨٣٩ – ١٩٠٨)

ويمـــتدح لـــيفاندا أعمـــال رابينوفـــتش ويقول عن الخدمات التي أسداها رابينوفـــتش إلـــى الأدب الروســـي : " كان أول يهودي روسي يترك بصمة واضـــحة على أدب الوطن (روسيا) وأول أديب يكتب باللغة الروسية . وبهذا يؤكـــد بما لا يدع مجالا للشك أو الدحض مطالب أترابه من اليهود بحقهم في التمتع بالمواطنة داخل الإمبراطورية الروسية .

ويصـــطبغ الكثـــير من أعمال رابينوفتش بصبغة أوكرانية كما أنه دون وعي منه يقفو أثر جوجول أحيانا . فضلا عن انه يصور في كثير من أعماله حـــياة الـــيهود التعسة مثلما يفعل في قصة " المجند " . ومعرفته وثيقة باليهود

العاملين في قطاع المال والأعمال وخاصة في منطقة أوديسا الأمر الذي مكنه مـن تصـويرهم تصويرا صادقا في قصصه التالية : " موريس سفاردي " و " تاريخ بيت التجارة : فيرلتش وشركاه " و " منظار تضخيم الأشكال الملونة". وعـندما أصـدر رابينوفتش عام ١٨٥٩ " المجند " تركت هذه القصيدة أثرها الحميد في نفوس اليهود المنادين بالديموقراطية .

غـير أن لـيفاندا استطاع بروايته " أوقات مضطربة " التي ظهرت بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٣ أن يترك أثرا أعمق من رابينوفتش في بني جلدته فقد رسـم لأول مـرة صـورة لليهودي كمواطن روسي. ونحن نراه في روايته " اسكتشات الماضي " يلجأ إلى التصوير الكاريكاتوري وذلك النوع من الخيال المرعـب والمـروع إلى حد التفكه والإضحاك . وتدل روايته " الخصلات الجانبية " على جنوحه نحو عرض وجهة نظره في الأشياء والدفاع عنها كما لـو كـان يكتب نبذة للدعاية . ثم أن معرفته بالتاريخ والحياة البولندية كانت عميقة . ويتجسد لنا إحساسه التاريخي في روايته " أوقات مضطربة " التي تقع أحداثهـا فـي زمن الثورة البولندية التي اشتعلت عام ١٨٦٣ . فضلا عن أنه يتجلى في روايته " أفرام إيزوفتش " و " غضب رجل الصناعة ورحمته". ولا تسـير روايات ليفاندا على وتيرة واحدة بل تنتقل من النقيض إلى النقيض فقد عالج موضوعات ذات طابع عالمي في أولى رواياته " مخزن البقال " في حين أنه عالج موضوعا محليا عندما دافع عن إضفاء الطابع الروسي على كل شئ فـي روايته " أوقات مضطربة " ثم أنه بعد ذلك عبر عن عشقه لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين في مقالاته الصحفية التي كتبها عقب مجازر اليهود التي وقعت في روسيا عام ١٨٨١ .

أمـا الكاتب اليهودي ج آي بوجروف الذي ألف " مذكرات يهودي " فلم يـبدأ دراسـته للغـة الروسية إلا بعد أن تزوج كطلب والديه وهو حدث في السـابعة عشـرة من عمره . وكان زواجه تعيسا كما كانت تعاسته سببا في تمـرده علـى سلطة الآباء على الأبناء في العائلة اليهودية . وفي أواخر عقد السـتينات مـن القـرن التاسـع عشر عرض بوجروف الفصول الأولى من "مذكرات يهودي " على ن. أ. نكراسوف فأعجب بها وأمر بنشرها في مجلته بعـد أن قام ساليتكوف – شيدرين بإدخال بعض التعديلات عليها . وقد كتب بوجـروف روايـته علـى غرار رواية ألفها اليهودي الدانماركي م. أ. جولد

شيموت بعنوان " اليهود " التي تدور حول حياة يهودي منذ مولده حتى وفاته. وأيضـــا تدور رواية بوجروف حول أسلوب الزواج اليهودي واستبداد التقاليد والأعـــراف العائلـــية الـــيهودية وانكفاء اليهود على أنفسهم . وتتكون رواية بوجروف من ثلاثة أجزاء تنضح جميعا بالحزن والألم لحال الأسرة اليهودية . وتتضـــمن الـــرواية بشكل واضح طرفا من سيرة حياة مؤلفها الذي دعا بني جلدتـــه إلـــى الاندماج في الحياة الروسية وأعلى من شأن العائلة المسيحية . وعندما أصدر بوجروف روايته استقبلها اليهود بالملامة والتقريع وعابوا عليه نشر غسيل اليهود الوسخ على الملأ . فرد عليهم بوجروف بقوله : " من يريد أن يتحاشـــى كلمات شخص آخر لا بد له أن يقسو على نفسه فجلد النفس أكثر امانـــة . فضـــلا عـــن أنـــه لـــيس أليما إلى هذا الحد . " ولهذا انقض عليه المتعصبون والظلاميون اليهود فتصدى لهم بنفس تعصبهم .

ويعتـــبر روجاتشفسكي الروائي ف. ن نيكتين أقل الكتاب اليهود موهبة فهـــو باحث ودارس أكثر من كونه فنانا وصاحب موهبة أدبية . أسهم نيكتين اسهاما جادا ومهما في كتابة تاريخ الشعب اليهودي في الدراسة الممتازة التي نشرها في بطرسبرج عام ١٨٨٧ بعنوان " المزارعون اليهود". وساعده على ذلك أن وزارة الزراعة الروسية كلفته بالعمل فيها . وكابد نيكتين الشقاء بسبب ما حدث له في طفولته إذ قام المسيحيون بتعميده رغم أنفه الأمر الذي جرحه جـــرحا عمـــيقا لم يشف منه حتى النهاية . وظل رغم تعميده مواليا ومخلصا لشعب إسرائيل حتى آخر العمر . وشحذه الجرح لأن يصبح كاتبا . ويتجلى لنا ألمه الدفين في الكتاب الذي ألفه بعنوان " استكشاف من حياة أهل المستعمرة ".

والجديـــر بالذكر أن روايات نيكتين " الذين يتعذبون كثيراً " و " الأوقات المضـــطربة " لليفاندا و " مذكرات يهودي " لبوجروف ظهرت في وقت واحد فـــي المجـــلات والدوريـــات . وتعبر هذه الأعمال عن جيل الصفوة المثقفة الـــيهودية ... ذلك الجيل الذي حمل مشعل التنوير ودعا إلى ضرورة اندماج الـــيهود في المجتمع الروسي . غير أن أدبهم أقرب إلى الدعاية الصحفية منه إلى الفن الراقي والرفيع . فضلا عن أنهم استقوا هذا الأدب من واقع تجاربهم وليس من ابتكار الخيال . يقول نيكتين في هذا الصدد في المذكرة التوضيحية التـــي ألحقهـــا بقصته " الذين يتعذبون كثيراً " أن اختيارهم وقع على استخدام السرد الصحفي والدعائي لسهولته من ناحية ورغبتهم في الوصول إلى القارئ

من ناحية أخرى . ولهذا يعتبر روجاتشفسكي أدبهم ذا طابع توضيحي ونوعا مـــن تبلـــيغ الرسالة أكثر من كونه سردا فنيا . ولهذا تراهم يضمنون سردهم الروائي حكايات طويلة أقرب ما تكون إلى التقارير الصحفية . والأهم من هذا كلـــه أن هؤلاء الكتاب جميعا لم يتمكنوا من امتلاك ناصية اللغة الروسية التى يستخدمونها للتعبير عن هموم اليهود . فهي لا تزال غريبة عنهم ولا تبوح لهم بأسرارها . ورغم ذلك فيمكن اعتبار أدبهم خطوة إلى الأمام نحو تمثلهم اللغة الروســية بالمقارنة بالأدب اليهودي الروسي السابق عليهم والذي أنتجه اليهود البرلـــيون (نسبة إلى برلين) وهو أدب ينم عن شدة تأثره بالثقافة الألمانية . وكما ذكرنا يدور أدب الرعيل اللاحق للبرلينيين حول مآسي الزيجات اليهودية وبطش رب العائلة اليهودية بأفراد أسرته إلى جانب فظاعات التجنيد العسكري في عهد نيقولا الأول .

لقد عبر ليفاندا في " اسكتشات من الماضي " ورابينوفتش في" صور من الماضـــي " (التـــي تتكون من جزءين هما " المجند " و " شمعدان العائلة ") وبوجـــروف فـــي" مذكرات يهودي " عن مخازى ومهازل الزيجات اليهودية عندما يتزوج الغلام اليهودي في سن لا يتعدى الثانية عشرة زوجة يهودية لا يـــزيد عمـــرها على ثمانية أعوام لا تزال تلعب بالدمى بينما زوجها لا يزال تلمـــيذا يقوم مدرسه بعبطة في المدرسة . وتتناول رواية " ذكريات يهودي " مثل هذه الزيجات التعيسة حيث تقول الشخصية المحورية : " لقد تزوج والدي المســكين وهو في الثانية عشرة من عمره .. دون أن يرى شريكة حياته في المســتقبل إلا في اليوم الثاني من الزواج . غير أنه اكتشف أنها ليست مغرية جـــدا عندما طلع النهار . " ويصف بوجروف في روايته " مذكرات يهودي " وليفاندا في رواياته (مخزن البقال – بشكا – فرتر اليهودي) ورابينوفتش في روايتيه (موريس السفارديم – تصميم الأشكال الملونة) النتائج الوخيمة لمثل هـــذه الـــزيجات التي ترتبها الخاطبات وتقوم على المصالح وعلى اعتبارات أخـــرى غـــير الحـــب . ويتفق هؤلاء الأدباء اليهود الروس على التعبير عن تمـــردهم المشترك على هذه المهازل ولكنهم يختلفون في أساليب تعبيرهم عن تمردهم فبوجروف يستخدم السخرية اللاذعة الغاضبة وليفاندا يستخدم الفكاهة الطلـــية في حين أن رابينوفتش يعبر عن نفسه بنعومة وحزن يجمع بين الرقة والعمـــق . وتتمـــيز روايـــة رابونيفتش " تضخيم الأشكال الملونة " بجمالها

وقدرتهـا الهائلـة على التأثير في القراء وتحريك عواطفهم . فضلا عن أنها تجمـع بيـن الطابع الغنائي والنقد اللاذع لأسلوب الحياة عند اليهود . ويتهم روجاتشفسكي هذا الرعيل من الكتاب اليهود الروس (رابينوفتش – نيكتين – بوجروف) بالسطحية في معالجة موضوعاتهم المأساوية ولأنهم لم يغوصوا في أعماق هذه التعاسة البشرية لاستخراج ما فيها من درر مكنونة .

الفصل الخامس :

يتـناول روجاتشفسـكي فـي هذا الفصل روايتي " المجند الإجباري " و " شمعدان العائلة " تأليف رابينوفتش و " اسكتشات من الحياة العسكرية " تأليف نيكتين " و " المجند الأسير " تأليف بوجروف. ويعرض روجاتشفسكي للمظالم البشـعة التـي حدثت في عهد القيصر نيقولا الأول والتي اضطر اليهود إلى تحملها في صمت . وبعد انتهاء حكم نيقولا الأول واعتلاء الكسندر الثاني سدة الحكم بدأ المؤلفون والكتاب اليهود يكشفون عن ظلم القيصر نيقولا لليهود فقد فـرض علـيهم التدريبات العسكرية العنيفة الأمر الذي أودى بحياة الكثيرين منهم.

والجديـر بالذكر أن رابينوفتش ونيكتين وبوجروف لم يكترثوا بجماليات الأشكال الروائية فقد كان أدبهم أقرب إلى التسجيل والتقرير منه إلى الصياغة الفنية . ولم يكشف النقاب عن مظالم القيصر نيقولا الأول ضد اليهود إلا بعد وفاته وتخفيف قيود الرقابة في عهد خلفة الإسكندر الثاني . كان نيقولا الأول يناصـب الـيهود العـداء ويعتبرهم عنصرا ضارا ومن ثم سعى إلى تحطيم الجانـب الدينـي والقومـي في شخصيتهم عن طريق تجنيدهم الإجباري في الجـيش الروسي وهم مجرد غلمان وأحداث يانعين . وينص البند الثامن من القـانون الروسـي الخاص بتجنيد اليهود لعام ١٨٢٧ على أن تتولى الجاليات اليهودية اختيار المجندين بحيث لا تقل أعمارهم عن اثنى عشرة عاما ولا تزيد علـى خمسة وعشرين عاما . وأيضا تنص مادة أخرى في هذا القانون على وضـع اليهود القصر الذين تقل أعمارهم عن ثمانية عشر عاما في مؤسسات تمهـيدية للتدريـب العسـكري تعـرف بالكانتونات . أما في حالة المجندين المسـيحيين فقـد اكتفى القانون بوضع أطفال العساكر في هذه الكانتونات في حين نص القانون على تجنيد القصر اليهود من كافة الطبقات بلا تمييز . وبلغ

تعنت قوانين نيقولا الأول في معاملة اليهود مبلغا جعل السنوات التي يقضيها المجند اليهودي في الكانتونات لا تحتسب جزء من فترة التجنيد الإجباري التي تصل إلى خمسة وعشرين عاماً وفي حالة عجز مندوبي الجاليات اليهودية (وهم يهود) عن توفير العدد المطلوب من المجندين اليهود يتعرضون للعقاب أما عن طريق دفع غرامة أو تجنيدهم في الجيش .

وحتى يتفادى المندوبون اليهود ما قد ينزل بهم من عقاب نراهم يلاحقون الغلمان والصبية من بني جلدتهم ويسلمونهم مكبلين إلى السلطات الروسية التي تقوم بإرسالهم بعيدا عن أهلهم وذويهم إلى كانتونات حيث يتم تعميدهم بالقوة . وقد قابل الكاتب اليهودي أ . آي هرزن بمحض المصادفة عددا من هؤلاء المجندين اليهود تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة . وهالة منظرهم فكتب في كتابه " ماضي و أفكاري " قائلاً : " ليست هناك فرشة سوداء بما فيه الكفاية حتى يمكن رسم هذه الفظاعة بها " . واعتقدت السلطات أن عزل هؤلاء اليهود القصر عن عائلاتهم وتعريضهم بصورة ملحة ومستمرة لأثر الكنيسة الأرثوذكسية فيهم وتجنيدهم لخمسة وعشرين عاما سوف يصحح ما أعوج من شأن اليهود وسوف يذيبهم في السكان المسيحيين . وقد عالج كل من م. شيبجيب وليونتي جوبر اللذين عاشا داخل الكانتونات فيما مضى أثر هذه السياسة الوخيم .

وبعد وفاة القيصر نيقولا الأول صدر مرسوم قيصري في ٢٥ ديسمبر عام ١٨٥٦ بمنع إجبار أبناء العساكر على العيش في كانتونات كما يمنع تجنيد اليهود القصر الأمر الذي شجع الكتاب اليهود على تناول الفظاعات التي تعرض لها بنو جلدتهم . ويقال إن يهود منطقة ستاروكستانتوف تقدموا بالتماس إلى الله كي يرفع عنهم هذه الغمة أرسلوه عن طريق يهودي توفاه المولى مؤخرا. ولم يجرؤ اليهود أن يجأروا بالشكوى للأدباء اليهود من هذا الظلم الواقع عليهم إلا بعد عام ١٨٥٦ . وعندما روى الأدباء اليهود عذاب بني جلدتهم انفطرت قلوب كثير من الروس تأثرا بهم وإشفاقا عليهم . يقول الأديب أوسيب رابينوفتش في روايته " المجند الإجباري " أنه بدأ يلعق جراحه القديمة ويشعر بألمها فقط بعد أن تحسنت أحوال شعب إسرائيل ".

نشر رابينوفتش أولى قصصه " المجند الإجباري " في صحيفة " الهيرالد الروسية " في يونيو ١٨٥٩ وتركت أثرا عميقا في نفوس قرائها الروس كما استجاب لها اليهود البؤساء بكل افئدتهم . حتى اليهود المتزمتين الذين لا يحتفظون في بيوتهم بغير الكتب العبرية أقبلوا على اقتنائها وقراءتها فيما بينهم. وقام بعض المترجمين بترجمتها إلى لغة البيديش . فضلا عن أن المؤرخ الشهير إيزاك ماركوش جوست ترجمها إلى اللغتين الألمانية والإنجليزية . وقد نفدت كل نسخ الطبعة الأولى البالغ عددها نحو خمسة آلاف نسخة في اسبوعين . واستقر رأي عامة اليهود والصحافة الأجنبية أن الفضل في إلغاء قانون تجنيد اليهود الإجباري ومنحهم بعضا من حقوقهم المدنية يرجع إلى ما تركته هذه الرواية من أثر عميق . والرواية يعيبها الاستطراد واللجوء إلى الشرح والتوضيح . ولكنها تفيض بالعطف على بني إسرائيل . وتدور "المجند الإجباري" حول يهودي تاجر يتعرض لإيذاء شديد نتيجة تطبيق القوانين الجائرة التي استنتها حكومة نيقولا الأول . ورغم هذا فقد استقبل هذا اليهودي المثالي الضيم والجور الواقع عليه بسماحة واستسلام تام لقوانين البلاد. ودفعته مثاليته إلى الدفاع عن هذه القوانين رغم ما تنطوي عليه من ظلم بين . وقبل هذا اليهودي المسالم عن طيب خاطر أن يموت شهيدا وواليا للبلاد التي جارت عليه .

وأيضا تقدم لنا رواية رابينوفتش التالية " شمعدان العائلة " صورا من الماضي " وهي اكثر إحكاما في حبكتها من الرواية الأولى كما أن الاستطراد فيها أقل. ورواية " شمعدان العائلة " تعالج موضوع استسلام اليهود للشهادة الذي سبق للمؤلف أن عالجه في " المجند الإجباري ". والرواية لا تدعو اليهود إلى مقاومة الظلم بل تدعوهم إلى قبوله عن طيب خاطر دون استمطار اللعنة على الظالمين أو الغضب منهم . ويتميز المؤلف بمعرفته الوثيقة بحياة اليهود فضلا عن قدرته على استخدام الدعابة الطلية . يقول المؤلف في رواية " شمعدان العائلة " : " نحن لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نشعر بفرحة واحدة دون الالتفات إلى مصير شعب إسرائيل الفاجع . فمهما كان الحديث الذي يدور بين اليهود لا بد أن يتطرق دون وعي منهم إلى الخوض في موضوعات مأساوية " ... وهذا الحزن القابع وراء الابتسام والدعابة لا يقتصر على رابينوفتش وحده بل يمتد إلى أترابه من الكتاب اليهود .

غـير أن الكاتب اليهودي الروسي نيكتين لم يعرف الابتسام قط فكتاباته الجادة تخلو تماما من البسمة . ويحدثنا نيكتين في قصته " استكشاف من حياة الكانـتونات " عـن الأطفال اليهود الشهداء . ويضيف أن حياة السجون رغم قسـوتها أرحـم من حياة الكانتونات . فبعد أن يتلقى يهودي أربعمائة ضربة بالعصـا كعقـاب له على احتجاجه على حياة الكانتونات نراه يشعر بالسعادة الغامـرة عـندما يحكـم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ثمانية أعوام . ويضيف نيكتين قائلا أنه التقى بصديق له صدر ضده حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة فأكد له الصديق أن حياة السجن أرحم من حياة الكانتونات . وقد انحى بعـض اليهود باللائمة على المؤلف لأنه يصور في أدبه أشياء موجعة للقلب مثل منظر الأطفال وهم يضربون بالسياط ويتضورون جوعا . ولكن نيكتين لا يخـترع هذه الأحداث من خياله بل يسجل بشاعة الماضي . وهذا ما يؤكده لنا المؤلـف بقوله عن روايته " اسكتشات " أنها ليست سوى شهادة للتاريخ قصد بهـا أن " يسـد فـراغا في الأدب حول مصير يهود الكانتونات في الماضي القريب وهو فراغ ظل غير مملوء إلى يومنا الراهن".

ويعود تاريخ الاسكتشات إلى أربع عشرة سنة بعد إلغاء القوانين المجحفة الخاصـة بإنشـاء الكانتونات التي دخلها نحو ثمانية مليون طفل شقي ومعذب كـانوا ضـحايا الضـرب بالسياط والبصق في الوجوه والوقوف أو الركوع لساعات طوال والأيدي ممدودة الأمر الذي جعل المساكين يشتهون الموت ولا يجدونـه فحاول بعضهم الفرار وانتحر منهم من انتحر . وفي بعض الأحيان كان الحراس يستبيحون انتهاك أعراض الأطفال وينقلون إليهم أبشع الأمراض التناسلية . وأيضا لم يجد هؤلاء الحراس القساة القلوب غضاضة في تعميدهم قسرا بعد انتهاكهم وأحس هؤلاء الضحايا بالذنب لأنهم خانوا شعبهم واعتنقوا دينا غير دين الأجداد والآباء .

وأيضا ألف نيكتين رواية أخرى بعنوان " الحياة ليست أمرا سهلاً " تدور حول غلام يهودي قامت سلطات الكانتونات بطرده منها بعد أن أمضى خمسة عشـر عاما فيها . فلما عاد إلى أهله وذويه لم يجد واحدا منهم فزاد ذلك من شـعوره بالتعاسة والغربة . ورغم ما تتضمنه هذه الرواية الثانية من وصف لعذاب بني إسرائيل فإنها ليست في قوة رواية نيكتين الأولى .

وتتضـــمن رواية " مذكرات يهودي " التي ألفها بوجروف فصلا موجعا للقلـــب بعنوان " مغامرات أريوكيم " حيث نقرأ عن انتزاع حراس الكانتونات لأحـــد الأطفـــال مـــن أمه فتولول عليه المسكينة وتذرف الدمع عليه سخينا . فـــيحاول زوجها تعزيتها بقوله " أنه استشهد من اجل الشعب اليهودي والأمة اليهودية. ومعنى هذا أنه ليس هناك موجب للحزن أو البكاء " . وجدير بالذكر أن بوجـــروف استقى مادته الفاجعة من صميم الحياة فقد تعرض أبوه لتجربة مماثلـــة. وفي تلك الفترة السوداء من تاريخ روسيا نذر بوجروف قلمه للدفاع عـــن الأطفال اليهود التعساء وسطر التماسات إلى السلطة بهدف تخليصهم من عذابهم ; ونجح أحيانا في إنقاذ بعضهم من براثن البؤس . واستفاد بوجروف مـــن الصـــلات المباشـــرة التي أقامها مع بعض الضحايا ومعرفته عن كثب لتفاصـــيل حياتهم في كتابة قصة أخرى بعنوان " المجند الأسير " نشرها عام ١٩٠٢ في المجلد الرابع من " الببليوتيكا أفريسكايا ". وتدل القصة على رفض مؤلفها للاستسلام لهذا المصير البائس فقد صب جام غضبه على الذين انتهكوا مـــبادئ الإنسانية والعدل . والرأي عند بوجروف وأترابه من المؤلفين اليهود أن نزوع اليهود إلى الهرب من التجنيد في عهد نيقولا الأول أمر له ما يبرره بسبب بشاعة وفظاعة حياتهم في الكانتونات .

الفصل السادس :

يحمـــل هـــذا الفصل عنوان " خارج الجيتو " ويتناول المنادين بالاندماج الـــيهود فـــي المجـــتمع الروسي . فضلا عن أنه يتناول رواية ليفاندا "أوقات مضطربة" و يقول المؤلف، في هذا الفصل أن الكتاب اليهود الذين آثروا الكتابة باللغة الروسية لم يكتفوا بمجرد النحيب على الماضي والحسرة على مآسيه . فقد كان يحدوهم الحلم في مجيء غد أفضل . ودفعهم الأمل في مستقبل مشرق إلـــى انتزاع أنفسهم من سجن الجيتو والتغني بأهازيج الحرية التي تبشر بقدوم عهد جديد . وبينما كان الآباء يشنون حربا من أجل التنوير والحقيقة والمعرفة نرى الأبناء يحاربون من أجل ترسيخ حقوق الإنسان والمواطنة وكرامة الفرد يهوديا كان أم غير يهودي . وإذا كان جيل الآباء لم يجد غضاضة في التحالف مـــع الحكومات الروسية الرجعية فإن جيل الأبناء حذا حذو التقدميين الروس وآمـــن بإقامة حكومة ليبرالية كما آمن بأن تتضافر جهوده مع جهود العناصر

الليبرالية في المجتمع الروسي . وشجع على ذلك أن هذه العناصر الليبرالية اتخذت موقفا متحررا من قضية اليهود . وليس أدل على هذا من توقيع مائة وأربعين كاتبا وباحثا روسيا على عريضة احتجاج ضد زراية الكتاب الروسي فلاديمير زوكوف باثنين من اليهود هما م. جورفينس وآي . أ. تشاتسكين نشروها في صحيفة الهيرالد الروسي (عدد ١٨ (١) – نوفمبر ١٨٥٨) . وكان على رأس المحتجين كوكبة من ألمع الأدباء الروس أمثال نكراسوف وتورجنيف وتشيرنشفسكي . ثم عبرت جماعة من الكتاب يمثلون أوكرانيا ومناطق الجنوب عن تضامنها مع هذا الاحتجاج في العدد التالي من نفس الجريدة . ولم يكتف هؤلاء المتضامنون بمجرد شد أزر زملائهم المحتجين على الزراية باليهود من منطلق أخلاقي بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقد ناقشوا لب القضية اليهودية . وكتب الكتاب الأوكرانيون يقولون في هذا الشأن: " إن الأمم المسيحية التي تشمل الإمبراطورية الروسية وصمت بني إسرائيل المشتتين في العالم بأوصاف مثل رميهم بأنهم أوغاد وخونة ومخادعون وأعداء الله والإنسان. فضلا عن أن الغضب الذي استبد بالشعب الروسي وحكومته نتيجة عجزها عن إغراء اليهود عن طريق استعمال أساليب رحيمة معهم باتباع طريق الهدى والصلاح لم يكتف بالتعبير عن نفسه بمجرد استخدام كلمات السباب . وتعرض اليهود – وكأنهم وحوش كاسرة – للنفي والحرق والجزر والإغراق في الماء . أليس طبيعيا إذن أن يأبى ضحايا غضب المتعصبين الأعمى نبذ عاداتهم التي كانت سببا في احتقارهم أو اتباع أساليب من يظلمونهم ؟ " وتصدى المثقفون الأوكرانيون الذين لا يقرون اضطهاد الروس لليهود للاحتجاج على الإجحاف باليهود . وأثلج هذا الاحتجاج صدر اليهود التقدميين لأنهم أدركوا أن دفاع المثقفين الروس عنهم معناه أن المشكلة اليهودية أصبحت قضية تهم الرأي العام الروسي .

ومن ثم برزت مسألة اندماج اليهود وصهرهم في بوتقة المجتمع الروسي. وكان القيصر الكسندر الثاني أول من رفع شعار الاندماج . ففي ٣١ مارس ١٨٥٦ أصدر أوامره بضرورة إعادة النظر في التشريعات الخاصة باليهود حتى تتماشى مع السياسة العامة الهادفة إلى مزجهم في نسيج السكان الروس الأصليين بقدر ما تسمح مبادئ اليهود الأخلاقية بذلك . وبعد الثورة البولندية التي اندلعت عام ١٨٦٣ تغير شعار مزج اليهود أي إدماجهم في

المجتمع إلى شعار تحويل اليهود إلى روس " . فنحن نطالع في رواية " أوقات مضطربة " التي ألفها ليفاندا أن اليهودية ماري نيومان تتوفر على دراسة الأدب الروسي وتحاول أن تكتب خطاباتها إلى حبيبها (المتحمس لنمط الحياة الروسي) باللغة الروسية وليس باللغة الألمانية . وأيضا تردد صوفي أرنسون في هذه الرواية نفس الرأي فهي تقول : " نحن بالتأكيد لا نعيش على أرض ألمانية . وجميع أحوالنا ليس لها علاقة بألمانيا . وكنت أدهش دائما كيف ان العائلات المتعلمة في حياتها المنزلية تقفو أثر الألمان ... نحن لا نستطيع بطبيعة الحال أن نلومهم . ومن المحتمل أن هناك أسبابا تدعو إلى ذلك . ولعلها أسباب مهمة ورغم ذلك فإن هذا الوضع غير طبيعي كما أنه مضحك أحيانا . "

وتلاشي اليهود الداعون إلى تعلم الألمانية ليحل محلهم مثقفون ممن تلقوا تعليمهم في الجامعات الروسية وأصبحوا رسل الدعوة إلى الاندماج والاقتداء بالحياة الروسية .. وإذا كان دعاة الألمانية قد اتخذوا من مدينة فيلنا مقرا لنشاطهم مستخدمين اللغتين الألمانية والعبرية كوسيلة للتنوير فإن هؤلاء المثقفين اليهود الجدد اتخذوا من ميناء أوديسا مركزا لنشاطهم ودعوتهم إلى الاندماج. فلا عجب إذا رأينا رابينوفتش يهيم حبا بهذا الميناء ويرسم أبطالا يتخذون منه مكانا لنشاطهم مثل روايات " موريس السفارديم " و " تضخيم التشكيلات الملونة " و " الرحلة التي قام بها فيجيس من كوشينيف إلى أوديسا". وقد تجمع في هذه المدينة عدد كبير من المثقفين اليهود ممن اتبعوا نهج الحياة الروسي . ويتضح من نتائج التعداد الذي أجرى في روسيا عام ١٨٩٧ أن ثلث اليهود في ميناء أوديسا أقر بان اللغة الروسية هي اللغة الأم . وظهرت أيضا مجموعة من أساتذة الجامعات الروس المتعاطفين مع المثقفين اليهود تمركزت حول ن. آي . بيروجروف المشرف على قطاع التعليم في ميناء أوديسا . وفي عام ١٨٥٨ تقدم أوسيب رابينوفتش وجوتشيم تارنوبول بمذكرة يطلبان فيها السماح لهما بنشر دورية يهودية أسبوعية باللغة الروسية جاء فيها : " نحن نحب اللغة الروسية مثلما نحب وطننا روسيا . ونرغب في خدمتها ونعهد في انفسنا القدرة على هذا . وسوف تتوثق معرفة الوطن بمليون ونصف يهودي من ابنائه . " وردد تارنوبول هذه النقطة في كتاب نشره في أوديسا عام ١٨٦٨ بعنوان " مقال عن الإصلاح المعاصر والحصيف لليهودية في روسيا".

ويتضـــمن هذا الكتاب فصلا يتناول أهمية وغرض وفائدة نشر دورية يهودية باللغــة الروســية تهدف إلى عقد مصالحة بين اليهود والروس . وفي المقال الافتتاحي المنشور في ٢٢ يوليه ١٨٦٠ في صحيفة رازفت رحب رابينوفتش " باتمـــام مصـــالحة فـــي نهايـــة الأمر بين الجانبين بعد أن ظلا ينظران إلى بعضهما البعض في عداوة وعدم ثقة . " وأيضا قدم لنا رابينوفتش في روايته " تصـــميم الأشـــكال الملونة " كوكبة من الشخصيات الروس واليهود واصفا الصـــداقة الحميمة بينهما ويعرف كل طرف منهما الطرف الآخر . وقد انتقد رابينوفـــتش اليهود بني جلدته بقدر ما دافع عنهم . وهو يقول في هذا الشأن : " لقـــد حـــان الوقـــت كـــي نصلح صورتنا وتحسن مظهرنا . ولكن اعترافنا المخلـــص بـــرثاثة ملبسنا لا يقلل مطلقا من حقوقنا الإنسانية أو من الفضائل الكامـــنة والمتأصلة فينا . " أن رابينوفتش خاطب حسن النوايا لدى قرائه من الطرفين بهدف استئصال شأفة التعصب فيهما .

وإذا كان رابينوفتش قد سخر أدبه كبوق للدعاية لأفكاره فإن زميله ليفاندا سخر رواياته لتهييج الخواطر . دفعت الثورة البولندية (ضد الروس) ليفاندا إلى طرح السؤال التالي : ما الأفضل أن يتوجه اليهود في روسيا شطر بولندا أم يـــتوجهوا شـــطر روسيا ويتخذوا منها نبراسا لحياتهم . وخلص ليفاندا إلى نتـــيجة مفادها أن الخيار الروسي أفضل من الخيار البولندي . وتعبر روايته " أوقـــات مضطربة " – وهي وثيقة اجتماعية مهمة – عن تفضيله لهذا الخيار الروسي .

وتشـــتمل رواية " أوقات مضطربة " على يوميات وخطابات وحوارات تـــتحدث عـــن بـــزوغ عهد جديد يحل محل حطام العهد القديم بأفكاره البالية ومؤسساته الجامدة والمتحجرة . ويتنبأ المؤلف بأن سيل التغيير الجارف آت لا محالـــة وســـوف يكتسح أمامه كل أثر للماضي مضيفا إن الوقت قد حان كي يســـأل اليهود أنفسهم عن هويتهم وحقيقة انتمائهم وولائهم . ويقول ليفاندا في روايته إن البولنديين الآن يحومون حول اليهود الروس لكسبهم إلى صفهم حتى يـــثوروا فـــي وجه موسكو ويتمردوا عليها . وهو يحث بني جلدته على عدم الاســـتجابة لهـــذا الإغراء أو التحريض ويتصحهم بإعطاء ولائهم لروسيا فهم يدينون بالفضل لها في تعليمهم ومعاشهم . ثم أن الإخلاص لروسيا سوف ينتهي بهـــم إلى الفوز بالجنسية الروسية والمواطنة الروسية . يقول أرخاندي سارين

الشخصـــية المحوريـــة في رواية " أوقات مضطربة " : " صحيح أن الروس أيضـــا لا ينظرون إلينا بعين الرضا. ولكن قلبي يحدثني بأنهم سوف يحبوننا بمـــرور الوقـــت . وســـوف نجعلهم يحبوننا عن طريق مجيئنا لهم" . ونظرا لاقتـــناع بطل الرواية بضرورة التوجه شطر روسيا اعترافا منه بجميلها على الـــيهود نراه يحثهم على اجتناب العزلة ومشاركة الروس في أسلوب حياتهم . وعندما تتدخل السلطات الروسية لمنع الصحافة اليهودية الروسية من الصدور لا يفـــت هـــذا في عضد أركادي سارين الذي يتفاءل خيرا بالمستقبل قائلا أن التـــنوير سوف ينتشر رغم كيد الرجعيين والظلاميين . ويقابل أركادي سارين في أسفاره عدداً من الوطنيين البولنديين المهاجرين ويلتقي بفتاة بولندية يقع في غرامها غير انه يشعر بالتردد في التودد إليها بسبب إيمانه بضرورة انصهار اليهود الكـــامل فـــي الحياة الروسية . وأثناء وجوده في جينيف يترامى إلى مســـامعه أن سياسة انصـــهار اليهود في البوتقة الروسية أصبحت السياسة الرسمية التي تتبعها الحكومة الروسية . فيكتب خطابا إلى صديق له يقول فيه: " أرغـــب في الذهاب إلى روسيا فليس من المعقول أن حكومتها لا تحتاج إلينا نحن اليهود المشتغلين بالطوبوغرافيا ومسح الأراضـــي الذين مهدوا لها السبيل للتشييد والبناء " . وتكمن مأساة هذا الرجل في ثقته العمياء في الشعارات التي ترفعها الحكومة الروسية . لقد زين خيال المؤلف في تنبؤاته الحالم أن الطريق إلى تمثل اليهود للحياة الروسية مفروش بالورود وأنه سيفضي بالضرورة إلى تـــنويرهم وحصولهم على حقوقهم المدنية وزيادة الوعي لديهم كأفراد . ولكن يتضـــح أن الطريق الذي يبدو مفروشا بالورود تحيط به الأشواك فقد انقضت الحكومة على الصحافة اليهودية الروسية بسبب ما تضمنته من مقالات نارية حارقة.

وأمـــام هـــذه الضغوط التي مارستها الحكومة على اليهود تضافروا مع صـــفوة المثقفيـــن الدروس وحرصوا على قراءة الآداب والصحف الروسية المـــتحررة . فضـــلا عـــن أن احتدام الصراع بين اليهود الأبناء والآباء أدى بالصغار إلى شق عصا الطاعة على الكبار . ونحن نطالع قصة هذا الصراع في عدد من الروايات الروسية مثل رواية " الرواد " لأنسكي و " مهاجرون في ميزيبول " تأليف س. ل. ياروشفسكي و " الأوقات المضطربة " تأليف ليفاندا و " مذكرات يهودي " تأليف بوجروف . وجميع هذه الروايات تصور التفكك

الذي أصاب العائلات اليهودية نتيجة تمرد الأبناء على الآباء . وانتهى صراع الأجيال بانتصار جيل الأبناء على آبائهم . وفي بعض العائلات احتدم النزاع بين الأجيال القديمة التي حذت حذو الألمان والثقافة الألمانية والأجيال الحديثة التي رأت الحل في " الترويس " أي أن يصبح الروس جزءا لا يتجزأ من نسيج المجتمع الروسي .

غير أن بعض اليهود فهموا الدعوة إلى الانصهار في بوتقة الروسية على أنها دعوة إلى الانتهازية واقتناص الفرص. فلا غرو إذا رأينا من اليهود من يتعاون مع السلطات الروسية ويخدم أغراضها . ولهذا نرى أ. ج. كوفنر ينشر مقالا باكرا عام ١٨٧٣ بعنوان " الفنون الجميلة اليهودية المعاصرة " يهاجم فيه الكتاب التقدميين والتنويريين لأنهم يصورون الأجيال القديمة بأنها وحوش بشعة ومجموعة من البلهاء والمتعصبين في حين أنهم يرسمون صورة مثالية ومتألقة وجميلة للأجيال الجديدة ويصفونها بالكفاءة والاقتدار . يقول كوفنر في هذا الشأن : " إن الجيل التقدمي الشاب يعاني من كل العيوب الموجودة في عصرنا العملي وهي التأكيد على الأمان المادي والإفراط في الأنانية والاستمتاع بالحاضر وعدم الاكتراث بالمستقبل والافتقار إلى الغرائز الاجتماعية إلى جانب الخيلاء والزهو بالنفس. هذه هي الدوافع الرئيسية التي تحرك حياة الأجيال الشابة التي تتذوق الثقافة الأوربية . فضلا عن أنها أجيال لا تعرف المشاعر اليهودية القومية ولا تريد أن تربطها أية صلة بالشعب اليهودي الذي ذاق الأمرين عبر أجيال كثيرة من أجل الدفاع عن أفكارهم القومية . ورغم أن الوشائج التي تربطها بأصولها اليهودية قد تقطعت فإنها فشلت في الاستمساك بأية مثل إنسانية ومن ثم فإنها تعيش لذاتها فقط " .

ولكن كوفنر اعترف بأن نفرا من الشباب اليهودي الواعد رفض السير في ركاب جيله وآثر أن يتبع سياسة أكثر حكمة وتعقلا يمكن تسميتها بالواقعية التي تزن الأمور .

ومن أهم الدوافع التي دفعت اليهود إلى اتباع سياسة الانصهار في بوتقة الثقافة والحياة الروسية أن مصلحة البورجوازية اليهودية وصفوة المتعلمين اليهود اقتضت ذلك فقد رأوا في الانصهار فرصتهم في الازدهار المادي . فهم

لا يستطيعون الإثراء في المجتمع الروسي إلا إذا ذابوا فيه وأصبحوا جزءا منه .

وجنباً إلى جنب مع البورجوازية اليهودية المنتفعة من الانصهار ظهر في أوائل العقد السابع من القرن التاسع عشر نمط يهودي آخر مختلف تماما يتكون من ملاحدة وثوار ودعاة إلى النظام الاشتراكي . وغالبية هذه الشريحة من تقدميين مثل تشرنشفسكي ولافرون . والغريب أن هذا النمط الثائر نشأ في أحضان المعاهد الدينية اليهودية . فقد أقام أ. آي. زوندلفتش الذي أصبح فيما بعد من كبار الثوار دائرة نقاش عام ١٨٧٢ في معهد فيلنا الديني . ويتحدث زوندلفتش عن دائرة النقاش قائلا : " بدا لنا أن اليهود ليست لديهم مصالح قومية مشتركة . غير أن لهم كأفراد أهدافاً متطابقة كثيرة مثل الحصول على حقوقهم المدنية والتعليم الأوربي والمساهمة في العمل بجوار أفراد الشعب الآخرين ومن بينهم الروس . وهو عمل مشترك يهدف إلى تغيير النظام الاجتماعي حتى يساير المثل الإنسانية الخاصة بالفضيلة والعدل . " ومن الواضح أن هذا الفريق من الشباب اليهودي اتسم بالرومانسية ونزع إلى الاشتراكية والأفكار الدولية . كما أنه دعا إلى ضرورة الاقتراب من الشعب ونبذ انتمائه اليهودي .

وتعكس مجموعة من الأعمال الأدبية جميع هذه النماذج اليهودية الشابة مثل أعمال ياروشفسكي وباداتيس واتسكي وأيضا في حكاية ليفاندا " أفرام ايزوفتش " وبعض كتاباته الصحفية . وتشير قصة " أفرام ايزوفتش " بوضوح إلى ضرورة تخلي اليهود عن يهوديتهم . ولكن هذة الدعوة سرعان ما انتكست وثبت فشلها عندما تعرض اليهود في روسيا إلى المجازر البشعة عام ١٨٨١.

الفصل السابع :

يتناول المؤلف في هذا الفصل مجموعة من الأعمال الروائية هي " عودة الابن الضال " و " مذكرات خاذل لفريقه " تأليف باراتيس و " مهاجرون من ميزيبول " تأليف ياروشفسكي .

كـــان عقـــد الثمانيـــنات فـــي روســـيا فـــي القـــرن التاسع عشر يمور بالاضـــطرابات. وشـــاهدت فترة اندلاع الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ – ١٨٧٨) زيـــادة كبيرة في التهاب المشاعر المناصرة للأفكار السلافية واكبها تدهـــور في مواقف الروس من اليهود . واستغلت الصحافة الروسية الرجعية انضمام الشباب اليهودي إلى الحركة الثورية التي ازدهرت في عقد السبعينات مـــن القـــرن التاسع عشر كي تتهمهم بالدعوة إلى إشعال فتيل الثورة العالمية وأيضـــا تـــتهمهم بممارسة النفوذ الضار على صفوة المثقفين الروس . ومن جانـــبه حـــاول الكاتب سوفرين إثبات تورط اليهود في قيادة الحركة الثورية وتوجيهها رغم أن نسبتهم لا تزيد على ٣% من مجموع السكان قائلا أنه يلهب مشـــاعر المجـــتمع الروسي من ناحيتين : من ناحية إرساء النظام الرأسمالي والدعـــوة إلـــى إقامة نظام اشتراكي وفي عام ١٨٨٠ كتب سوفرين مقالا في صحيفة نونو فريميا بعنوان " اليهود الحقيرون قادمون " وهو شعار شاع آنذاك بين عامة الناس . لفت سوفرين نظر الحكومة الروسية إلى شدة اهتمام اليهود بالتعلـــيم العـــام وتحمسهم له . ففي عام ١٨٧٦ بلغ عدد الطلبة اليهود بمعاهد التعليم ٩,٩% من مجموع الطلبة في كل أنحاء الإمبراطورية الروسية ارتفعت إلـــى ١٠,٧% في العام التالي (١٨٧٧). وذهب سوفرين إلى أن اليهود سوف يســـودون بعـــض أقالـــيم روسيا في غضون نحو عشرة أعوام فقط ليس في الـــتجارة فقط بل في المهن الحرة أيضا . وتسبب نشر المقال المشار إليه في انـــزعاج الكـــتاب اليهود انزعاجا شديدا ورأوا في الانتشار اليهودي رمزا لما ســـوف تشـــاهده البلاد من أحداث . ولم يرق مقال سوفرين في عين منسكي فنشـــر فـــي صحيفة زازفيت ردا بعنوان " خطاب مفتوح إلى غريب " ومقالا بعـــنوان " الفوضى والاضطراب قادمان " شكك في صحة ما أورده سوفرين مـــن احصائيات وما خلص إليه من نتائج . ويذكر أن جيرشون بن جيرشون نشـــر روايـــته الهجومية على اليهود " اليهود الحقيرون قادمون " في صحيفة زازفيت .

واســـتغلت الصـــحافة المحلية المعادية للسامية شعار " اليهود الحقيرون قادمون " في تشديد النكير على بني إسرائيل مثلما فعلت صحيفة "أهل كييف " و " نوفورو سيسك تلغراف " . وبعد اغتيال القيصر الكسندر الثاني في ١٨٨١ بشهر ونصف الشهر تعرض اليهود في اليزافتجراد للمجازر التي بثت الرعب

فيهم على نحو ما ستفعله المجازر التي حدثت في كيشينيف في أبريل ١٩٠٣ . ووقعـت خلال عام ١٨٨١ – ١٨٨٢ مجازر مماثلة في مائة وخمسين مدينة روسـية . وكانت المجازر التي وقعت في بولطا في ٢٩ مارس ١٨٨٢ أبشع هذه المجازر جميعا فقد قام الدهماء بتدمير ١٢٥٠ بيتا ومخزنا وسلبها ونهبها كمـا تم قتل ألف وخمسمائة شخص مات منهم بجروح خطيرة أربعون يهوديا وأصيب منهم ١٧٠ بإصابات أقل خطورة كما كانت فظاعة المجازر سببا في إصـابة الكثيرين بالجنون فضلا عن ان أحداث الشغب شاهدت اغتصاب أكثر من عشرين امرأة .

كـان لمجـازر اليهود في روسيا صدى عميق في الخارج . فقد تعالت أصوات الاحتجاج في كل من انجلترا وأمريكا . وأرادت الحكومة الروسية أن تبرىء نفسهما من تهمة التقاعس في كبح جماح أعمال الشغب الدموي فنشرت فـي صحيفتها الرسمية " الهيرالد الحكومي " مقالات توضح أنها لم تتقاعس عن أداء واجبها والتصدي لهذه المجازر الوحشية قائلة أنها ألقت القبض على ٣٦٧٥ شخصا في أوكرانيا و ٣١٥١ آخرين في وارسو .

وقد حدثت مجازر اليهود كنتيجة مباشرة لاغتيال القيصر الكسندر الثاني واكتشـاف الحكومـة أن اليهودية جيسي جلفمان اشتركت في المؤامرة التي أطاحـت به . فضلا عما قيل عن أنف القاتل (الذي مات في الحادث) بأنها شـبيهة بـأنوف اليهود . وبعد مجيء الكسندر الثالث إلى سدة الحكم اشتدت الاتجاهات الرجعية في أرجاء الإمبراطورية القيصرية . وساعد على ذلك أن القيصـر الجديـد كـان لا يعرف التسامح وينادى بأن تكون روسيا للروس . ونصح ايجناتيف وزير الداخلية آنذاك اليهود بالهجرة إلى الغرب .

وقـد تتـبع المـؤرخ المرموق س. م. دينوف في كتاباته منشأ المجازر الـيهودية موضـحا أن الدوائر الرسمية المسئولة في بطرسبرج ساعدت على تـرويج الشائعات التي تهيج الخواطر ضد اليهود . فقد شجعت – على سبيل المثال – قسيسا بولنديا جاهلا يدعى لوتوستانسكي (قامت الكنيسة بشلحه فيما بعد لسوء خلقه) على تأليف نبذة تنم عن الجهل وصف فيها التلمود بأنه ضار كمـا أنـه وصـف الطقـوس المنسوبة إلى اليهود أثناء سفكهم دماء الأطفال المسيحيين . وعند تقديم هذا القسيس السيئ الخلق إلى المحاكمة في ربيع عام

١٨٨٠ لارتكابه أعمالا منافية للأخلاق دافع عن نفسه بقولـــه إن سمو الأمير (الذي أصبح فيما بعد القيصر الكسندر الثالث) أرسل إليه خطابا عبر فيه عن امتنانه له بسبب تأليفه النبذة المهاجمة لليهود .

ويؤكـــد دينوف أن المجازر اندلعت في كثير من الأماكن في وقت واحد وأنهـــا تمـــت وفق خطة موضوعة وبشكل يدل على جودة الإعداد والتنظيم . والواضــــح أن الحكومـــة الروسية أرادت أن تداري فشل سياستها الاقتصادية فجعلت من اليهود كباش فداء أي شماعة تعلق عليها اخطاءها . فضلا عن أن المجازر وفرت لها الذريعة المطلوبة التي تبرر التجاءها إلى وسائل القمع في حكم الشعب الروسي نفسه .

وعـــندما عقدت المحكمة العسكرية في كييف جلساتها سعى المدعى العام وهـــو رجل رجعي اسمه سترلنيكوف إلى تبرئة المسئولين عن المجازر التي اندلعت في ١٨ مايو ١٨٨١ فاقترح اليهود الهجرة من الشرق إلى الغرب قائلا إنـــه إذا كانـــت الحدود الشرقية قد أغلقت في وجوههم فإن الحدود الغربية لا تزال مفتوحة أمامهم . ولم يكن اليهود بحاجة إلى انتظار نصيحة سترلنيكوف فـــبعد أن أصدرت الحكومة الروسية القوانين الجديدة الخاصة باليهود في مايو ١٨٨٣ التي تحرمهم من حقوقهم وتغلق أبواب الجامعات في وجوههم بادروا بالهجـــرة غربا . ولم يمر وقت يذكر حتى تجمع مئات الألوف من الروس في مدينة نيويورك وحدها . وهو خروج لليهود من روسيا بصورة لم يسبق إليها نظـــير . عندئذ أسقط في يد الكاتب وأترابه ممن بشروا بضرورة التحام بني إســـرائيل بالشـــعب الروســـي وآثر اليهود الروس الهرب بجلدهم إلى كل من أمريكا وفلسطين .

ولكـــن فـــي هذه الظلمة المخيمة تصدى بعض الكتاب التقدميين الروس للدفـــاع عن اليهود المضطهدين مثلما فعل الكاتب د. ل. موردوفوسيف الذي نشر مقالا بعنوان " خطاب من مسيحي بخصوص المسألة اليهودية " في العدد ٤٨ مـــن صحيفة الرازفت الصادرة في١٨٨٢ حيث تحدث بحماس شديد عن إحساسه بالذنب والخجل إبان سنوات العار الروسي لأنه اعتبر نفسه والمجتمع الروســـي بأسره شريكا في الجرم المرتكب .وأضاف أن الواجب المقدس يحتم علـــى الـــروس وعلـــى العالم المتحضر كله أن يمنعوا تكرار وقوع المجازر

المخجلـــة التـــي وقعت أمام أعينهم . ونصح موردوستيف اليهود بالهجرة إلى أمـــريكا وفلسطين إذا شعروا بأي خطر على حياتهم . غير أن الأصوات التي ارتفعت للدفاع عن اليهود لم تكن بقوة وضراوة الأصوات المنددة بهم ومن بين المدافعيـــن القلائل عن اليهود موزدوفستف – ستالنكوف تشاردين – فلاديمير ســـولوفييت – شـــيلخوبوف . واســـتولى يأس قاتل على قلوب اليهود الهلعة الواجفة وأدركوا أن الدعوة للإنصهار في بوتقة الحياة الروسية عبث لا جدوى مـــنه ، وأن الدعـــوة لمغـــادرة الجيتو للالتحام بالمجتمع ككل مجرد هراء في هـــراء. وقويت النزعات القومية والانعزالية بينهم ، ومن ناحيته عبر الكاتب أ . إيه لاندو عن التشاؤم الذي ساد اليهود الروس وجعل من صحيفة فوزكود ســـجلا لتدويـــن مصـــائبهم ونكـــباتهم . ونحـــن نراه في أحد أعداد صحيفته الأســـبوعية يشكو قائلا : " لا توجد فقرة واحدة حتى ولو كانت تنطوي على القليل من العزاء يمكن العثور عليها . فليس هناك غير العويل والنواح في كل مكـــان . " حتى ليفاندا الذي كان في يوم من الأيام متفائلا بمستقبل اليهود في روســـيا لم يجد أمامه غير صور القتامة والشؤم يرسمها . حتى اليهود الذين أصابوا نجاحا في المهن الحرة في المدن الكبيرة انصرفوا عن الأفكار الداعية إلى الانصهار في المجتمع الروسي . وينعكس هذا في مجموعة من القصص والـــروايات مثل الرواية التي ألفها جيرشون باداتيس بعنوان " مذكرات خائن لفـــريقه " . وعـــض الـــيهود الذين خذلوا بني جلدتهم بنان الندم على خيانتهم لزملائهم وأدركوا أن اليهودي يجب أن يظل يهوديا إلى الأبد .

وتـــألم الـــيهود لأنهم أصحاب تاريخ بلا جغرافيا أي أنهم يملكون تاريخا عريقا ولا يملكون أرضا يعيشون عليها في حين أنهم اعتبروا الروس البدائيين أصـــحاب جغرافيا بلا تاريخ . ويصور الروائي ياروشفسكي في " مهاجرون من فيزبول " اليهود الخائنين لقومهم ممن آمنوا في يوم ما بمجيء عالم جديد تختفـــي مـــنه القوميات والفروق بين البشر . ولكن مثل هذه الأحلام الوردية ســـرعان مـــا تتبدد بسبب المجازر التي تعرض لها اليهود ليحل محلها إيمان راسخ وعميق بالقومية اليهودية .

الفصل الثامن :

يتناول هذا الفصل وهو بعنوان " شعر بلا أجنحة " عددا من شعراء اليهود المرموقين أمثال مينسكي ونادسون و م. أبراموفتش وفروج كما يتناول مأساة اليهود في عقد الثمانينات .

أفضت سنوات الكآبة والحزن الذي خيم على اليهود إلى مولد مجموعة من الشعراء الغنائيين أمثال م. س. أبراموفتش الذي سخر شعره للتعبير عن ذاته ومينسكي الذي نذر شعره لاستكناه نفسه واستكناه الروح التي تحرك شعبه والعلاقة التي تربطه بهذا الشعب وأيضا الشاعر س. ياد. نادسون الذي جرت في عروقه اليهودية دماء شعب يمتلك روحا مظلمة و س. ج. فروج الشاعر القومي الذي يغوص في أعماق الرومانسية التاريخية . واستعمل جميع هؤلاء الشعراء مفردات شعرية مثل الحزن والكآبة والأسى واليأس والعجز والشقاق. ولكن أشعار فروج تنم عن غضبه من وقت إلى آخر . وجميع هؤلاء الشعراء ارتبط مصيرهم بمصير بقية بني جلدتهم من اليهود . وقد نظم خروج قصيدة جميلة بعنوان " كبرت في غربة عنك أيها الشعب المنبوذ " .

وفي الفترة التي تعرض فيها اليهود إلى خسف الروس شعر هؤلاء الشعراء بأرواحهم تتمزق وبالألم يعتصرها فهم نهب مقسم بين الولاء لبني جنسهم والبلد الذين يعيشون على أرضه . وعبر الشاعر الشاب م. س. ابراموفتش عن هذه المحنة في ديوانه " أشعار " (١٨٨٩) وهو ديوان يحتوى على قصائد غنائية مثقلة بالتعاسة ويدور معظمها حول التألم والأسى . غير أن قلة من هذه القصائد تدور حول الحب والربيع والطبيعة على نحو عابر . يقول ابراموفتش أنه شعر بنبض الألم وأن نغما حزينا باكيا يتخلل كل قصائده. وكذلك أحس ابراموفتش بقتامة المستقبل الذي ينتظره . ويعبر الشاعر في غنائياته بأسلوب بليغ عن حبه للأرض التي يعيش عليها ولكنه في نفس الوقت يعبر عن الحزن الذي أضناه بسبب ما لحق ببني جلدته من جور واضطهاد .

ويعبر ابراموفتش عن تمزقه بين الولاء لبلده روسيا وولائه لبني جلدته في قصيدة بعنوان " من أغنيات اليوم " وفيها يحدثنا عن سخرية اخوانه الروس به لأنه يلقى بنفسه في أحضان بني جدلته اليهود . ولكن حبه لهم لا

يحـــول دون حـــبه لأرض الوطن دون لوم أو تقريع : يقول الشاعر عن هذا الوطـــن " فـــيك ولدت وفي ترابك سوف أدفن " غير أن هذا لا ينسيه بالمرة وشـــائج القربى التي تربطه بشعبه المضطهد . يقول الشاعر في هذا الشأن : " طالمـــا أن هـــناك يهوديا واحدا يسومه القدر مرارة الاضطهاد فسوف تظل أحـــزانه هـــي نفس أحزاني . وطالما أن وصمة الاحتقار والزيف والكراهية والجهـــل تلازمـــه فســـوف أتحمل هذه الوصمة في أيام الاضطهاد والقلق". وتـــتردد نفس الفكرة في عدد آخر من قصائده مثل القصيدة التي يقول فيها : " لقد سئمت اسم الشعب المختار . فأنا لا اهتم بالأجناس والمشكلات . لا . أنا لســـت يهوديا ... لست يهوديا " بمعنى أنه يؤمن بالإنسان في كل مكان ورغم أنـــه يستسنحف اعتباره يهوديا فإنه على استعداد أن يتحمل وطأة أعدائه عليه بالفخـــار والاحـــتقار والغضـــب . ويتـــناول ابراموفـــتش في بعض أشعاره موضـــوعات مســـتقاة من الكتاب المقدس. والشعب اليهودي في نظر شاعرنا شـــعب مـــن الأبطـــال المثابرين العاجزين عن الاحتجاج على ما يلحق بهم . ويعـــبر ابراموفتش عما يكابده من عذاب شديد بسبب قدرة شعبه على التحمل بـــلا نهاية وصبره الذي أنهك قواه . يقول الشاعر في هذا الشأن : " أن شعب صهيون يهلك في أساه الذي يثير الشفقة . وهو يتطلع عبثا إلى زمن يحمل إليه الراحة في طياته . فرقابهم المحنية تئن تحت نير القسوة والظلم ".

وفي عام ١٨٨٧ أصدر ن. م. مينسكي أول ديوان . ثم نذر عام ١٨٧٩ قلمه لمعالجة المشكلة اليهودية . غير أنه ما لبث أن أولاها ظهره فقد انتقل في ديوانه الأول إلى موضوعات روسية تتصل بالشعب الروسي والكتاب الروس مـــتجاهلا تماما مشاكل اليهود . ورغم هذا فإن الديوان ينم عن ضيق صاحبه ويبـــرمه بـــالجو الخانق الذي ساد الحياة الروسية في عقد الثمانينات من القرن التاســـع عشر . ونحن نلاحظ نفس الشيء في شعر نادسون فرغم أنه لم ينظم سوى قصيدة واحدة عن بني جلدته فإن شعره يفوح برائحة الدم المراق ... دم الـــيهود الضـــحايا . والـــرأي عند مينسكي أن الشاعرين الروسيين الكبيرين بوشـــكين وليرمنتوف يمثلان سعادة وبساطة الطفولة البريئة في حين أنه منذ نعومـــة أظافـــره لـــم يعرف الصفاء والبساطة وخلو البال . ويشعر مينسكي بالحـــزن الذي يتجمع في روحه . ويفيض قلب الشاعر بالحزن العميم ويشعر بالغربة والوحشة في هذا العالم فهو يقول : " لا أحب أحدا فكل إنسان غريب

عني . كما أني لا أشارك أحداً فرحته . " ويخيم الحزن على كثير من قصائده مــثل " الأسى " و " لحظات الحزن " و " الليالي البيض " . يقول مينسكي أن الليالي البيض صارت رفيقه . وفيها يشعر بالحزن من أجل الذين يقابل حبهم بالســخرية والازدراء وأيضا من أجل الذين يملأ الشك والحزن قلوبهم فيقفون فــي مفترق الطرق ويتوه منهم الطريق . وكذلك عبر مينسكي عن حزنه من اجــل الجيل المريض الذي عاش عقد الثمانينات وتلاقت أفكارهم مع أفكاره . وعــندما نظم مينسكي قصائده الحزينة لاحت له " الأيام السود " التي شاهدت الليالــي البيض مولدها . ونحن نراه في هذه القصيدة ينعى صديقا قال له عند الافتراق : " لست أعرف لأي الآلهة أتوجه بالصلاة". إن مينسكي لم يغن من أجــل الشــعب الــيهودي وأحزانه ولكنه غني لجيله المريض ولسقوط أوراق الشجر وتحطيم الآمال والأجنحة المكسورة العاجزة عن التحليق .

ألف مينسكي مسرحية بعنوان " حصار تولزين " نشرها عام ١٨٨٨ في صــحيفة فوسكود وذلك بعد صدور ديوانه بعام واحد . وخلافا لما عهدناه في شــعره تعــالج هــذه المسرحية التاريخية من أولها إلى آخرها مشكلة الشعب الــيهودي . ورغم أن احداثها ترجع إلى نهاية القرن السادس عشر حتى بداية القــرن السابع فإنها تتضمن نفس الإحساس بالعجز الذي سبق للشاعر أن عبر عــنه في الثمانينات عندما تناول جيله المريض . والمسرحية مؤثرة وتحرك المشــاعر وتتســم بالجديــة الكاملة والمرارة الشديدة والطابع الغنائي الجياش بالعاطفــة . ويــبدو أن مينسكي فكر في تأليفها قبل صدور ديوان شعره على مدينة تولزين البولندية وكيف أن يهود انضموا إلى صفوف البولنديين الأول . وتــدور أحداث هذه المسرحية حول الحصار الذي فرضه القوزاق على مدينة تولزيــن البولــندية وكــيف أن اليهود انضموا إلى صفوف البولنديين للدفاع المســتميت عــنها . ويبعث الجانب البولندي إلى معسكر القوزاق باثنين من رجال الكشف والاستطلاع أحدهما بولندي والآخر يهودي فيلقي القبض عليهما ويســاقان إلى القائد القوزاقي . ويعترف المقبوض عليهما بأن القلعة البولندية التي يحاصرها القوازق حصينة ومليئة بالتموين والقمح . ولكن سياسيا قوزاقيا محــنكاً وضــريرا (يتخفى كشاعر شعبي) يسعى إلى الوقيعة بين البولنديين والــيهود فهو يعرف العداوة الدفينة بينهم . ويقترح هذا الشاعر الأعمى على قــائد القــوزاق أن يســتغل هذه العداوة ويثير الفرقة بين الجانبين المتحالفين اليهودي والبولندي . ويستجيب القائد القوزاقي لنصيحته فيأمر بشنق اليهودي

وإطــلاق سراح البولندي معززا مكرما . ويتنبه أحد أحبار اليهود الشباب إلى هذه الخدعة ويطلب منهم القيام بتشييد برج للدفاع حتى ولو اقتضى منه الأمر العمــل فــي يــوم السبت المقدس . غير أن حبرا يهوديا آخر كبيرا في السن يعارضه استنادا إلى أحكام التوراة والسلف الصالح فيتبعه اليهود ويتخلون عن الحــبر الشــاب . وهكــذا تــنجح الخدعة الماكرة في دق إسفين بين اليهود والبولنديين الحلفاء . وينتهي الأمر باستسلام القلعة والإجهاز على كل من فيها من يهود .

ويقــف مينسكي في مسرحيته في صف الحبر الشاب المجدد الذي يحث بني جلدته على الالتحام بالبولنديين والذي يعتقد أن اليهود قد تغيروا وصاروا يعارضــون الحبر الطاعن في السن التقليدي الذي يعرف أن بني إسرائيل لم يتغــيروا البــتة . ولكــن مينسكي يتغير بمرور الوقت فينبذ أسلوبي كل من الحبريــن الشــاب والعجــوز في التفكير ويدعو إلى ضرورة استمساك الفرد بفرديــته وإلى اتباع الطرق المؤدية إلى الاستغراق في اللذة أي أنه تخلى عن معســكر بنــي جلدتــه الهالكين وآثر أن يعيش غريبا حتى عن مملكة الخلق والإبداع الفني .

ثم ينتقل الفصل الثامن إلى الحديث عن الشاعر اليهودي فروج الذي برع فــي إتقــان اللغــة الروســية ونظم بها شعرا ناعما متلألئا ونابضا بالحياة . واستطاع فروج منذ أن نشر ديوانه الأول في عام ١٨٨٥ أن يلفت الأنظار إليه وينــتزع اعــتراف النقاد بأهميته . ورغم أنه كان باستطاعته أن يمزج شعره بــالوجدان الروسي على نحو ما فعل نادسون وابراموفتش فإنه آثر أن يكون شاعراً يهوديا قوميا خالصا يغني أبدا على قيثارة شعب إسرائيل .

بــدأ فروج الكتابة في صحيفة " رازفت " و " اليهودي الروسي " في عام ١٨٨٠ . وكان قبل ذلك يعمل كاتبا في مكتب أحد أحبار اليهود واستغل وقت فــراغه فــي تألــيف شــعره وإرساله إلى صحف بطرسبرج . ومن الناحية التاريخية تزامنت قصائده الغنائية مع خروج اليهود الجماعي من روسيا . وقد دوى صوت قيثارته شجيا في عقد الثمانينات حيث أصبح شعره جزءا لا يتجزأ من الوجدان اليهودي في هذا العقد القاتم والكئيب بسبب سفك الغوغاء الروس لدمــاء اليهود . وظل فروج على ولائه لبني جلدته منذ الثمانينات حتى وفاته

في ٧ سبتمبر عام ١٩١٦ وهو العام الذي سجل آخر مرحلة من جلاء اليهود الجماعي عن روسيا وهجرتهم إلى الغرب . والجدير بالذكر أن ولاءه الخالص والعميق لشعب إسرائيل لم يتخذ أي شكل سياسي . ولأن فروج لم يجد من يأويه أو يعوله ويقتنع به كشاعر صاحب رسالة فإنه كان دائم التنقل والتجوال.

وفي نفس السنة التي توفى فيها فروج كتب المؤرخ اليهودي سيمون دبينوف ذكرياته عن الشاعر . ويزيد من قيمة هذه الذكريات أن دبينوف التقى بفروج في أوائل عقد الثمانينات وأنه في عام ١٨٨٣ – ١٨٨٤ عاش في مسكن ملاصق الشاعر في مدينته بتروجراد . وينوه دبينوف بالدلالة الاجتماعية لشعر فروج فيقول أن من لم يعش في فترة الثمانينات لا يمكن أن يقدره حق قدره أو يتخيل مدى الأثر العميق الذي تركه في قلوب اليهود آنذاك.

ويختلف أدب فروج عن أدب ليفاندا السابق عليه فقد كان ليفاندا يعبر في أمل وتفاؤل عن ضرورة انصهار اليهود في بوتقة الحياة الروسية . ولكن هذه الدعوة لم تكن ممكنة بالنسبة للشاعر فروج الذي شاهد بنفسه اليهود يذبحون ذبح الشاة في عقد الثمانينات . ولهذا نراه يأسى لبؤس اليهود وشقائهم ويتغنى لهم بألحان جنائزية حزينة ويطالبهم بأن يعيشوا بمعزل عن الروس ويحثهم إلى السعي نحو النهضة القومية بخلاف ليفاندا الذي دعاهم إلى نبذ الجيتو والالتحام بالعالم الخارجي. وعبر فروج عن شجونه وأحزانه أجمل تعبير في قصيدة بعنوان " أحلام الطفولة الذهبية " نشرها في مجموعته الشعرية " أوراق من مفكرة " ويرجع الفرق بين تفاؤل ليفاندا وتشاؤم فروج إلى اختلاف ظروفهما التاريخية . فقد كتب ليفاندا رواياته في فترة الإصلاح العظيم الذي يبشر بالتحسن والتقدم في حين أن فروج نظم شعره وهو يرى دم بني جلدته يسيل في مذابح الثمانينات . ولكن فروج قبل أن يدركه اليأس كان في فبراير ١٨٨١ (أي قبيل المجازر) يحلم بإقامة صهيون ثانية أو مجتمع يهودي جديد. غير أن أحلامه ما لبثت أن تبددت عندما رأى الروس يتحولون إلى وحوش فتاكة تشرب من دماء اليهود . عندئذ أيقن شاعرنا أن واجبه يحتم عليه الالتصاق بالجذور وأنه يتعين عليه أن يعود إلى حظيرة أبيه على نحو ما فعل الابن الضال في الكتاب المقدس .

والجديـــر بالذكر أن فروج عاش نهبا مقسما بين قوتين هائلتين تتجاذبانه قوة تجذبه بشدة إلى بني جلدته المطحونين وقوة مضادة تجذبه بشدة أكبر نحو روســيا التي أحب مراعيها وحقولها ومدارجها الخلابة والتي نسج فيها أحلام الشــباب . ويعــبر فــروج عن حزنه الغاضب في قصيدة نظمها عام ١٩٠٠ بعنوان " الخلاصة " تحدث فيها عن نقيضين : استبشاعه للمجازر التي جعلته يمقت روسيا ، وجمال طبيعتها الخلابة الذي شده إليها .

وفي قصيدته الجميلة " فوق نهر الدينبر " نراه يشدو بأغنيتين إحداهما من أجـل صهيون والأخرى من أجل روسيا . وهويمتدح نهرين ويمجدهما : نهر الأردن الــذي جــاء ذكــره في الكتاب المقدس ونهر الدينبر الروسي . وألف فــروج مجموعـــة مــن الأساطير والحكايات والخرافات المستمدة من الكتاب المقــدس ومـــن ســفر الأنبياء بالذات إلى جانب حبه العميق لأشعار بوشكين والحكايات الشعبية التي خلبته بأسرار جمالها الذي ليس له حدود .

وفي حزنه على ضياع حقوق اليهود المدنية يقترب فروج كثيرا من شعر نكراســوف ورغــم أن الماضي أوجع قلبه بسجونه وزنزاناته ومقابر شهدائه الأحــرار فإنـــه تذكر الاستبس وامتداد الخضرة على امتداد البصر كما تذكر ســماء روســيا التــي انتــثرت فــيها اللآلئ . أي أن ربة الشعر أوحت إليه بصــورتين متناقضــتين تمامــا : صورة أنبياء العهد القديم وقواده وشهدائه وصـــورة أخــرى كانــت قد استقرت في وجدان الشاعر في مرحلة الطفولة والمراهقة فغنت لجمال الربيع الذي انقضى وتغريد البلابل الذي ولى . وتغني فروج بأغنيات صهيون كي يؤدي واجبه نحو شعبه وخجل من نفسه لأنه غنى فـــي يــوم مــن الأيام أغنيته الروسية عن الربيع وأزهاره المتفتحة والإيمان والآمال والحب . وندم على أنه تغنى بها في يوم من الأيام . وهكذا تأرجحت قيــثارته بيــن العــزف علــى احزان شعبه والتغني بجمال الخضرة وأفراح الــزهور . ولا غرو فقد كان حبه للريف الروسي غائرا في أعماقه. وكان لكل مرحلة من حياته مزاجها النفسي . فقد تملكته القتامة بسبب مجازر اليهود التي وقعت عام ١٨٨١ . وتغنى بأغنية صهيون وظل يئن ويتوجع لما حدث لشعبه حــتى عــام ١٩١٠ تقريــبا وحــتى يلــوذ بنفسه من هذا العذاب دفعه خياله الرومانسي إلى أن يعيش مع أنبياء العهد القديم أمثال أشعيا وآرميا وصامويل يســتمد منهم السلوى والعزاء . يقول فروج في هذا الشأن : " كان من حسن

حظـــي أن تجذبنـــي اللغـــة العبرية إليها وأن أحب الأنبياء لدرجة العبادة بكل الحرقة التي كابدتها روحي الشابة . " ونحن نسمع أصداء الأنبياء في قصائده " المســـتقبل " و " الســـجن " و " الراعـــي النبي " و " يوم القيامة " و " داود وجلياط " . وعن طريق الأنبياء والسلف الصالح اتجه شاعرنا إلى أن يشد أزر اليهود ويجعلهم يتغلبون على المكاره .

ولـــم تقتصـــر رومانسية فروج على تمجيد الماضي وأنبيائه ولكنه أيضا رســـم صورة رومانسية المستقبل في ديوانه " أغنيات صهيون " . فضلا عن أنـــه نشر مجموعة من القصائد التي نظمها في الفترة في ١٨٧٧ حتى ١٨٠٢ وهي الفترة التي شاهدت نشأة الحركة الصهيونية . ورغم كل ما بذله الشاعر مـــن محـــاولات للحصول على العزاء فقد ظل العذاب لما حدث لليهود يقض مضـــجعه . وأولـــى فروج اليهودي العامل في الحقول حبه وتقديره ولم يأبه بالطبقة المثقفة من بني جنسه .

وبعـــد وفاته أقيمت في مدينة كييف أمسية أدبية تكريما له حضرها كثير مـــن العجائـــز والبســـطاء والناس العاديين الذين انخرطوا في النشيج والبكاء وحولـــوا الأمســـية إلـــى مناحة وصفها الممثل أ . أ . ميرسكي بأنها احتفالية بأحزان اليهود . وتكريما لذكراه قام الشاعران اليهوديان تشايم زيجر وليوجاف بإهداء أشعارهما له . ولا عجب فقد شاركاه نفس مشاعره ونفس أحزانه .

الفصل التاسع :

يتـــناول هـــذا الفصـــل طـــبقة المثقفين اليهود المنادين بالالتحام بالشعب وأنصار الهجرة خارج روسيا وكذلك الداعين إلى حب فلسطين .

يقـــول المؤلـــف هنا إن الكتاب اليهود حتى قبل وقوع المجازر ضد بني جلدتهـــم بـــدأوا يدركون في أواخر العقد السابع من القرن التاسع وجود هوة ســـحيقة تفصل الطبقة المثقفة اليهودية التي اندمجت في المجتمع الروسي عن الجماهير اليهودية الأمر الذي انتهى بها إلى التخلي عن فكرة نشر التنوير في الحكومة الروسية الاستبدادية وكذلك التخلي عن مناصرة الشرائح التقدمية في المجـــتمع الروســـي . ومن ثم بدأ هؤلاء المثقفون يتحدثون عن المنبوذين في صفوف الشعب اليهودي .

ولاحظـــت جمعـــية نشر التنوير بين اليهود في روسيا في عقدها الأول (١٨٦٣ – ١٨٧٣) أن الجالـــية اليهودية القديمة كانت في حالة تفكك وانها لن تســـلم قـــيادها لهذه الجمعية . وفي نفس الوقت نجد أن الطبقة المثقفة اليهودية التـــي تطورت تحت تأثير التيارات الحديثة اندمجت مع الروس على نحو شبه كامل .

وفـــي عام ١٨٧٩ عادت صحيفة رازفت للظهور في بطرسبرج وساهم فيها عدد من الكتاب اليهود أمثال بوجروف ومينسكي وكوليشر الذين فهموا أن تعبـــير الطبقة المثقفة الروسية معناه التضامن مع جماهير اليهود وليس مجرد الانـــتماء إلى شعب بني إسرائيل . وهذا ما دعا الكاتب كوليشر إلى المطالبة بضـــرورة التصـــدي لعدم اكتراث الأجيال اليهودية الشابة بالمشكلة اليهودية وبمصـــالح الجماهـــير اليهودية . وقد اضطلعت صحيفة رازفت بهذه المهمة عـــندما عادت إلى الظهور . فقد نشرت خطابا في عددها التاسع الصادر في ٨ نوفمـــبر ١٨٧٩ كتبه موسي ليب ليلينبلوم يشير إلى أن اليهود الشبان دون اســـتثناء يكـــادون أن يجهلوا مصير أخوانهم التعساء تماما كما يجهلون أمور الصـــينيين واليابانيين وأن الواجب يقتضي منهم تقديم المساعدة إلى الجماهير الـــيهودية . ويضيف ليلينبلوم قوله : " أن دعاة الاندماج فشلوا في تحقيق أي

شـــيء ولكنهم نجحوا في زيادة غربة الشباب اليهودى المتعلم عن بنى جلدته الذين يحتاجون الى مساعدته الفكرية و المادية ،

وفى عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر أصبح المساكين والغلابة بين اليهود مركز اهتمام الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية . فقد انصرف هذا الأدب إلى الوقوف على لغتهم وحياتهم وأحزانهم وعذاباتهم . وفي تلك الفترة بدأ أدب اليديش يظهر بقوة . ويعتبر س يا. ابراموفتش مؤسس هذا الأدب في روسيا . وفي بادئ الأمر استقبل المثقفون اليهود أدب اليديش باحتقار وزراية فقد اعتبروه أدب الخدم والسوقة وحثالة اليهود . حتى الشاعر فروج نفسه ازور عنه . ولكن هذا الأدب المرفوض اكتسب بمرور الوقت مكانة عالية . غير أن هذا الأدب ليس محل الدراسة الراهنة على أية حال . ظهرت كما قلنا كوكبة من الأدباء اليهود الذين يكتبون باللغة الروسية اتخذوا من صحيفة فوسكود منبرا للاحتجاج والمطالبة بمساواة اليهود والروس في الحقوق المدنية. يقول منسكي في هذا الشأن : " واجبنا أن نرغم المثقفين اليهود على تعلم حب الشعب اليهودي . وكي نصل إلى هذا الهدف ستقوم بتسجيل كافة الجوانب المضيئة في حياة اليهود والقادرة على إثارة العطف عليهم . " وهذا ما فعله فروج في شعره وأنسكي وبروز هانشكي في نثرهما وكوليشر ولبلينوم وليفاندا وآخرون في مقالاتهم .

ويمكن القول بوجود ثلاثة مراحل في حياة اليهود الروس . الطبقة المثقفة في عقدى الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر التي سعت إلى تعريف المجتمع الروسي بأحوال اليهود ، ثم الطبقة المثقفة اليهودية في أوائل الستينات وأواخر السبعينات التي دعت إلى انصهار اليهود في بوتقة المجتمع الروسي ثم سادت في الثمانينات وما بعدها نغمة كافرة بالاندماج ومنادية بالهجرة إلى الخارج ومنهم من يمم شطر أمريكا أو شطر فلسطين والجدير بالذكر أن الطبقة البورجوازية اليهودية المثقفة هي التي دعت إلى نشر المعلومات الصحيحة في روسيا عن اليهود في حين أن الذين دعوا إلى انصهارهم في الحياة الروسية كانوا يهودا أصحاب مراكز متميزة في المدن الكبرى وخاصة بطرسبرج . أما فكرة الهجرة فقد نشأت في الأقاليم بين اليهود المعدمين . وتوجه هؤلاء المعدمون إلى بني جلدتهم ممن انضموا إلى صفوف الثوار الروس متخلين بذلك عن يهوديتهم في سبيل الاندماج بالشعب الروسي .

ومعنى هذا أن فكرة الهجرة نشأت من تحت وتحركت إلى فوق . أي أنها نشأت أصلا في صفوف اليهود الفقراء والمعدمين لتخاطب الطبقة البورجوازية اليهودية المثقفة . ومن ثم نرى طلبة الجامعات يكتبون عام ١٨٨٢ في صحيفة " رازفت " : " إن الهجرة هي المخرج الوحيد من الوضع الراهن المحزن . وهي هروب أملاه الناس على مثقفيهم ولم يمله المثقفون على الناس ... وقد نادت مدينتا بطرسبرج وموسكو بالاندماج مع الروس في حين أن الأقاليم التي أحست اكثر بمرارة الخسف والاضطهاد هي التي رأت في الهروب من روسيا حلا لمشكلة اليهود . واحتدم النزاع في صفوف بني إسرائيل فانقسموا إلى فريقين : فريق يدافع عن الهجرة باعتبارها ملاذ المطحونين والمضطهدين وفريق يعارض الهجرة يتكون من أغنياء اليهود المنتفعين من النظام القيصري والمقربين إلى سلطة الحكومة . وإلى جانب المطحونين وقف صغار التجار والحرفيين والطلبة المعوزين ليواجهوا البورجوازية اليهودية التي تعيش في يسار وبحبوحة .

وتناول المؤرخ آي . سوسيس الذي أرخ لحياة اليهود الاجتماعية هذا الصراع المحتدم بين وجهتي النظر هاتين في مقال بعنوان " فترة أزمة القيادات الاجتماعية في أدب الثمانينات " . يقول سوسيس في هذا الشأن : " إن الأثر الذي تركته مجازر اليهود يختلف في طبقة الموسرين منهم عنه في جماهير الشعب . فقد تمكن الموسرون من الشفاء السريع نسبيا من الصدمات المادية التي ألمت بهم ، في حين ان الجماهير التي حملت فوق ظهرها العبء الأكبر من الفوضى كانت محرومة من أية قاعدة اقتصادية تستند إليها ولا سيما أن هذه القاعدة اهتزت حتى قبل نشوب الأزمة (وكانت المناطق الفقيرة المجاورة أكثر تضررا وعجزا عن حماية نفسها في فترة المجازر التي وقعت في كل من أوريا وكييف ووارسو على سبيل المثال) أضف إلى هذا أن البورجوازية اليهودية الثرية التي حصلت على مزيد من حقوقها في فترة الإصلاحات العظيمة واستفادت من النمو الاقتصادي المزدهر آنذاك ظلت تعقد بعض الآمال على المساواة في الحقوق . وعلى أية حال فإن جماهير اليهود الشعبية التي أضيرت اقتصاديا بسبب معدلات التطور السريعة والتي حرمت من الحقوق حتى بعد فترة الإصلاحات الكبرى لم تعقد أي أمل على إمكانية تحسن أحوالها . فضلا عن أن يهود بطرسبرج الذين شخصت إليهم عيون

الأقاليم في فترة الأزمة كانوا يتمتعون بمركز خاص ومميز ليس على المستوى الاقتصادي فحسب بل أيضا من ناحية الاستقرار والأمان . وكان يهود بطرسبرج يمثلون الركن اليهودي الوحيد الذي لم يجرب عن قرب الرعب الناجم عن المجازر .

وينطبق هذا التشخيص على البورجوازية اليهودية الصغيرة أكثر من انطباقه على طبقة البروليتاريا اليهودية التي لم يكن لديها ما تخسره . ومما زاد من انزعاج هذه البورجوازية الصغيرة أن بعض الأحلام الوردية في تحقيق قدر من التحسن والإصلاح كانت تراودها . ومن داخل الشعب اليهودي تصاعدت الصيحات المطالبة بالهجرة يحدوها الأمل في مولد جديد وفي وطن جديد . حتى الشاعر فروج الذي احب جمال الريف الروسي من سويداء قلبه وعلى نحو رومانسي نظم عام ١٨٨٢ قصيدة تدعو إلى الهجرة والترحيل .

واختلفت آراء اليهود بشان هذه الهجرة فمنهم من رأى أن ينتقل مركزها إلى بلد آخر مثل أمريكا و منهم راودهم حلم بإنشاء وطن قومي في فلسطين. وفى عام ١٨٨٢ نشر ليوبينكسر باللغة الألمانية فى برلين نبذة بعنوان "تحرير النفس" قارن فيها مؤلفها بين الدعوة إلى تحرير النفس ومعناها المطالبة بإنشاء وطن قومي لليهود وبين الدعوة إلى المطالبة بالمساواة المدنية بين اليهود و الروس . والجديد بالذكر أن كل من بينكسروليفاندا كانا يحلمان بإقامة دولة يهودية فى فلسطين بتمتع أهلها بالاستقلال الذاتي .

وفى عام ١٨٨٤ظهر ديوان شعر يحمل عنوان "فلسطين" اشترك فى تحريره عدد من الكتاب اليهود أمثال ليفاندا و بينسكر و ليلينبلوم وسمولكنسن وروميرو الذين جمعت بينهم أفكار قومية واحدة . ووصف ليفاندا الحركة الداعية إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بأنها بالغة الدلالة . وبنفس الحماس الذي سبق أن دافع به ليفاندا عن انصهار اليهود في بوتقة الروس نراه يدافع عن إنشاء وطن قومي في فلسطين يجمع جميع اليهود بين جناحيه شبابا كانوا أم شيوخا وفقراء كانوا أم أثرياء . ورأى ليفاندا في الهجرة إلى فلسطين المهرب الوحيد من المجازر والاضطهاد . فعلى أرض فلسطين يمكنهم التمتع بحريتهم وزراعة أراضيهم بأنفسهم (بعد أن حرمتهم الدول والحكومات المتعاقبة من امتلاك الأراضي) . وقد وجدت هذه الدعوة ترحيبا كبيرا من

جانب فولينسكي فقام بترجمة مقال بينسكر " تحرير النفس " من الألمانية إلى الروسية .

حلم يهود روسيا بالهبوط في أرض الميعاد وفي لهفتهم عليها تمنوا أن يقبلوا ترابها . ويعطينا الشاعر اليهودي الأسباني هلفي (الذي كان أثيرا لدى قلب الشاعر اليهودي الألماني الكبير هنريش هيني) مثلا حيا على اللهفة إلى العودة إلى أورشليم . ويقال أنه عند وصوله إلى المكان الذي أقيم عليه هيكل سليمان قبل أن يتهدم اغرورقت عيناه بالدموع وهو ينشد " أغنية صهيون " ويقال أيضا أن أعرابيا طعنه طعنة نجلاء ولكنه لم يحس بالألم بسبب النشوة العارمة التي تملكته ولم يأبه الشاعر بجرحه القاتل واستمر ينشد أشعاره في حب أورشليم . فضلا عن أن عددا من طلبة وطالبات الجامعة فضلوا أن يهجروا دراستهم من أجل الذهاب إلى فلسطين .

والجدير بالذكر أن القصيدة التي نظمها فروج بعنوان " أغنيات صهيون " ظهرت في العقد الأول من القرن العشرين أي ان ظهورها تزامن مع نشأة الصهيونية الحديثة . ولكن إحساسه بهذه الأغنيات يرجع إلى أيام المجازر السوداء التي وقعت في الثمانينات من القرن التاسع عشر . وأيضا تميز عقد التسعينات من هذا القرن بظهور كوكبة من الشعراء الذين تغنوا بأرض صهيون وعلى رأسهم زنجر وجاف ومارشاك . وليس هناك شك في أن مجازر اليهود الدامية في الثمانينات هي السبب في تحرقهم شوقا إلى أرض الميعاد . وكلما حلت باليهود الروس النوازل والنكبات ، هاج حنينهم إلى أرض الميعاد .

فعندما تجددت المجازر عام ١٩٠٣ في مدينة كيشينيف استبد الغضب العارم بالشاعر اليهودي بياليك فألف قصيدة بالعبرية بعنوان " في مدينة المجازر " التي قام فلاديمير جابوتنسكي بترجمتها إلى اللغة الروسية في نفس العام . ومما يذكر أن بياليك ترعرع في أحضان الطبيعية وسار في شعره على نفس الدرب الذي سبق لفروج أن سار فيه .

لقد راود اليهود الروس الحلم بالذهاب إلى أرض الميعاد نتيجة اليأس القاتل الذي شعر به . وأدرك الأديب ليواندا هذه الحقيقة ... ثم تراء

يتحدث عن هذا الحلم كأضغاث أحلام هيهات أن تتحقق على أرض الواقع . نعم أدرك ليفاندا أن اليأس الرومانسي هو الذي حدا ببني جلدتهم إلى الاستغراق في حلم الاستقرار في أرض صهيون . هذا اليأس الرومانسي هو الذي أوحى إلى ليفاندا نفسه بأن يحلم بمستقبل وافر الظلال ينتظر اليهود في فلسطين . وباختصار يمكن القول بأن الشعور بالمذلة والهوان جعل اليهود يحلمون بالخروج الجماعي من روسيا حيث اللظى والعذاب . وحتى يهربوا من بشاعة الحاضر سرحوا بخيالهم إلى ماض عريق وتليد من السؤدد والمجد أو بمستقبل رومانسي حالم بالاستقرار في أورشليم .

وتجد هذه المشاعر المتداخلة في قصيدة " فلسطين " التي ألفها م. أبراموفتش تعبيرا جميلا متلألئا . ويرفض الشاعر ابراموفتش فكرة هجرة اليهود إلى خارج روسيا كما أنه لا يحبذ فكرة رحيلهم إلى فلسطين وهو يعترف بأنه يحب أن يسبح هائما في مملكة الخيال حيث يعشق الجوس بين الأطلال وحيث يغرد كالعصفور على الأفنان . ومع ذلك فهو يدرك أن هذا لن يحل مشاكل اليهود التي يرى أن النضال وحده هو الكفيل بحلها ... النضال من أجل البقاء في روسيا واكتساب الحقوق المدنية . يقول ابراموفتش عن روسيا التي يحبها رغم أنها تعذبه : " روسيا هي مستقبلنا . أؤمن بهذا تماما كما أؤمن بأن فلسطين تنتمي إلى الماضي " ويعني ابراموفتش بذلك أن التفكير في العودة إلى أورشليم ضرب من الأحلام الرومانسية وأن النظرة الواقعية تقتضي من اليهود النضال من أجل البقاء في روسيا .

الفصل العاشر :

يقول المؤلف في هذا الفصل أن روسيا في التسعينات من القرن التاسع عشر تحولت إلى التصنيع وبالتالي نشأت طبقة عاملة أشد ما تكون سخطا على النظام الرأسمالي . هذه الطبقة العاملة كانت مصدر إلهام لعدد من الكتاب أمثال ف. ف. فيرسيف وماكسيم جوركي وايوجين تشيريكوف و س.ج. سكتالتيس . ويدين فيرسيف بالفضل لهذه الطبقة في تأليف أعماله كما يدين بوجه خاص للإضراب الذي قام به عمال مدينة بطرسبرج عام ١٨٩٦. ولم يقتصر السخط على أبناء الطبقة العاملة الروسية بل انتقل إلى صفوف اليهود الذين يعيشون في الجيتو . أي أن عدوى الثورة انتقلت من البروليتاريا

الروسية إلى البروليتاريا اليهودية . يقول أوتو بوار في كتاب أصدره بالألمانية في فيينا عام ١٩٠٧ أن أوربا وقفت مشدوهة وهي ترى ألسنة التمرد تمتد إلى عقــول العمـــال اليهود الذين أسهموا بنصيب وافر في إذكاء ثورة ١٩٠٥ في روســيا . أظهــر الأوربــيون دهشتهم عندما وجدوا أن يهود الجيتو الودعاء والواجفيــن قــد تحولــوا إلى مناضلين وأبطال ثوريين . ونفضت الجماهير الــيهودية عــن نفسها التخاذل والخوف مطالبة بأن تكون لها ثقافة عصرية . ويجــدر بالذكر أن جماهير اليهود بدأت بالفعل في خلق ثقافة جديدة أصبحت الطبقة المثقفة اليهودية تؤيدها بعد أن كانت تزور عنها . ويجدر بالذكر أيضا أن الأدب اليهودي المكتوب باللغة الروسية لم يكن معنيا بمخاطبة عامة اليهود ممــن يتحدثون لغة الييديش ولكن لا مناص من القول بأن هذا الأدب تأثر بها وبمواقــف أصحابها الأمر الذي أدى إلى قيام الرقابة الروسية بمصادرة عدد صـــحيفة فوسكود الصادر في اكتوبر عام ١٨٩٤ لأنه تضمن ترجمة لرواية الروائي اليهودي الإنجليزي إسرائيل زانجويل " اطفال الجيتو " . يقول أ . إي لانــدو محـــرر وناشر صحيفة فوسكود في هذا الشأن : " كان من الضروري حذف صفحات عديدة من هذه الرواية تضم الخطب الاشتراكية التي ألقيت في اجتماع عقده العمال اليهود " .

وفــي العقــد الأخير من القرن التاسع عشر حدث تطور غير متوقع فقد انقسم اليهود إلى معسكرين متناحرين : معسكر البورجوازية اليهودية المستفيدة مــن الــنظام القيصـــري ومعسكر البروليتاريا اليهودية التي داسها المجتمع الروسي تحت الأقدام . وبعد أن كان اليهود فيما مضى صفا واحدا نراهم الآن ينقســمون على أنفسهم . وتعكس مسرحية " الملك " التي ألفها يوشكفتش هذا التطور الجديد . يقول إرش اليهودي المغلوب على أمره في هذه المسرحية : " لست أذكر ان يهوديا قام في وجه يهودي آخر في أي وقت مضى . إن هذا لم يحدث من قبل . "

وقــد تجلــت التناقضـــات بيـــن هذين المعسكرين المتناحرين في المدن الصناعية الكبرى أكثر من أي مكان آخر . وهكذا نرى ظهور اليهودي الثائر في المدينة الروسية بعد أن كان هذا اليهودي خانعا ذليلا يلجأ إلى الصلاة في وقــت الضــيق والشــدة فهو الآن يخالط اليهود الشبان الساخطين على تردي أوضـــاع بنـــي جلدتهم . ولم يعد هذا الشباب اليهودي المتمرد قانعا بالصلاة

ومنكبا على قراءة الكتب المقدسة ولا غرو فقد عرفت الثورة الطريق إلى قلبه مثلما نرى في المسرحية التي ألفها يوشكفتش بعنوان " الجوع " .

وتعكس الرواية التي ألفها س. ياروشفسكي عام ١٨٩٤ بعنوان "مهاجرون من ميزبول " التطورات اللاحقة التي طرأت على حياة اليهود في روسيا كما انها تحدثنا عن ظهور جيل شاب جديد من بني إسرائيل حل محل الأجيال القديمة . فقد بدأ أبناء الطبقة العاملة اليهودية ينهضون للتصدي للمشكلات الاجتماعية . ولم يعودوا يكتفون بمجرد الغناء من أجل صهيون وهيكل سليمان الذي تهدم بل سعوا إلى النضال من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية . وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت في روسيا مجموعة من الأدباء اليهود الجدد تمثل هذا الجيل الجديد مثل س. س. يوشكفتش المولود عما ١٨٦٨ و د. يا. أيزمان المولود عام ١٨٦٩ ون. م. أوسيبوفتش المولود ١٨٧٠ . ثم جاء بعدهم نفر آخر من الأدباء مثل م. د. ريفكين و أ. أ. كيبين و ن. لوموف المعروف باسم ن. ل. كوجان . ويختلف هؤلاء الأدباء اليهود الجدد عن أسلافهم ممن رفعوا لواء التنوير أحيانا والاندماج في الحياة الروسية أحيانا أخرى أو نادوا بالعودة إلى أرض الميعاد أحيانا ثالثة . ففي الجيل الشاب الجديد ظهر يوشكفتش وأترابه ممن دعوا إلى النضال من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية وإزالة آثار الفقر وإزاحة الإملاق من فوق كاهلهم . ويقف في مقدمة هؤلاء الأدباء الجدد الكسندر كينين الذي تميز بحساسية ونزعته إلى الجمال فقد كان عاشقا لجمال الطبيعة الروسية . فضلا عن أنه صور الصراع المتزايد بين الأغنياء والفقراء في المناطق الريفية . وقد صور كينين في أحد أعماله يهوديا عجوزا فقيرا وكسيحا ولكنه يملك قلبا من ذهب مفعما بالحيوية وحب البشر .

وبعد م. كيبين نشر م.د. ريفكين مجموعة قصصيته عام ١٩٠٥ بعنوان " القيظ الشديد " حيث عني المؤلف بتصوير أطلال شعب إسرائيل ومعابدهم القديمة المتهدمة التي كانت في يوم من الأيام تفيض بالحيوية والتي أصبحت بعد تهدمها خرابة تجوس فيها الأشباح والأطياف . وينم هذا الأدب عن نزعة مؤلفه إلى الرومانسية والغنائية .

ويعتبر ايزمان وانسكى ويوشكوفتش اكثر الأدباء تعبيرا عن هذا الجيل الجديد فى اليهود الساخطين على المظالم الاجتماعية فى الحياة الروسية و قد تتلمذ انسكى علي يد أحد الأدباء الشعبيين المنادين بضرورة الاقتراب من حياة الشعب والتعبير عما يجيش فى صدره من آمال و طموحات و هوجليب انسكى و ارتبط أبسنسكى ارتباطا وثيقا بالمجلة الشهرية التي أصدرها دعاة النزول الى صفوف الشعب بعنوان "الثروة الروسية". و عبر انسكى عن صحوة الطبقات العاملة فى الأقاليم. وتعتبر قصته "فى قناة جديدة" اصدق تعبير عن حالة الغليان الجديدة التى بدأت تسرى مؤخرا بين أبناء الطبقة العاملة اليهودية .

بدأ أنسكى الكتابة فى عقد الثمانينات فى القرن التاسع عشر و تحلى بروح ديموقراطية صادقة وعميقة وبأسلوب تلقائي لا يعرف التكلف او الاصطناع. ويتجلى هذا فى قصته "أبناء من زواج بأخر " و رغم ان المجازر حدثت فى زمانه فإنه تغلب على أفكاره المتشائمة والقاتمة وعلى المشاعر القومية الهستيرية التى اجتاحت اليهود كرد فعل ضد الإحن التي نزلت بهم . وكان يتمتع بقدرة نادرة و مذهلة على تحليل المواقف الاجتماعية. واستطاع هذا الشاهد الأمين على عصره أن يسبر تاريخ بني جلدته من الناحية الاجتماعية وأن يقوم بتسجيله . واتسمت كتابات أنسكي بالاستقلال في الرأي والحكم الموضوعي والمحايد على الأمور لدرجة أن الناقد الصحفي جوزنفلد كتب في صحيفة فوسكود بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٠٤ يقول : لقد بلغ صدقه واستقلاله مبلغا جعل صحيفة روسية لها وزنها ويرأس تحريرها كاتب من أبرز الكتاب الروس من غير الكارهين للسامية لا تجرؤ على نشر إحدى قصصه (أنسكي) خوفا من تأليب الناس والإساءة إلى مشاعرهم . " ولم تكن هذه المرة الوحيدة التى أحجمت فيها الصحافة الروسية عن نشر أعماله القصصية لهذا السبب . بل إن تجرد أنسكي جعله ينتقد ذاته ويحلل تجاربه الثرية في الحياة بحيدة وموضوعية . ويسير أنسكي في هذه النقطة على درب سلفه ورائده الذي تميز بقدرة هائلة على تحليل ديناميكية العلاقات الاجتماعية.

وتلقى قصة أنسكي " في قناة جديدة " ضوءا غامرا على الجيل الجديد من شباب اليهود الروس الذي ظهر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وقد كتبها عام ١٩٠٦ . وهي تصور الحياة العمالية في الضواحي

والأقاليم . وتقع قصة " في قناة جديدة " في مدينة صغيرة بطبقتها العاملة ومحلاتها وأسواقها وعجيجها . فضلا عن أنها تروي حكاية أم يهودية عجوز تقع تحت تأثير ابنتها المتمردة . وكذلك ترسم صورة للعمال الذين يقومون بأعمال التحريض والثوار المحترفين والاجتماعات الجماهيرية والعمال الذين يناضلون من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية . ويسجل أنسكي في أدبه التغير الذي طرأ على اليهود فجعلهم من الآن فصاعدا قادرين على تحدي الظلم الاجتماعي الجاثم على صدورهم . وترسم القصة صورة لأم بدأت تعيش هذه الصحوة . تقول القصة في هذا الشأن :

" ارتاع أهالي الضاحية لظهور هذا الشباب الغض وتملكهم خوف غريب هائل يشمل بين جنباته كل شيء . وخشى أهل الضاحية على هؤلاء الشبان الذين يلقون بأنفسهم في النار ليلقوا حتفهم المحتوم . وأيضا خشى أهالي الضاحية على ذواتهم من أن يلفت هذا الشباب البائس بصوته العالي الأنظار إلى الجحور التي يسكنونها ويزحفون فيها . وكذلك خافوا أن تكون خطبه النارية الملتهبة بالتحدي سببا في إثارة سخط وغضب القوى العدائية عليهم . فهذه القوى اعتادت أن تسمع من سكان الضاحية كلمات الذل والمسكنة والأنين والدموع والتوسلات . وأخيرا والأهم من أي شيء آخر خشى اهل الضاحية على الشبان أنفسهم لأن هؤلاء الشبان أزاحوا النير الجاثم على صدورهم ورفضوا كل المعتقدات والتقاليد العتيقة بل كل شيء استمد منه الجيل القديم القدرة على مواصلة الحياة .. ولهذا اعتبر الجيل القديم أن الجيل الجديد عدو له ... وهكذا بدأ الصراع يحتدم بين الجيلين : جيل الآباء وجيل الأبناء . ولم يأبه الشباب بتوسلات أو تهديدات الجيل الأكبر سنا بل مضى في طريقه لا يلوي عن شيء عاقدا العزم والتصميم . ثم اعتاد أهل الضاحية على الوضع الجديد وأخذ الرعب الذي تملك العواجيز بسبب حملات التفتيش وإلقاء القبض على الشبان يضمحل . وأخيراً أدرك سكان الضاحية أن الشباب الفتى الذي نشأ في أحضانها لم يخذلهم أو يتخلى عنهم ... واقتنعوا بأن هذا الشباب لم يفعل ما فعل إلا دفاعا عنهم . وما أن شعر الجيل الأكبر سناً بهذا حتى بدأت روحه المتعبة تنجذب إلى هذه القوة الجديدة الصاعدة فكشف الكبار للصغار مكنونات أنفسهم فحدثوهم عن فقرهم وما يكابدونه من ألم وعذاب . واعترفت الضاحية المنهوكة والمنكوبة بقوة أبنائها وبدأت تحس بالفخار والاعتزاز بهم

وتــردد نفــس كلمــاتهم وتفرح لأفراحهم وتحزن لأحزانهم . وبالتدريج أخذ يغمرها إيمان عميق بمستقبل وضاء . "

الفصل الحادي عشر:

يعالج هذا الفصل كلا من الأديبين سيمون يوشكفتش ودافيد ايزمان اللذين يصوران طبقة جديدة هي الطبقة العاملة اليهودية . ويعني يوشكفتش بتصوير أبطالـــه مـــن الطبقة العاملة التي تعيش في المدن التجارية والصناعية الكبرى المكـــتظة بالســـكان على عكس لوموف كوجان وياروشفسكي اللذين اهتما في أدبهمـــا بتصـــوير البلدان الصغيرة . ويمثل صانع الأحذية شلويما في حكاية " الـــيهودي " نموذجـــا لهذه الطبقة العاملة الجديدة . وتتردد على لسانه دائما عبارة " دعنا نتحد ... يجب علينا القضاء على الفقر" . وثقة هذا العامل الثائر فـــي الطبقة العاملة ثقة كبيرة كما أن إيمانه بانتصار العدل لا يتزعزع. ونحن نطالع في مسرحية " الملك " أن العامل اليهودي ميرون يعمل في مصنع يملكه جروســـمان ونـــراه يقول لأبيه الذي يعمل في نفس المصـنع : " لا يوجد في كفاحـــنا فـــرق بين الروس واليهود بل يوجد عمال ومستغلون رأسماليون" . وأيضـــا نسمع نغمة مماثلة في مسرحية " الجوع " التي تصور عاملا شابا في مصنع للأثاث يقول : " يجب على المرء أن يعيش وفقا لإرادة الناس كما يجب أن يكـــون قلـــب المرء معهم . وطالما أن العدو لم يسحق فيجب أن ينحصر تفكـــيرنا فـــي ســـحقه . " والجدير بالذكر أن جميع هذه الشخصيات العمالية الـــيهودية الجديدة تتصف بالغضب الناري الملتهب وبالإيمان العميق بقدرات الطبقات العاملة وبشجاعتها ومناعتها وتصميمها ورغبتها الجارفة في التعلم . وهي لا تكف عن قراءة الكتب الاشتراكية والثورية .

ويســـجل الأديـــبان أيـــزمان و يوشكفتش انتصار الشباب وفوز الأجيال الصاعدة ويعطينا الاسكتش الذي كتبه يوسكفتش بعنوان " ايلي " مثلا على ذلك حيث نقرأ عن فاضل ذلك النجار الجاد الحزين وابنه ايلي وامه استر . والابن مصـــدر سعادة غامرة لوالديه . وكم كانت فرحة الأم بابنها عظيمة وهي تراه يسهر الليالي وينكب على القراءة . واقتنعت الأم بأن ابنها الشاب الذي تتحسر علـــى رحـــيله سوف يعود كي يقود حركة التحرير – تحرير الجثث الحية . وابـــنها الثائر لم ير أمام ناظرية غير صورتين ماثلتين هما صورة الظالمين

وصورة المظلومين . وانحصر تفكير هذا الشاب في ادخال السعادة في قلوب بني جلدته وآمنت الأم بأنه سيخفف من أوجاعهم وأحزانهم. وقد برع الكاتبان أيــزمان و يوشــكفنتش في تصوير مشاعر الرقة والحنان التي يحملها الآباء والأمهات لأبنائهم الثائرين الذين يضحون بأنفسهم من أجل التخفيف عن عذاب بقــية الأمهــات . ويخــتلف الآباء والأمهات هنا في أدب كل من أيزمان و يوشكفنتش في أنهم يتفهمون دوافع ابنائهم إلى الثورة وإكبارهم لهذه الدوافع بعد أن كــانوا يــزورون عــنهم ويخاصموهم . فهم هنا يشفقون عليهم ويقتنعون بســلامة الطــريق الذي سلكوه ويتمنون لهم التوفيق والسداد فيما هم عازمون عليه .

عــنى أيــزمان بتصــوير الصراع الذي دار رحاه بين الأجيال اليهودية الأكبر سنا والأجيال الأصغر سنا وخاصة لأن اخاه الأكبر جريجوري – وهو صــاحب مكتــبة لبيع الكتب – تم نفيه إلى سيبريا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر بسبب تورطه في إثارة الجماهير . ألف ايزمان مسرحية بعنوان " شــجيرة العلــيقة " ضمنها عميق مشاعره . ويختلف يوشكفنتش في أدبه عن ايزمان فهو يركز في تصوره على الجماهير اليهودية ويضعها في المقدمة في حيــن أن أيــزمان يرســم صورة لبطل إرهابي منتقم . ويصور ايزمان في مسرحية " شجيرة العليقة " عاملا يهوديا ينتقم للمظلومين ويثأر لهم وتحيط به هالــة من البطولة وترتسم على وجهه امارات الهلاك المحتوم . يقول العامل الــثائر فــي هذه المسرحية إلى ابن صاحب العمل : " يجب هنا الكلام بنبرة مرتفعة وبقوة حتى ترتعد فرائص الجميع . أما إذا تكلم الإنسان بصوت ناعم خفيض وكان كلامه مجرد همس فالأجدر به أن يصمت صمتا مطلقا " .

وتتميز مسرحية ايزمان " شجيرة العليقة " بقدرتها الواضحة على تحريك المهج والأفئدة . ويصدر حكم الإعدام على الابن الثائر فلا يفت هذا في عضد الأم بــل تعلن إيمانها العميق بأن الشمعة التي أوقدها ابنها لن تنطفيء أبدا ... ورغم المشاعر الحزينة التي يكابدها والده العجوز فإنه يدرك أن موت ابنه لن يذهب هباء منثورا فتحقيق العالم الجديد سوف يكلف ثمنا باهظا. ولكن صدمة فقــدان ابنه تذهب بعقله . وتتحدث المسرحية عن شجيرة العليقة التي اندلعت فــيها النــيران والتي رآها النبي موسي على جبل حريب في سيناء . وعندما

اقــترب موسى من هذه الشجيرة المشتعلة تأكد له انها سوف تظل مشتعلة إلى الأبد لأنها تجسد روح المظلومين الساخطين على الظلم الواقع عليهم .

وأيضا نشاهد في القصة التي ألفها أيزامان بعنوان " الجليد العائم " يهوديا وخــط المشيب شعره وهو يستمع في ألمه إلى كلمات ابنه الحارقة بعد عودته مــن منفاه في سيبريا . وكذلك إلى كلمات ابنته التي تبشر بالصهيونية . وفي مــبدأ الأمر يتألم الوالدان لأن ولديهما يسلكان سبيل الثورة ويبتعدان بفكرهما عــن جذورهما . ولكنهما لا يلبثان أن يتعايشا مع هذه الحقيقة الأليمة وهي أن الأبــناء ينــتمون إلــى عالم مختلف عن عالم الآباء . ونحن نطالع في قصته " العودة إلى الوطن " أحداثا مشابهة .

لقد ركز كتاب الثمانينات اليهود اهتمامهم على الفقراء والمعدمين كما ان كــتاب التسعينات أدانوا طبقة الأثرياء التي تستغل الضعفاء وتهضم حقوقهم. وعــندما صــور ايزمان أبطاله في أعماله " الكفن " و " أعداء " و" الزوجان كراسوفتيسكي " و " قصة جريمة " و " شرود الذهن في الأحلام " و" الحلفاء " و " الحــزن " اخــتارهم من الفقراء والكادحين الذين احبهم وأعلى من شأنهم واحتقر الطبقة التي تستغلهم . وليس ايزمان وحده الذي ينتصر للفقراء فالأديب يوشكفنش يفعل نفس الشيء في مسرحياته " الجوع " و " الملك " وفي قصصه " الــيهود " و " رجل " و " الترزي " ويصف لنا هذا المؤلف حشدا من عمال المصانع وعاملاتها مثل الترزية وصانعى الأحذية والخياطات والممرضات . يقــول المؤلف أن المدينة تستغل فقرهم وتستنزف قواهم فضلا عن أنها تحول نصف بناتهم إلى ساقطات .

وأشــارت الاتهامــات العنــيفة التي وجهها يوشكوفتش إلى البرجوازية الــيهودية سخط بني جلدته عليه . وعندما قدمت مسرحيته " كوميديا الزواج " التــي رسمت صورة كاريكاتورية مضحكة للبورجوازية اليهودية على مسرح كيــيف اســتقبلها اليهود أنفسهم بالملامة والتقريع . وطلب منه بنو جلدته أن يقتصــر على تصوير معاناة العمال اليهود . فدافع المؤلف عن نفسه بقوله أنه يراعــي الصدق الفني في كتاباته . وقد تعرض كاتب آخر هو أندريه سوبول لهجوم مماثل عليه فدافع هو أيضا عن نفسه باعتبارات الفن ومتطلباته .

ويـــبدو أن ايزمان كان يتمتع بموهبة أدبية أكبر مما كان يوشكفتش يتمتع بهـــا . فضـــلا عـــن أن موهبـــته الحقيقية لم تتجل في تصوير نحيب اليهود ونشيجهم على الفظاعات التي شاهدوها في أيامهم السود مثلما نرى في قصته " قلب الكينونة " و " الطوفان الدموي " ولكن أفضل كتاباته تجمع بين الفكاهة والدفء والطابع الغنائي مثلما نرى في أعماله " زميل الموطن " و " في أرض أجنبـــية " و " العودة إلى الوطن " حيث عبر المؤلف عن حبه لبلاده وارتباطه الشديد بها .

وفـــي أعمالـــه الأدبية اللاحقة ابتعد أيزمان عن تصوير الحياة اليهودية وازداد اهـــتمامه بتصـــوير الحياة في الخارج مثلما نجد في قصتي " في بلاد أجنبية " و " البوهيمي " وحاول مثل تورجنيف في قصتين أكثر طولا بعنواني " بـــدون ســـماء " و " بعد العاصفة " أن يصور الحياة والتجارب بين المثقفين الروس بعد ثورة ١٩٠٥ . ولكنه فشل أن يضيف شيئا جديدا أو يقول شيئا ذا بـــال . وكـــان أبطاله المفضلون في تلك الفترة هم الفنانون البوهيميون الذين عـــرف حياتهم عن كثب أثناء دراسته للفن في باريس . وقد تأثر أسلوبه في الكـــتابة بفـــن الرسم لدرجة أن المناظر الطبيعية التي يصورها في أدبه تبدو وكأنهـــا لوحـــات في معارض بطرسبرج . والجدير بالذكر أن تاريخ الأدب الروسي يغفله رغم ذيوع صيته أثناء حياته .. وتحمست له صحيفة نوفو فرميا فكالـــت له المديـــح والثـــناء رغم موقفها المعادي للسامية . ويذكر أن أعمال ايزمان تأثرت بعدد من الأدباء الروس فقصتا "بعد العاصفة" و " بدون سماء " تـــنمان عن تأثره بتورجنيف ومسرحية " الزوجان " تدل على تأثره بجوركي كما أن أعماله " قصة جريمة " و " شرود الذهن في الأحلام " و " الأكل حتى الشـــبع " تدل على تأثره بتشيكوف . ورغم أنه استقى بعض موضوعاته من هـــؤلاء الكـــتاب الـــروس فإنـــه ظل يحتفظ بفرديته وبمذاقه الخاص . وتدل مسرحيته " شجيرة العليقة " على أن قلب ايزمان ظل عالقا بالثورة رغم نفوره من فظائعها .

ويخـــتلف أدب يوشـــكفتش عن أيزمان اختلافا كبيرا فإلى جانب غنائيته المخـــتلفة يحدثـــنا يوشكفتش عن ضرورة اتحاد اليهود كما أنه يعني كأبطال رواياتـــه بتصوير الجماهير والحشود الغفيرة . وكل موضوعاته مستمدة من الحضر والمدن الكبيرة ، وليس من الريف فهو خبير في وصف هذه المدن .

[illegible] مسرحية [illegible] ومباشرة [illegible] عال من فوق
[illegible] في [illegible] يوشكيفيتش في أدبه الفقر
والجوع والعوز الذي يدفع بالشخصيات اليهودية [illegible] إلى احتراف البغاء .
فمثلا [illegible] إذا [illegible] تقترب من الإثارة والتحريض على إزاحة المظالم
الاجتماعية كما هو الحال في روايتيه "مغامرات [illegible]" و "اليهودي" .

ويلاحظ أن شخصيات يوشكيفيتش مختلفة في ردود أفعالها تجاه الفقر فمنهم
من يلوذ بالصلاة ومنهم من [illegible] ومنهم من [illegible] الحل في الهجرة إلى
مدينة أوروبية نائية [illegible] يوشكيفيتش على تصوير [illegible] في حياة
المدينة ويكمن [illegible] في براعته في تصوير [illegible] الإنساني
الذي [illegible] يلجأ إلى التضخيم
والمبالغة والتكرار الممل الذي يصيب القارئ [illegible] .

ومن الموضوعات التي [illegible] يوشكيفيتش [illegible] موضوع التفكك
الأسري الذي يعكس [illegible] النظام الاجتماعي [illegible] . فإحدى
شخصياته تقرر [illegible] إلى صفوف المناضلين [illegible] من أجل رفع الظلم
الاجتماعي [illegible] العائلة في
الوقت الراهن تحمل في داخلها [illegible] التفكك كما أن [illegible] المغروسة في
نفوس الأطفال [illegible] المثل العليا لم
تلفظ أنفاسها بعد [illegible] مخرج واحد فقط
من هذه الفوضى [illegible] الشعب .

ثم يستطرد [illegible] أن التفكك الأسري ليس سوى الوجه
الآخر للتفكك [illegible] . والجدير بالذكر أن [illegible] في بعض
أعمال يوشكيفيتش تترك أثرا [illegible] عميقا في نفوس القراء .

الفصل الثاني عشر :

يقول روجاتشفسكي في هذا الفصل الأخير أن الكتاب اليهود كتبوا باللغة الروسية عن حمامات الدم الذي سال في المذابح التي حدثت في شهر أكتوبر عام ١٩٠٥ ففي أقل من نصف هذا الشهر اندلعت ٦٩٠ مجزرة انتهت بقتل اكثر من ثمانمائة ألف يهودي وتعرض للنهب والسلب أكثر من مائتي ألف شخصيا . وهذا ما تناوله الأديب أنكي في أعماله " ضحية المساء " و "انطباعات المجازر اليهودية " والأديب يوشكفتش في أعماله " اليهود " و " بانوراما " و " أبانا الذي في السموات " وأيزامان في " قلب الكينونة " و " الطوفان الدموي " و " الزوجان كيراسوفنسكي و " زملاء الوطن " و " في أرض أجنبية " و " العودة إلى أرض الوطن " والأديب ن . م أوسيبوفتش في " فيجيل " و " الصيد " و " لأجل ماذا " و م. ريفكين في " تدنيس الأرض المقدسة " إلى جانب أعمال كل من ديرمان وجابوتنسكي . ولكن أكثر الأعمال تأثيرا في نفوس الناس كانت ترجمة جابوتنسكي إلى الروسية للعمل الذي نشره بياليك عام ١٩٠٣ بعنوان " مدينة المجازر " . علما بأن الأديب انسكي قام بزيارة مدينة بياستوك مباشرة بعد وقوع المجازر لمعرفة ما حدث على الطبيعة .

ويذهب أيزمان في روايته " الطوفان الدموي " إلى أن الروس المتعاطفين والشرفاء تأخروا في الدفاع عن ضحايا المجازر . ولكن احقاقا للحق يجب أن نذكر أن عددا من الكتاب أمثال كورلنكو وجوركي وليوبيد آندريف وبونين وغيرهم بادروا بالدفاع عن هؤلاء الضحايا . ولكن جميع المحاولات التي بذلت للدفاع عنهم كانت متناثرة ومنعزلة . والأدهى أن عامة الناس وقفوا مكتوفي الأيدي يلتزمون الصمت إزاء ما حدث . ويصور يوشكفتش هذا الصمت في قصته " اليهود " .

وعقب المجازر التي وقعت في روسيا في الفترة من ١٩٠٣ حتى ١٩٠٦ لجأ اليهود إلى الهجرة الجماعية منها . فبعد عام ١٨٨١ انتعشت الهجرة كما انتعشت الدعوة إلى الصهيونية . فتطلع الشاعر والمناضل الصهيوني ل. ب. جاف إلى أرض الميعاد . وأيضا كتب جابوتسكي الغاضب مقالاته النارية المفعمة بجب صهيون ويرجع إليه الفضل في تعريف المثقفين الروس

بـترجمات القصائد الملتهبة التي كان بياليك قد نظمها باللغة العبرية إلى اللغة الروسية . وتتغنى هذه القصائد بحب فلسطين . نشر الشاعر الصهيوني جاف ديوانـا من الشعر بعنوان " بجوار مياه بايلون يجمع بين دفتيه عددا من أروع القصائد في الأدب التي أشادت بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

وتمخضت المجازر اليهودية التي وقعت في روسيا في الفترة من ١٨٩٠ حـتى ١٩٠٥ عن نشأة حركة راديكالية ثورية بين اليهود ضمت إلى صفوفها كـلا من العمال والمثقفين التقدميين . فردت عليها الحكومة الروسية بقمعها والتنكيل بها وتشريد الثوار وحبسهم ونفيهم . وقد عالج ن. م. أوسبوفتش في ادبه تمرد اليهود على الظلم في المجتمع الروسي . علما بأن أوسبوفتش نفسه تعرض للسجن والنفي . غير أنه تمكن من خلال تجواله أن يجمع مادة ضافية عـن هذه المجازر الأمر الذي أضفى طابعا اجتماعيا على كتاباته كما أضفى طابعا مثاليا على أبطاله . ولكن الجدير بالذكر أن ثوار العقد الأخير من القرن التاسع عشر في روسيا لم يكونوا من النوع الحالم بل تميزوا بصبغة عملية . ويعيـب روجاتشفسـكي على أوسبوفتش افتقاره إلى الشكل الفني أو الصياغة الأدبـية المناسبة لأفكاره وملاحظاته المثيرة للاهتمام باستثناء بعض القصص مـثل " الملـك " و " وسط حفلة صاخبة " و " بجوار الماء " وروايته " نافان ميمون " التي تصور حياة المثقف اليهودي الذي ليست له جذور .

وفـي الفترة بين ١٨٩٠ – ١٩٠٥ اختفت من الأدب اليهودي الروسي نغمـة الـيأس المظلـم والتشاؤم القاتم ليحل محلها دعوة اليهود إلى توحيد صـفوفهم . وبعـد ثـورة ١٩٠٥ بدأت مرحلة جديدة . فبعد أن كان الأدب الـيهودي الروسـي منصرفا إلى العمل الاجتماعي والنشاط السياسي ظهرت مجموعة كبيرة من المؤلفين الروس حاولت أن تروي بإيجاز ما حدث لليهود فـي روسـيا . ولكـن كتاباتهم فشلت في توضيح ما حدث وزادت الصورة غموضا . هؤلاء الأدباء هم م. أرتيسياشيف – أو ميرتوف – فيركهاوستنسكي – زيـنايدا جريـبوس – روبشين – الكاتب الأوكراني ف. فينشنكو . ويعتبر أندريه سوبول من الكتاب اليهود الأصغر سنا ممن عالجوا هذا الموضوع فى كتاباتهم . وقد حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة بسبب انخراطه في النشاط السياسـي . وتوخي سوبول الواقعية المرة أو الواقعية التي لا ترحم في سعيه

إلى رسم صورة لما حدث . وقد عالج سوبول هذا الموضوع في قصة قصيرة بعنوان " القانون " شبيهة بقصة روبشين " الحصان الشاحب " .

وتحتل رواية " التراب " التي ألفها سوبول عام ١٩١٦ مكانة خاصة كما انهـا تـترك في النفس أعمق الأثر . ويتناول فيها هذا المؤلف مجموعة من الإرهابيين تضم بعض المثقفين اليهود وعاملا روسيا . ويناقش سوبول في روايـته العلاقـة التي تربط بين الطبقة المثقفة الروسية الثورية وزيادة وعي الطـبقة العاملـة بنفسـها وبين نشاط الروس السياسي بوجه خاص والشعب الـيهودي بوجه عام . ويرسم سوبول صورة لشخصيات يؤرقها الشك في كل شـيء بسـبب ما تتعرض له من خسف واضطهاد . ويؤكد سوبول أن محنة المثقفيـن الروس لا تكمن في شعورهم بالاغتراب وبأنهم مجرد ذرات تراب تتقاذفها الرياح ولكنها تكمن في اقتلاع جذورهم التي تربطهم بجميع المظلومين ليس في روسيا وحدها ولكن في العالم كله .

ويذكـر أن الـتجارب المريـرة التى مر بها سوبول قادته إلى اكتشاف مشاعر معادية للسامية كامنة فى قلب الحركة الثورية و ان هذه المشاعر تطفو على السطح فى الأوقات الحرجة كما يتجلى فى نهاية رواية "تراب" . ويشيع فى الرواية جو من الكآبة حيث تبدو الحياة شيئا مروعا وفظيعا . وعندما يعود اليهودي الثائر من منفاه إلى روسيا يذرف الدمع سخينا عندما يسمع الأجراس تـدق فـي الكنائس الروسية . وبوجه عام نرى الأدب اليهودي الروسي يعنى بتصـوير مآقـي الـثوار السجناء والمنفيين وهي تسكب الدمع بسبب الآلام المبرحة التي كابدوها في الغربة .

وينتهي كتاب ف. لفوف روجاتشفيسكي بالإشارة إلى أهمية العدد ١٤ – ١٥ مـن مجلة " الحياة اليهودية " الصادر في ٣ أبريل ١٩١٦ بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على نشر الشاعر اليهودي بياليك لقصائده باللغة العبرية. فقد اجتمع حشد من الكتاب الروس وكتاب اليديش اليهود لتكريمه. وتضم هذه الكوكبة من المحتفان أدباء روس ويهود هم س. أبراموفتش (المعروف باسم موشـيه سـفوريم) – ل. ب. جاف – س. أ. أنسكي – م. أو جيرشنزون – فياتشسـلاف ايفـانوف – فـيودور سولوجوب – أندريه سوبول – الكسندر كوبريـن – فلاديمـير كورولنكو – إيفان بونين وماكسيم جوركي . وترجع

أهمــية هذه الاحتفالية إلى أنها جمعت أجناسا مختلفة كان شاغلها تقوية عرى التضــامن بيــن الروس واليهود والتعبير عن وحدة الأخوة الإنسانية والفرجة بقدوم عهد جديد من الحرية .

الفصل الثاني

موقف دستيوفسكى من اليهود

تــربع الروائــي الروسي الفذ فيودور ميخلوفيتش دستيوفسكى (١٨٢١-١٨٨١) عرش الأدب الروسي في القرن التاسع عشر . واجتذب الأنظار إليه بعد أن ألف رواية " المساكين " عام ١٨٤٥ . ورغم عبقريته الروائية التي لا تــبارى فقــد ازور عنه النظام السوفيتي السابق ردحا من الزمن استمر لمدة عقديــن كاملين . ففي عام ١٩٣٥ كاد السوفيت أن يسدلوا الستار على أعماله حــتى عــام ١٩٥٦ وهــو العام الذي يهاجم فيه خروتشوف ستالين بضراوة محطما مبدأ عبادة الفرد . وبسبب حرصهم على عدم الإساءة بشكل علنى إلى الأقلية اليهودية التي تعيش في روسيا لجأ السوفيت إلى حظر أية دراسة تتناول الــيهود فــي كــتابات دستيوفسكي . فضلاً عن أنهم تعمدوا عند نشر تراث دستيوفسكى حذف بعض الخطابات والإشارات التي تعالج المشكلة اليهودية في هذا التراث .

وفي عام ١٩٥٦ أعاد السوفيت إلى دستيوفسكى شيئا من الاعتبار . وزاد مــن اهــتمام الباحثين السوفيت بأدبه اكتشاف عدد كبير من الوثائق والرسائل والمخطوطــات التــي سطرها مؤلفنا والتي تلقى الضوء على حياته وأدبه . ويذهب الباحث دافيد آي جولدشتين إلى أن هذه الوثائق ساعدته مساعدة كبيرة فــي تفهــم حقيقة موقف دستيوفسكى من اليهود والمشكلة اليهودية . فقد كان شــديد الاندهاش في بادئ الأمر من أن يكون أدبه الروائي بمثل هذا القدر من العــداوة الضــارية للــيهود . غير أنه بعد أن توفر دافيد آي جولدشتين على دراســة كــتاباته الصحفية والوثائق المكتشفة حديثا اتضح له أنه يعلق أهمية كبــيرة على المشكلة اليهودية التي كرس لها فصلا كاملا في كتابه " يوميات كاتــب ". والغريــب أن الــنقاد الروس قبل قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧ تجــاهلوا هذا الأمر باستثناء نفر ضئيل للغاية من الأدباء مثل ماكسيم جوركي

وديمتري مينركوفسكي . ثم استمر النقاد السوفيت في تجاهل هذا الموضوع باستثناء بعض الإشارات العابرة التي سطرها الأدباء الروس المهاجرون من الاتحاد السوفيتي .

ورغم هذا التجاهل فقد كانت هناك بعض الاستثناءات منها أن دافيد زاسلافسكي نشر مقالا بعنوان " دستيوفسكى واليهود " في صحيفة "جوريش هيرالد " كما أن الناقد الروسي ليونيد جروسمان نشر ملحقا بعنوان " دستيوفسكى والدين اليهودي " في خاتمة الكتاب الذي سطره دستيوفسكى بعنوان " اعتراف يهودي "

والجدير بالذكر أن الفترة السوفيتية من ١٩٢٩ حتى ١٩٣٥ شاهدت قدرا من السماحة في إجراء الدراسات النقدية الخاصة بدستيوفسكى طالما أنها كانت تشير ولو بطريقة واهية إلى الجوانب الرجعية في أدب دستيوفسكى كما أن الناقد دوليتين تصدى للدفاع عن دستيوفسكى ضد اتهام جروسمان له بمعاداة السامية .

بدايات دستيوفسكى الأدبية :

قبل أن يلفت دستيوفسكى الأنظار إليه بتأليف رواية " المساكين " كان قبل ذلك بعامين قد نشر ترجمة لرواية بلزاك " يوجينيه جرانديه " إلى اللغة الروسية في مجلة تحمل عنوان " الريبرتوار والبانثيون " . وقبل أن يستقر دستيوفسكى على الشكل الروائي كوسيلة للتعبير الأدبي أثير إلى قلبه نراه يقدم على تأليف ثلاث مسرحيات . ولكنه لم يكمل المسرحيتين الأوليين وهما " ماريا ستيوارت " و " بوريس جودونوف " اللتان تنمان عن شدة تأثره بكل من الأديب الألماني شيلر والأديب الروسي بوشكين . ولم يشر دستيوفسكى على الإطلاق إلى هاتين المسرحيتين . ولعل الباحث ريزنكامف هو الوحيد الذي أشار إليهما .

اما مسرحيته الثالثة التي تحمل عنوان " اليهودي المقتر " فقد أشار إليها دستيوفسكى نفسه في الخطاب الذي أرسله إلى أخيه ميخائيل في يناير ١٨٤٤. يقول الناقد الكسييف إن دستيوفسكى اعتقد أن تمثيل هذه المسرحية على خشبة المسرح هو السبيل إلى نجاته من براثن الفقر والعوز . ويضيف هذا الناقد أن

مؤلفها حذا حذو الأديب جوجول وأنه تأثر باليهودي الذي صوره جوجول في روايـــته " تـــاراس بولـــبا " غـــير ان البعض رأى أن اليهودي الذي صوره دستيوفسكي في مسرحيته مستمد من صورة اليهودي التقليدية كما درج الأدب الروســـي على تصويرها في النصف الأول من القرن التاسع عشر فضلا عن أن هـــذه الصورة ليست سوى تكرار لصورة اليهودي التي درج دستيوفسكي نفســـه على رسمها في اعماله الروائية الأخرى مثل شخصيتي عيسى فوميش بوشـــتين في رواية " بيت الأموات " ولا ياشين في رواية " الذي به مس من جنون " وغيرهما من الشخصيات . ويجدر بالذكر أن هذا الأسلوب النمطي في تصوير اليهود ليس مقصوراً على أدب دستيوفسكي وحده فهو موجود في ادب كل من بوشكين وليرمنتوف ثم في آداب تورجنيف ونكراسوف وليسكوف الخ بـــل حـــتى في ادب تشيكوف نفسه . وفي جميع هذه الحالات نجد أن صورة الـــيهودي تدعـــو دومـــا إلى السخرية والزراية والاستهزاء . فضلا عن أنها صورة قبيحة ومنفرة فهو إما جاسوس أو خائن أو مخبر أو لص أو مراب أو نصـــاب . وهـــو أبـــدا إنسان طماع متكالب قذر وخانع وحقير إلى آخر هذه الصفات . ومن ثم فليست هناك أدنى غرابة في أن يصوره دستيوفسكي على هـــذا الـــنحو ، وبذلـــك يسير على نفس الدرب الذي سار فيه من سبقوه من الأدبـــاء. ولكن الغريب أن يبدأ دستيوفسكي حياته الأدبية برسم صورة لليهود الذيـــن لـــم يعرفهم أو يخالطهم عن كتب مثلما عرفهم وخالطهم جوجول الذي لاحظ في موطنه الأصلي أوكرانيا العداوة الشديدة بين أهل أوكرانيا واليهود أو مـــثل بوشـــكين الـــذي عرف اليهود عن كثب أثناء إقامته في كل من أوديسا وكيشـــينيوف ومن خلال احتكاكه المباشر مع الجاليات اليهودية الكبيرة العدد هناك .

وبـــناء علـــى مـــا تقدم يمكن الاستدلال أن دستيوفسكي لم يرسم صورة الـــيهودي فـــي المسرحية المشار إليها من خلال الملاحظة أو التجربة الحية والمباشـــرة . ويكتـــنف الغمـــوض مسرحية دستيوفسكي عن اليهود حيث أن الدارســـين عجزوا عن معرفة او استنتاج المكان والزمان اللذين حدثت فيهما أحداثها .

لقد اهتم دستيوفسكي منذ البداية باستقصاء قوة المال وممارسة الربا وهو الأمـــر الذي يتكرر في أعماله الأدبية اللاحقة . ويتمثل الموضوع الآخر الذي

شغل باله في وضع المظلومين والمطحونين والممتهنين في الأرض . ومن المحتمل أن قراءته لروايات بلزاك كشفت له عن الفظائع الناجمة عن عبادة المال مثلما يعبده اليهود . ومما زاده إدراكا لهذه البشاعات أن فقره المدقع في مبدأ حياته دفعه إلى الالتجاء إلى المرابين الذين استغلوا حاجته إلى المال أسوأ استغلال . وتتضمن أولى رواياته وهي " المساكين " بعض الشخصيات من غير اليهود النهمة إلى جمع المال .

ويتضح لنا من خطاب سطره دستيوفسكى بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٤٥ أنه كان ساخطا على مسرحيته راميا لها بالقصور كوسيلة مناسبة للتعبير الأدبي. وواصفا لها بأنها طفولية ولا معنى لها .

وانصرف دستيوفسكى عن اليهود ولم يتطرق إليهم حتى نشر روايته " بيت الأموات " وفي الفترة بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٦٢ حيث ظهر اهتمامه الواضح بالشخصية اليهودية والمشكلة اليهودية . في حين أن إشارته إلى اليهود قبل ذلك كانت عابرة ومتناثرة ومرادفة للشتيمة كما هو الحال في روايته " القرين " . فضلا عن أن فكرته عن اليهود كانت سيئة للغاية فهم في نظره بارعون في النصب والخداع مثلما نجد في النبذة التي كتبها عن الخداع في ١١ مايو ١٨٤٧ في أوراقه " سجلات بطرسبرج " . وأيضا نطالع في الرواية التي ألفها عام ١٨٤٩ قبل نفيه إلى سيبريا بعنوان " نتوشكا زفانوفا " أن عازف كمان يهوديا شهيرا وصل من أوربا الغربية إلى مدينة بطرسبرج وأن وصوله كان سببا في حدوث كارثة . وأغلب الظن أن دستيوفسكى استمد صورة اليهودي المشار إليه من عازف الكمان النمساوي اليهودي هنريش ويلهلم إرنست (١٨١٤ – ١٨٦٥) الذي أقام عددا من الحفلات الموسيقية الخيرية الناجحة في مدينة بطرسبرج في شتاء عام ١٨٤٦ – ١٨٤٧ . وهي حفلات وصفها دستيوفسكى في ثلاث مناسبات في " سجلات بطرسبرج " عائبا على الروس بني جلدته شدة احتفالهم بالفنانين المستوردين من الخارج وعدم اكتراثهم بالمواهب الروسية المحلية وازورارهم عنها .

وبعد ظهور الحلقة الأخيرة من رواية دستيوفسكى " نتوشكا زفانوفا " في مجلة " مذكرات الأوطان " الصادرة ٥ مايو ١٨٤٩ ألقت السلطات القيصرية

القبض عليه بتهمة التآمر ضدها وحكمت عليه بالإعدام ثم عادت فخففت الحكم إلى النفي في سيبريا .

رواية بيت الأموات :

أمضـــى دستيوفسكى أربعة أعوام من الأشغال الشاقة في أومسك بسيبريا أعقبـــتها أعـــوام من الخدمة العسكرية الإجبارية في سمينالاتنسك . وتميزت هاتان الفترتان في حياته بإنتاجه الأدبي الغزير وقبل تسريحه من الجيش كان قـــد نشـــر ثلاثـــة أعمال قصصية هي " البطل الصغير " و"حلم العم"و"صديق العائلـــة" .و جميع هذه الأعمال القصصية صدرت عشية عودته إلى الغاصمة الروســـية بطرســـبرج نحـــو منتصـــف شـــهر ديسمبر عام ١٨٥٩ . ولكن دستيوفسكى لفت الأنظار إليه عندما نشر روايتيه "بيت الأموات " التي بدأها عـــام ١٨٥٥ وانـــتهى مـــنها بيـــن عامـــي ١٨٦٠ و ١٨٦٢ و " المهانون والمجـــروحون " الصادرة عام ١٨٦١ . وقد بلغ اعجاب ليو تولستوي برواية " بيـــت الأموات " حدا جعله فيما بعد يصفها بأنها " أفضل عمل أدبي في كل الأدب الجديد بما في ذلك بوشكين نفسه . "

يرســـم لنا دستيوفسكى في رواية " بيت الأموات " بالتفصيل ولأول مرة شخصـــية يهـــودي اســـمه ايزاي فورميش بوشتين وهي شخصية لم ينسجها المؤلـــف من خياله بل استمدها من اليهود الذين عرفهم في منفاه في أومسك . وتدل سجلات المنفى أن هذه لشخصية مستمدة من شخصية حقيقية لجواهرجي سجين قتل وأنه تلقى خمسة وستين جلدة تركت في جسده علامة أو وصمة كما تقـــول الـــرواية . وتدل سجلات المنفى أيضا على أن هذا السجين ينتمي إلى الطـــبقة المتوسطة الدنيا وأنه تحول إلى الديانة الأرثوذكسية اليونانية . ويعدد الـــراوي لأحـــداث الرواية – وهو يمثل دستيوفسكى نفسه – حرف المساجين فيقول أن البعض يعملون برتق الأحذية والمراهنات وصناعة السجاد والمفاتيح والنحت إلى جانب التزرية ويضيف أن يهوديا يدعى إيزاي بوشتين كان بينهم. وهو جواهرجي ومراب يستغل حاجة المعوزين . والجدير بالذكر أن اليهودي المرابـــي تقليد راسخ ومألوف في الأدب دأب الأدباء على تصويره على نحو مـــنفر وكـــريه . غـــير أن بعض النقاد يرون أن دستيوفسكى لم يشأ تصوير

الـــيهودي المرابي برمشتين بهذه الصورة القميئة كما انه يوحي بأن المرابين لعبوا دورا إيجابيا وبناء في حياة الفقراء والمعوزين .

والذي لا شك فيه أن دستيوفسكي وجد نفسه منجذبا نحو شخصية المرابي اليهودي إيزاي فورميش فقد استفاض في معالجته ولكن بعض الدارسين ذهب إلـــى أن صورة اليهودي في" بيت الأموات " تفتقر إلى العمق والبعد الإنساني بـــل هـــي تثير حب الاستطلاع عند المؤلف فحسب . ويذكر أن غالبية النقاد الذين اهتموا باستقصاء وتحليل صورة اليهودي في" بيت الأموات " كانوا من اليهود أمثال أ. ج. كوزنفيلد – دي آي زاسلافسكي – ل.ب. جروسمان – أ. ز. ستنبرج – ب.أ. برلين – جوشوا كونتيز – روبرت ل. جاكسون .

والرأي عند كوزنفيلد أن دستيوفسكي واحد من أبرز الذين يمثلون عداوة الســـامية وأنه عدو لليهود بدأ بالزراية بهم وانتهى بكراهيتهم والحض عليها . ويذهـــب زاسلافســـكي إلى أن مؤلفنا لم يخف أبدا مقته لليهود الذين يظهرون كثيرا في خلفية أعماله . غير أنه يعتبر أن هذا الأمر لا يشكل أية أهمية تذكر بالقـــياس إلـــى مجمـــل اهـــتماماته . ويرى جروسمان – الذي سار كل من ســـتيانبرج وبرنيـــن وعلى دربه – أن عداوته للسامية ظاهرة معقدة . يقول جروســـمان في هذا الشأن : " لا شك أننا نشوه الحقيقة حين ننكر أية اتجاهات مناهضـــة للســـامية عـــند دستيوفسكي . ولكنه لا يمكننا أن نلخص موقفه من الـــيهود بطـــريقة بســـيطة أو قطعية . " ويعتقد كونتز أنه على الرغم من أن دستيوفســـكي واحـــد من أكثر الكتاب أصالة في العالم فإنه عادي وتقليدي في أفكاره عن اليهود . . ويسعى جاكسون أساسا في دراسته المتعمقة عن " بيت الأموات " إلى التدليل على وجود وجه شبه بين شخصية اليهودي الذي عرفه فـــي المنفي وشخصية السجين اليهودي الذي ورد ذكره في الرواية . والرأي عنده أن دستيوفسكي استطاع أن يرسم صورة روائية بارعة لايزاي " ولكنها صورة مرسومة في إطار التحيزات الشعبية والتقاليد الأدبية المتعارف عليها".

ويسعى بعض النقاد مثل زاسلافسكي إلى التلطيف من عداوة دستيوفسكي للـــيهود . ويحدثنا جروسمان عن امتلاء رواية دستيوفسكي " يوميات كاتب " بالكراهـــية التقلـــيدية للـــيهود ولكـــن يضـــيف أن مؤلفها يصورهم في إطار كاريكاتوري وعلى نحو هازل وفكه .

وفـــي حيـــن يقول شتنبرج أن شخصية الرواية إيزاي اليهودي تخلو من الجوانـــب الإنســـانية نرى الناقد برلين يقول أن دستيوفسكى كان بمقدوره أن يصوره بطريقة تثير الاشمئزاز ولكنه أثر أن يصوره وهو يصلي بحرقة حتى يدلـــل بذلـــك على أنه ليس مرابيا جشعا بل إنسانا له روح ونفس وأنه وريث تـــراث تلـــيد خلفه أيوب الصابر على المكاره والأنبياء . كما أنه الأمر الذي يوحـــي بوجـــود أبعاد دينية مستقاة من الكتاب المقدس في شخصيته اليهودي إيـــزاي . غير أن كونتيز يعتقد أن دستيوفسكى اعتبره وضيعا وقذرا وحقيرا وجشـــعا ومثيرا للضحك . وينحى جاكسون باللائمة على دستيوفسكى لأنه لم يكشـــف الـــنقاب عـــن حـــياة اليهودي ايزاي فورميش المأساوية واكتفى فقط بتصوير الظاهر المسلى واللاهي فيها .

وفي الفصل الرابع من رواية " بيت الأموات " يرسم دستيوفسكى بشيء مـــن التفصـــيل صـــورة اليهودي إيزاي فورميش من وجهة نظر المساجين البولنديين الذين يكرهون الروس من كل قلوبهم . فيقول أن هؤلاء البولنديين لم يحبوا أحداً من المساجين مثلما احبوا ذلك اليهودي لأنه كان مصدر تسلية لهم. وأيضا وجده المساجين الآخرون مضحكاً ومثيراً للتسلية .

ويرى النقاد أن مؤلفنا تأثر في رسمه لشخصية اليهودي في رواية " بيت الأمـــوات " بشخصية اليهودي في أدب جوجول الروائي . ولكن هذا لا ينفي وجـــود تبايـــن واضـــح بيـــن يهودي جوجول ويهودي دستيوفسكى . وتأثر دستيوفسكى بجوجول ليس بالأمر المستغرب فقد توفر دستيوفسكى على قراءة أعمال جوجول في الفترة التي ألف فيها " بيت الأموات " و " صديق العائلة ". وبمجرد وصول يهودي دستيوفسكى ايزاي إلى السجن يقترب منه أحد النزلاء مدعـــيا أن لديـــه بعض البنطلونات القديمة التي يريد رهنها عنده نظير روبل واحد من الفضة . فتدب الحياة في أوصال اليهودي وتبدأ مساومة مع السجين. ويـــرفض اليهودي إعطاء السجين روبلا بأكمله ويعرض عليه سبعة كوبكات فقط واعتبار الثلاث كوبكات الباقية بمثابة فوائد. ويحتج الراهن على ضخامة هـــذه الفـــائدة في العام الواحد . ويوضح له اليهودي أن هذه الفائدة عن شهر واحـــد ولـــيس عن عام كامل . عندئذ يقول السجين لليهودي . : " يا لك من مراب يهودي جشع " .

كان جميع السجناء يحملون نوعا من المودة لايزاي فورميش لأنهم كانوا يستدنيون منه المال . وهم كانوا لا يحملون !ء أية موجدة ولا يرغبون في الإساءة إليه . فقط كانوا يتخذونه مادة للتسلية والتقريع والمداعبة . فهم يداعبونه كما يداعب المرء كلبا صغيرا أو بغبغانا . حتى الشتائم التي تنهمر من فم السجين لوتشكا على رأس اليهودي لم تكن تهدف إلى جرح مشاعره فيما يرى بعض النقاد . يقول السجين لوتشكا مداعبا السجين اليهودي :

- أيها الحقير الملعون
- أنا حقير كما يحلو لك أن تسميني
- أيها اليهودي الحقير
- أني لا اكترث بما تقول . ربما أكون حقيرا ولكني غني ولدى المال
- لقد بعث المسيح
- فلنفترض أن هذا صحيح
- برافو يا إيزاي فورميش . هذا رائع ! لا تمسوه فليس لدينا سواه. وهنا انفجر السجناء في الضحك .
- أيها اليهودي لسوف تذوق طعم السوط وسوف نرسلك إلى سيبريا
- أنا الآن في سيبريا .
- سوف يرسلونك إلى أبعد من ذلك
- وهل الرب موجود هناك !
- نعم اطمئن فهو موجود هناك .
- هذا يكفيني . طالما أن الله موجود والمال وفير فإن الحياة تصبح هانئة في أي مكان .

إن شخصية السجين اليهودي إيزاي فورميش تثير الضحك والاستهزاء عندما يصورها المؤلف على نحو كاريكاتوري . يقول الناقد جروسمان إن " بيت الأموات " رواية تخيم عليها الكآبة والقتامة باستثناء ذلك الوصف الكاريكاتوري المضحك لايزاي ، وهو يراعي السبوت بطريقة خاطئة تغاير ما درج اليهود على فعله فيها . وتتضح صورة اليهودي الفكهة وهو يمارس طقوسه اليهودية ويتمتم بألفاظ غامضة كما انه ليس مخلصا في صلواته بل يؤديها بهدف إمتاع المساجين كما لو كان يمثل مسرحية أمام جمع من النظارة.

وفـــي اليومـــيات " التي سطرها دستيوفسكى في مارس ١٨٧٧ بعنوان " المسألة اليهودية " نراه يدحض الاعتقاد السائد بأن الروس يمعنون في إذلال اليهود والتنكيل بهم بقوله إنه لا يدعى معرفة اليهودية عن كثب ولكنه على ثقة مـــن أن الـــروس لا يحملون أية كراهية مسبقة لليهود ولا يعتبرون اليهودي مجـــرد يهـــوذا الذي خان المسيح وسلمه إلى جلاديه وهو الاتهام الذي وجهه الســـجين لوتشـــكا إلى اليهودي ايزاي . ويستمر دستيوفسكى في إنكار عداوة الـــروس لليهود . فيقول إن القدر شاء له أن يخالط اليهود في المنفى ويعيش معهم في نفس الثكنات وينام معهم على نفس الأسرة . ويضيف إلى ذلك معلقا أنـــه لم يلاحظ أن بني جلدته يكنون لليهود إي احتقار أو انهم يقومون بنبذهم وتعقـــبهم ورغم صراخهم أثناء الصلاة وارتدائهم الثياب الغريبة فإنه لم يخطر على بال أحد من الروس أن يهزأ أو يستخف بهم . فموقف الروس منهم اتسم بالتسامح الواضح عملا بالمبدأ القائل " لكم دينكم ولي دين " .

نعـــود إلى منظر السجين اليهودي إيزاى وهو يصلي فنقول إنه مما يزيد هـــذا المنظر مدعاة للتسلية وإثارة للضحك أن يعقبه مباشرة منظر المساجين المســـيحيين وهـــم يحتفلون بعيد الميلاد المجيد على نحو وقور يدخل الرهبة والإجلال في النفوس . وجاء القسيس ليصلي للمساجين الروس ويرشهم بالماء المصـــلى علـــيه . وبعد انصرافه بدأ المساجين في الاحتفال واحتساء الخمر الأمـــر الذي أثار احتقار السجين اليهودي الذي انزوى في ركن قصي ليصلي الصلوات الخاصة به .

وأيضا يعالج دستيوفسكى شخصية ايزاي اليهودي في موضعين آخرين. فضـــلا عن أنه يصوره في موضع آخر على أنه إنسان حذر قلق جبان حين يشعر أن الخطر يحدق به .

وذهـــب الـــناقد جروسمان إلى أن إنسانية دستيوفسكى هي التي جعلته لا يقســـو في الحكم على ايزاي رغم وصفه له بأنه جبان وخانع وضعيف البنية فضـــلا عـــن أنـــه شاطر ولئيم ومتعجرف . وبسبب نعت المؤلف له بالجبن والخـــنوع والضـــعف يســـتبعد الناقد جروسمان أن يكون اليهودي قد ارتكب جـــريمة قتل بالفعل ويرى هذا الناقد أن المؤلف كان دقيقا عندما ذكر أن نفيه إلى سيبريا كان بتهمة قتل وجهت إليه . إن جروسمان يؤكد تحيز دستيوفسكى

ضد اليهودي ولكنه يقول إن إحساسه الإنساني العميق جعله لا يشمت فيه . يقول جروسمان في هذا الشأن : " إن السجين المهرج – على الرغم من نوايا المؤلف بعكس ذلك – يثير عطف قارئ " بيت الأموات" العميق عليه . ومن ثم فنحن نرى هذا الرجل البرئ المتقدم في السن والضعيف والعليل يعاقب بالنفي في جحيم سيبريا ليخالط طغمة من المجرمين الذين يملأهم الاحتقار والاستهزاء به بسبب أصوله العرقية غير أنه يستمسك بدين أجداده في ثبات وصراحة " .

ويختتم جروسمان تحليل لشخصية إيزاي اليهودي فيقول أن نوايا المؤلف الهازئة به سرعان ما تتلاشى أمام رؤيته مستغرقا في الابتهالات والصلوات . وبناء عليه يذهب إلى أن أسلوب تناول المؤلف لشخصية ايزاي ينم عن رغبته في تقديم ، على غير إرادته ، اعتذار لليهود ، ويضيف أن الفكاهة تلطف من السخرية التي تنطوي عليها الرواية وأن دستيوفسكى الذي يعرف القلب الإنساني معرفة عظيمة اضطر إلى نبذ الصورة الكاريكاتورية التي رسمها لليهود حتى يبين الجوانب الإنسانية العميقة في شخصية ايزاي المضحكة .

ولكن هذا الرأي لا يروق في نظر بعض النقاد الذين يؤكدون احتقار المؤلف لايزاي ولدينه . ويضيف هؤلاء النقاد أن مثل هذا الاحتقار يتماشى مع الجو المعادي للسامية الذي ساد روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الأمر الذي يجعل من استهزاء المؤلف به أمرا مؤكدا .

مجلة تايم (الزمان) والمسألة اليهودية :

في شهر ديسمبر عام ١٨٥٩ عاد دستيوفسكى من سيبريا إلى بطرسبرج، أي بعد غيبة استمرت عشرة أعوام قضاها في المنفى . وفي بطرسبرج سعى مؤلفنا إلى تدعيم شهرته الأدبية واعتلاء منبر يستطيع أن يناقش المشاكل الحيوية التي تواجه روسيا من خلاله فاتخذ من مجلة شهرية منتظمة صدرت في يناير ١٨٦١ بعنوان " الزمان " منبرا دافع منه عن آرائه وشرح وجهة نظره في قضايا بلاده . واستمرت هذه المجلة في الصدور بانتظام حتى أغلقت في مايو ١٨٦٣ بمرسوم قيصري . ولكن هذه المجلة عادت إلى الصدور في يناير ١٨٦٤ بعنوان " العصر " حتى اضطرتها المشاكل المالية إلى التوقف

عن الصدور في مارس من العام التالي . والجدير بالذكر أن دستيوفسكى كان مسئولا عن تحرير مجلة " الزمان " بالفعل في حين أن أخاه كان المسئول الرسمي عنها .

وتلقى كتابات دستيوفسكى في مجلة " الزمان " كثيرا من الضوء على مدى التغيرات الروحية والفكرية العميقة التي طرأت عليه في منفاه . فقبل ذلك كان يرى إن إشعال نيران الثورة في روسيا ضرورة لا محيص عنها ولكنه تخلى عن فكرة الثورة أثناء نفيه في سيبريا . وأيضا علمته تجربة المنفى أن روسيا بالذات لا تعرف الصراعات الطبقية التي تعرفها المجتمعات الأخرى لأنه ليس هناك في واقع الأمر أي تضارب في المصالح بين الفئات الروسية المختلفة . وخلص دستيوفسكى إلى أن الوشائج التي تربط بين أفراد الشعب الروسي تفوق عوامل الفرقة والانقسام . هذه الوشائج تتجسد في أنهم جميعا نبت واحد من التربة الروسية وانهم جميعا سوف يلتقون ويلتحمون في عملية تصالح روحي شامل .

وفي ١٩ فبراير ١٨٦١ أصدر القيصر الكسندر الثاني مرسوما بإلغاء الرق وتحرير عبيد الأرض ألحقه بمجموعة من الإصلاحات من بينها إصدار بعض القوانين الخاصة بالتسامح مع اليهود الذين يعيشون في الإمبراطورية الروسية .

ومن مظاهر هذه السماحة أن القيصر ألغى في أغسطس ١٨٥٦ قانون التجنيد الإجباري لشباب اليهود وهو قانون يرجع تاريخه إلى ٢٦ أغسطس ١٨٢٧ فضلا عن مجموعة قوانين أخرى متتالية تتسم بالسماحة مثل فتح الحدود البولندية لتمكين اليهود من النزوح إليها . والسماح للتجار اليهود ذوي الإمكانيات المالية بالعيش وممارسة التجارة في المناطق التي كان لا يسمح لليهود في الماضي بدخولها أو العمل فيها . ثم صدر في ٢٧ نوفمبر عام ١٨٦١ قانون لم يستفد منه اليهود كثيرا من الناحية العملية ولكنه ينم عن الليبرالية واتساع الأفق . ويقضي هذا القانون الجديد بحق اليهود الحاصلين على درجات علمية من الجامعات مثل الأطباء والجراحين وحملة شهادة الكانديدا الخ ، من الالتحاق بالعمل في الدوائر الحكومية . وينص القانون الجديد على حق اليهود في الاشتغال بالصناعة أينما شاءوا .

والجديــر بالذكر أن الجدل واللجاج احتدما حول هذا القانون بين صحيفة " الــزمان " التــي كان دستيوفسكى يشرف على إصدارها وجريدة " النهار " المعاديــة للسامية التي تولى ايفانوف اكساكوف إصدارها . ومن المفارقة أن دستيوفســكى الــذي عبر عن احتقاره وزرايته باليهود آنذاك كان من أنصار القوانين الليبرالية المستحدثة .

ولكــن رغبة حكومة القيصر في توسيع رقعة الحرية الدينية لم يمنع من ذيــوع الممارسات المعادية لليهود . ولهذا نرى رئيس اللجنة اليهودية الكونت كيسليوف يشكو من أن القيود المتوارثة المفروضة على اليهود تمثل قيدا على حركــتهم وتحــول بصفة مؤقتة دون تنفيذ سياسة حكومة القيصر المتمثلة في رغبــتها فــي التحام اليهود بالشعب الروسي في نسيج واحد . فضلا عن أن مســئولا روســيا رفيع المستوى هو الكونت أ. ج ستروجانوف سطر مذكرة بــتاريخ ٢٢ يناير ١٨٥٨ رفعها إلى وزير الداخلية الكونت لانسكوي مطالبا فــيها بتحرير اليهود تحريرا كاملا من كافة القيود والمعوقات قائلا أن القيود التــي لا تــزال مفروضــة على اليهود تتناقض مع روح العصر ومع سعي الحكومة إلى التحامهم مع الأهالي . غير أن اقتراح أ.ج. ستروجانوف بتحرير اليهود الروس تحريرا كاملا مني بالفشل .

قلــنا أن الصــحافة الروســية آنذاك انقسمت بين أنصار تحرير اليهود وأنصار معاداة السامية . ولكن السواد الأعظم من الصحف الروسية كان على أيــة حــال في صف تحرير العبيد . ومما يذكر في هذا الصدد أن الصحيفة الروســية الواســعة الانتشــار " الانفاليد الروسي " نشرت في عددها التاسع والثلاثين الصادر عام ١٨٥٨ مقالا يحث على اتباع سياسة التسامح مع اليهود داعــيا إلــى التوقف عن الهجوم عليهم في الصحافة والأدب وأن يذكر دائما استعدادهم الطبيعي لتحصيل المعارف والفنون والعلوم . وكذلك دعا المقال إلى الاستفادة من طاقاتهم وميلهم للدعابة الذكية وقدرتهم الهائلة على التصرف لسد احتياجات المجتمع الروسي .

ولــم يرق هذا في عين صحفي موهوب مناهض للسامية اسمه فلاديمير زوتــوف الــذي شن هجوما عاتيا على اليهود في مجلة المصور الأسبوعية (عــدد ٣٥ ســنة ١٨٥٨) جــاء فيه أنهم لا يستحقون التحرير . ثم أشارت

الصحيفة غمزا ولمزا إلى رجل عام وزعيم يهودي معروف بالبر وأحد الدعاة الأقوياء إلى تحرير اليهود .

واشـــتركت " الهيرالد الروسي " وهي اكبر صحيفة آنذاك تولي تحريرها المفكـــر الليبرالـــي ميخائيل كاتكوف في هذه الملاحاة . فنشرت مقالا افتتاحيا فضلا عن مقال بقلم طبيب يهودي ورجل عام اسمه ايزاك تشاتسكين يستنكران هجـــوم زوتوف العاتي على اليهود . وأيضا انبرت مجلة الاثينيوم للدفاع عن اليهود فنشرت ردا كتبه مارتن جودفتز يحتج فيها على الاتهامات الظالمة التي وجهها زوتوف ضد اليهود قائلا إن التعصب الديني والقومي الذميم هو الدافع وراء هذه الاتهامات . وثارت ثائرة زوتوف فنشر مقالا آخر في العدد ٤٣ من مجلة " المصور " هاجم فيه بضراوة كلا من تشاتسكين وجودفتز المدافعين عن السامية متهما إياهما بالعمالة لرجل الأعمال اليهودي المشار إليه . عندئذ هاج المـــثقفون والمفكـــرون الروس في بطرسبرج وماجوا وهبوا هبة رجل واحد للاحـــتجاج علـــى الافتراء على اليهود والسعي إلى تلطيخ سمعتهم بلا مسوغ ونشـــر احتجاجهم الجماعي في عدد من الصحف الصادرة في بطرسبرج مثل " الهـــيرالد الروسي " (عدد ١٨) و " سجل بطرسبرج " (عدد ٢٥٨) وسجل موسكو . ووقع على هذا الاحتجاج الجماعي عدد من أبرز المفكرين والكتاب الـــروس على الإطلاق أمثال كونستانتين وسيرجي اكساكوف وتشرنيشفسكي ونكراســـوف وتورجنيف . ويتضمن الاحتجاج المشار إليه اعترافا بأن اليهود جـــزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع الروسي . وأيضا نشر ن. ف. بافلوف في صـــحيفة " الهـــيرالد الروســـي " مقالا جاء فيه أنه لا يليق بالمجتمع الروسي المســـيحي أن يـــرمى اليهود بالنصب والاحتيال والقذارة وأن زمن معايرتهم والهجوم عليهم قد ولى إلى الأبد ..

ولـــم يقتصر الدفاع عن اليهود على صحيفة الهيرالد الروسي فقد اشترك عدد كبير من محرري صحيفة " المعاصر " في توقيع الاحتجاج على التمييز ضـــد الـــيهود . فضـــلا عن ان صحيفة المعاصر طالبت في افتتاحية عددها الصـــادر فـــي يونـــيه ١٨٥٨ بالـــتعاطف مع الشعب اليهودي ونبذ التحيزات التقليدية ضده .ويعد انقضاء نحو ربع قرن كتب فلاديمير سولوفيوف افتتاحية أخـــرى تـــندد بالمجـــتمع المسيحي لسوء معاملته لليهود وتحمل هذا المجتمع مســـئولية الخصال السيئة والسمات الذميمة التي تنتقص من شخصية اليهودي

فالمسـيحية التـي تبشر بالسماحة والتواضع دأب اتباعها على احتقار اليهود والزراية بهم والقول بأنهم يستحقون الموت . ويدل تاريخ اليهود الطويل على شـدة الاضـطهاد الـذي تعرضوا له . وتضيف الافتتاحية أن تقدم الحضارة الأوربـية يقتضـي حسن معاملة اليهود الروس الذين زاد عددهم آنذاك على مليون ونصف يهودي .

ويتضـح مما تقدم أن القضية اليهودية كانت مطروحة بقوة على الساحة الروسية . وعندما اصدر دستيوفسكي مجلة " الزمان " في يناير " ١٩٦١ وفي الأربع مناسبات المختلفة التي عالجت فيها الزمان قضية اليهود (وهي ديسمبر ١٨٦١ وفـبراير ومـايو وسـبتمبر ١٨٦٢) نراها تتحالف مع قوى التقدم والإصلاح . وأنحت صحيفة الزمان باللائمة على صحيفة الأساس لأنها صبت جـام غضـبها علـى الـيهود كما انها استحسنت كراهية سكان أوكرانيا لهم بوصفهم عنصرا غريبا عن المجتمع يقف بمعزل عنه ولا يقيم وزنا لمصيره . والأسـوأ من هذا كله أنهم يسعون إلى السيطرة على مقدرات هذا المجتمع . واشـتركت صحيفة صهيون في هذه الملاحاة في عددها العاشر عام ١٨٦١ . ونـددت صهيون بالهجوم الذي شنته صحيفة " الأساس " على اليهود فانبري ناشـر هـذه الصـحيفة للرد على صحيفة صهيون في مقال بعنوان " اليهود التقدمـيون " . عـندئذ تدخلـت صـحيفة الزمان بطريقة محايدة للتوفيق بين صحيفتي " الأساس " و " صهيون " .

ولعل الأهم من هذا كله هو موقف صحيفة دستيوفسكى من صحيفة النهار المدافعة عن السلافية والمناهضة لليهود كما جاء في فبراير ١٨٦٢ . والجدير بالذكـر أن محـرر جريدة النهار وناشرها ايفان س. أسكاكوف ظل منذ عقد السـتينات حتى وفاته عام ١٨٨٦ يعادي اليهود بضراوة ويعبر بكل قوة عن الحـركة القومية السلافية واقفا في وجه منح اليهود أية حقوق مدنية . وعبر اكساكوف عن سخطه على السياسة الليبرالية التي انتهجتها الحكومة القيصرية تجـاه الـيهود والتـي بلغت ذروتها في القانون الاصلاحي الذي استنته هذه الحكومـة في ٢٧ نوفمبر ١٨٦١ . وقد تصدى اكساكوف للهجوم على اليهود فـي افتتاحـية جـريدة النهار في عددها التاسع عشر الصادر في ١٦ فبراير ١٨٦٢ .

يـناقش أكساكوف وضع اليهود في المجتمع الروسي المسيحي فيقول أنه يرغـب في أن يضمن أنهم يحيون حياتهم بحرية كاملة في إدارة شئونهم وفي تجارتهم وتعليمهم ولكن هذا لا يعطيهم الحق في إدارة شئون المجتمع الروسي المسـيحي أو سن التشريعات الخاصة به . ولم تسكت جريدة الزمان على هذا الهجـوم بـل بـادرت في عددها التاسع عشر للتصدي له في مقال غفل عن الإمضاء ينسبه البعض إلى دستيوفسكى قائلة إن جريدة النهار تتظاهر بالدفاع عـن حقـوق اليهود في حين أنها في واقع الأمر تنقض عليها وتنقص منها. واسـتمرت صحيفة النهار في شن هجومها الضاري على اليهود ولكن جريدة الزمان التي صدرت في يناير عام ١٨٦١ دافعت عنهم ضد هذا الهجوم .

وبعـد عودة دستيوفسكى من منفاه إلى مدينة بطرسبرج طرأ عليه تغير روحي كبير كما أن تغيرا سياسيا وفكريا وثقافيا هائلا كان قد طرأ أيضا على العاصمة الروسية نفسها حيث برزت في عقد الستينات من القرن التاسع عشر قـوة المؤمنين بالديموقراطية الاجتماعية كما برزت قوة صحيفة العصر لسان حـالهم المعبر عن توجههم الثوري. واستطاع الديمقراطيون الاجتماعيون أن يـتولوا قيادة المد الثوري الذي أخذ يجتاح طبقة المثقفين الروس . أضف إلى ذلك أن قطاعات مهمة داخل الجيش والحكومة أظهرت تعاطفا واضحا معهم . ناهيك عن تغلغل نفوذ الديمقراطيين الاجتماعيين في صفوف طلبة الجامعة في كـل من موسكو وبطرسبرج وخاصة لأن عددا من أهم الأدباء الروس أمثال تشرنيسـكي وتكراسـوف ودوبرليوبوف وبيساريف كانوا على رأس الحركة الديمقراطية الاجتماعية .

ويتضـح مـن الخطابات التي أرسلها دستيوفسكى إلى أخيه ميخائيل من تيفر في أكتوبر ١٨٥٨ قبل عودته إلى بطرسبرج بشهور قلائل أنه كان مدركا للسلطة الأدبية التي تتمتع بها صحيفة " العصر " ومنتبها إلى الدور الهام الذي لعبـته في ترسيخ مكانة تولستوي وتورجنيف في فترة غيابه عن العاصمة . وكـان الأمل يحدو بدستيوفسكى إلى أن تساعده هذه الصحيفة في شق طريقه إلى المجد الأدبي.

وقـد سعى دستيوفسكى ما وسعه السعي لإقناع الأديب الكبير نكراسوف بـأن صحيفة الزمان التي يتولى إصدارها ليست محافظة أو رجعية بأي حال

مـــن الأحـــوال . ونجحت الزمان في إقناع الناس بنزعتها نحو الليبرالية رغم تأثـــرها ببعض الأفكار السلافية . وإذا كانت الدعوة السلافية قد شجبت حركة التحديث والإصلاح الأوربي التي اضطلع بها القيصر بطرس الأعظم وأرادت العودة بالبلاد إلى جذورها العتيقة الضاربة في القدم فقد سعى دستيوفسكى كما ســعت صحيفة الزمان إلى التوفيق بين تقليد الغرب والاحتذاء به وبين الدعوة السلافية التي ترغب في إعادة روسيا إلى ما كانت عليه في الماضي السحيق . ولعـــل الصـــواب لا يجانبنا إذا قلنا أن مجلة الزمان رفضت الاحتذاء بالغرب والدعـــوة إلـــى السلافية على حد سواء وحبذت أن تحافظ روسيا على طابعها الروســـي . وهكـــذا أحـــس دستيوفســـكى بالخطر الذي يتهدد أدبه من جراء الانســـياق وراء الأفكـــار السلافية الرجعية وخطر آخر يتهدده إذا عن له أن يتصـــدى للقـــوى الـــثائرة على القيصر . ولهذا اتبعت صحيفة الزمان سياسة متوازنة مستقلة تتلخص في التصدي للقوى الرجعية والمحافظة من ناحية دون الارتباط من ناحية أخرى بالقوى الثورية.

وعلـــى أية حال استطاعت صحيفة الزمان منذ نشأتها أن تكتسب شهرة كجريدة تقدمية مستقلة . ونشرت سلسلة من المقالات المنسوبة إلى دستيوفسكى تـــنال من كاتكوف رئيس تحرير الهيرالد الروسي بسبب هجومه على صحيفة المعاصـــر وعلـــى جـــبهة الديمقراطيين الثوار . وبعد أن فرغت الزمان من هجومهـــا علـــى الهيرالد الروسي وجهت هجومها شطر دعاة السلافية وشطر جـــريدة النهار التي أصدروها في ١٥ أكتوبر ١٨٦١ . وقد نشر دستيوفسكى فـــي جـــريدة الزمان مقالا هاجم فيه دعاة السلافية بضراوة . وأيضا استأنفت الزمان في عددها الصادر في فبراير ١٨٦٢ هجومها على جريدة النهار . ولم تسكت صحيفة النهار فنشرت في عددها الصادر فى ديسمبر ١٨٦١ هجومها على دستيوفسكى و جريدة الزمان التي تسعى دون طائل إلى التوفيق بين دعاة السلافية ودعاة الاحتذاء بالغرب. ويبدو أن دستيوفسكى لم يتحمل قسوة الهجوم عليه. وبدت جريدة الزمان وكأنها تواجه مأزقا يتمثل في التوفيق بين عناصر متـــنافره يستحيل التوفيق بينها مع الاحتفاظ بطابعها المحافظ وسمعتها التقدمية فى نفس الوقت .ويلاحظ الدارسون فرقا بين هجوم استراخوف الضارى على دعـــاة الســـلافية وانـــتقاد دستيوفســـكى المعتدل والملطف عليهم وعلى جبهة الديموقراطييـــن الـــثوار .وعلـــى أية حال خشيت صحيفة الزمان أن يتهمها

أعداؤهـا بالتخلـي عـن الـنغمة التقدمية فأظهرت اهتماما واضحا بالمشكلة الـيهودية التـي اعتبرت محكا واختبارا حقيقيا لمدى ليبرالية أي إنسان وأي صحيفة .

دستيوفسكي يقترض من بعض اليهود :

وفـي صـيف عام ١٨٦٢ اضطر دستيوفسكي بسبب تراكم الديون عليه وتعرضــه للسجن لعدم قدرته على الوفاء بها إلى مغادرة روسيا والرحيل إلى عدد من البلاد الأوربية . ولعل أكثر فترات النفي إلى أوربا إيلاما على نفسه تلك الفترة التي امتدت من أبريل ١٨٦٧ حتى يوليه ١٨٧١ . وهي فترة عانى فـيها دستيوفسـكي معانـاة قاسـية من الإحساس بالغربة والوحشة والعزلة والوحـدة. وفـي هذه الفترة بالذات اقتنع دستيوفسكي اقتناعا لا يتزعزع بأن روسـيا سـوف تبعث من جديد لتخلص العالم كله من الموبقات وتطهره من الشـرور والآثام التي تمثلت في الحضارة الغربية المادية وفي انتشار الأفكار الـثورية والفوضـوية . فلا غرو إذا رأيناه يناصب تورجنيف وتشرنشفسكي وبلنسـكي العـداء ويحمـل حملة شعواء على كنيسة روما الكاثوليكية وعلى الأفكـار الاشـتراكية التـي انتشرت في فرنسا وأيضا على الأفكار الملحدة والمتشـككة في الدين . وبالنظر إلى أن دستيوفسكي آمن إيمانا مطلقا وأعمى بالكنيسـة الأرثوذكسـية الروسـية نـراه يعجب بألمانيا التي اتبعت المذهب البروتستانتي وانشقت على الكنيسة الكاثوليكية . ورغم ما سبق أن أظهره من عطف على اليهود فقد انتهى به هوس الإيمان بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية في أواخر حياته إلى اتخاذ موقف العداء الضاري والاحتقار المشبوب لهم بل أن مشاعره ضدهم تجاوزت حدود الاحتقار والزراية إذ أخذ ينظر إليهم كقوة ظلامـية شـريرة تعطل قدرة روسيا على أداء دورها التاريخي والمحتوم في إنقـاذ البشرية من وهدتها . ويتضح لنا هذا بجلاء فيما كتبه بعنوان " يوميات كاتب " .

وقد ظهرت الشخصيات اليهودية في أدب دستيوفسكي الروائي على نطاق محدود كشخصيات ثانوية عابرة حتى نشر رواية " الذي به مس من الشيطان " في بداية عام ١٨٧١ حيث رسم صورة مفصلة لثائر يهودي يدعى ليماشين . وأيضـا في رواية " الجريمة والعقاب " حيث نرى شخصية يهودي من رجال

المطافـــي يشاهد سفيد ريجاليوف وهو ينتحر بإطلاق الرصاص على رأسه . لقـــد اعتبر دستيوفسكى الشعب الروسي شعب الله المختار والمسيح الذي جاء ليخلص العالم . أي أنه خلع على بني جلدته الروس خصائص شعب إسرائيل المختار وكان في قرارة قلبه يتمنى اختفاء اليهود من وجه البسيطة . غير أن أدرك أنـــه هذا لن يتحقق كما أدرك أن شعب إسرائيل تحول إلى مجموعة من المرابين والمضاربين واللصوص والمخبرين والجواسيس والمهرجين ولاعقي الأحذيـــة . ويذهب بعض الدارسين إلى أن دستيوفسكى كانت لديه فكرة سيئة مسبقة عن اليهود أثرت في حكمه عليهم .

ورغم أن علاقاته الشخصية باليهود كانت محدودة للغاية فإنه عرف قبل رحيله عام ١٨٦٧ اثنين من اليهود احدهما يدعى إيزاك رومشتين والآخر ن. ف. كاتز المجند في نفس الفصيلة التي التحق بها دستيوفسكى بعد خروجه من ســـجن . أوســـمك . وعلى أية حال لم تكن صورة اليهودي لديه تختلف عن الصورة التقليدية والنمطية الكريهة لدى عامة الناس . فاليهودي في نظره كان مرادفا للمرابي رغم عدم وجود يهودي واحد بين ثلة الدائنين الذين اضطروه إلى الرحيل عن روسيا إلى أوربا عندما عجز عن الوفاء بديونه .

ويتضـــح لنا مما سجلته عروس دستيوفسكى أنا جريجور ريفنا من ١٤ أبـــريل حتى ٢٤ أغسطس ١٨٦٧ أن عريسها كان أثناء منفاه في أوربا الذي دام أربعة أعوام شديد الحساسية للمشكلة اليهودية فقد دونت في يومياتها وصفا لرحلـــتها مـــع زوجهـــا من بطرسبرج إلى برلين يتضمن الإشارة إلى بعض الأحداث التافهة التي وقعت لها والتي لم يكن يخطر على بال مسافر أن يلتفت إلـــيها أو يهتم بها لولا حساسية دستيوفسكى الشديدة لمشكلة اليهود ومن بينها ملاحقـــة ومضايقة الباعة الجوالة اليهود لهما كي يشتريا منهم بعض السلع . وفـــي مديـــنة بادن خسر دستيوفسكى مبلغا كبيرا من المال علي مائدة القمار الأمـــر الـــذي اضـــطره إلـــى الاستدانة من اثنين من اليهود المرابين وتجار الـــرهونات هما وايزمان وجوزيل . وتحدثنا يوميات الزوجة عن المساومات التي لا تنتهي حول قيمة الرهونات بين دستيوفسكى وهذين اليهوديين . ورغم أن هذيـــن اليهوديين بالذات لم يلتجئا الى استغلاله او ابتزازه فليس هناك أدنى شك في أنه شعر بالمذلة والمهانة نحوهما . وهذا ما أكدته الزوجة في يومياتها فقـــد وصـــفت كيف اضطرت الحاجة إلى المال زوجها إلى الذهاب إلى بيت

المرابي وايزمان فلما لم يجده هناك اضطر إلى انتظار مجيئه لأكثر من ساعة بيـنما كانت أخت المرابي مشغولة بتناول طعامها . ويبدو أن دستيوفسكى لم يـنس إحساسـه بالمهانة بسبب تعامله مع هذين اليهوديين المرابين وأن هذا الإحساس دفعه إلى التنديد باشتغال اليهود بالربا واستغلالهم الجماهير الروسية. ويتضـح هذا بجلاء من الكتابات الصحفية التي سطرها دستيوفسكى في عقد السـبعينيات من القرن التاسع عشر . والجدير بالذكر أن موضوعا آخر أكثر حـيوية من هذا أخذ يظهر في كتابات دستيوفسكى في أواخر الستينات وأثناء عقد السبعينات . هذا الموضوع يعالج عائله روتشيلد اليهودية الفاحشة الثراء التـي بلغ ثراؤها مبلغا جعل قيصر روسيا يستدين منها . ومؤسس هذه العائلة هـو الـبارون جيمس روتشيلد المعروف باسم ملك اليهود الذي أثار اهتمام دستيوفسـكى به وجعله يشير إليه في المذكرات التمهيدية التي كان يكتبها كي تسـاعده فـي تألـيف روايتيه " العبيط " (١٨٦٨) و " الأخوة كارامازوف " (١٨٧٩ – ١٨٨٠) ولكـنه آثر في رواية " العبيط " أن تكون إشارته إلى هذه العائلـة محـدودة . فضلاً عن أنه استبعد الإشارة إلى هذه العائلة من النسخة الأخيرة المنقحة من رواية " الأخوة كارامازوف " وتشتمل رواية دستيوفسكى "شـباب غريـر "(١٨٧٥) علـى فكـرة الحصول ثراء شبيه بثراء اليهودي روتشـيلد . كمـا تشتمل المذكرات التي سطرها دستيوفسكى كي تساعده في تألـيف روايـة " الأخوة كارامازوف" على إشارات مماثلة لفكرة الثراء الذي أصـابه روتشيلد بطريقة تخدم أغراض الرواية الفنية. ويبدو أيضا أن فكرة ثراء روتشيلد لاحت له كرمز لسيطرة الطبقة البورجوازية علي مقاليد الأمور في بعض المجتمعات نتيجة لنجاح الثورة الفرنسية بحيث اصبح ربع المجتمع – على حد قوله – يسيطر سيطرة كاملة على مقدرات ثلاثة أرباعه. والجدير بالذكـر أن فكـرة شـره روتشيلد للمال اقترنت في ذهن دستيوفسكى بدعوة المسيح اتباعه إلى نبذ المال وتوزيعه على الفقراء . وإذا كان دستيوفسكى يتخذ مـن جمع المال على طريقة روتشيلد اليهودي رمزا للخسة والخيانة والغدر فإنه لا يفوته أن ينحى باللائمة على قطاعات في المجتمع الروسي تتسم بقدر مـن الـنذالة لا تقـل عن نذالة المرابين اليهود مثل طبقة صغار المزارعين المعروفة بالكولاك والقساوسة الذين يتاجرون بكلام المسيح . فهذه الممارسات لا تقل في بشاعتها من جشع اليهود للمال .

رواية " الذي به مس من الشيطان "

عـند عودتـه مـن مـنفاه فـي أوربا إلى بطرسبرج عام ١٨٧١ ألف دستيوفسـكى روايـة " الـذي بـه مس من الشيطان " التي تصور على نحو كاريكـاتوري شخصية يهودي يدعى ليماشين . وليس من قبيل المصادفة أن يصـف المؤلف هذه الشخصية بالنذالة والخيانة وأنه يلعب نفس الدور الغادر الـذي لعـبه يهوذا الأسخريوطي عندما سلم السيد المسيح إلى جلاديه . ومن المعـروف أن المؤلـف استقى شخصيات روايته وأحداثها من أحداث وقعت بـالفعل فـي بطرسبرج حين ألقى القبض على عضو في منظمة سرية ثورية اسمه سيرجي نيتشاييف في شهر نوفمبر ١٨٦٩ . ومن الجائز أن دستيوفسكى استمد شخصية اليهودي الثائر ليماشين من شخصية يهودية حقيقية تدعى بوتين كـان قـد التقى بها أثناء إقامته بجينيف في سويسرا في الفترة من أغسطس ١٨٦٧ حتى مايو ١٨٦٨ .

وتشير رواية " الذي به مس من الشيطان " إلى شخصية اليهودي ليماشين إشـارات عابرة لا توحي بأنه سوف يلعب دورا محوريا في الأحداث . ولكن يتضح لنا في نهاية هذه الرواية أن اليهودي سوف يلعب دورا أساسيا فيها . بل أن المؤلف يمهد الطريق منذ البداية إلى خيانة ليماشين ووشايته بزميل له ثائر ضد النظام القيصري . ويرسم دستيوفسكى صورة منفرة لهذا اليهودي عندما يـروي لنا أن طالبا بمدرسة اللاهوت أراد الوقيعة بسيدة محترمة تبيع الكتب الدينية فحرض اليهودي السافل ليماشين عليها فدس في الركن الذي تحتفظ فيه بالكتب الدينية مجموعة من الصور الفوتوغرافية الشهوانية والبذيئة الأمر الذي أثار غضب الجمهور عليها فكاد أن يفتك بها لولا أن البوليس تدخل في اللحظة الأخـيرة لإنقاذهـا بعد أن أوضح للناس براءتها من تهمة تدنيس المقدسات . والجديـر بالذكـر أن الوغـد ليماشـين كـان رغم نذالته ناجحا من الناحية الاجتماعـية فعلـية القوم يرحبون بدعوته إلى بيوتهم وحفلاتهم بسبب مهارته الفائقـة في العزف على البيانو . ويسوق دستيوفسكى دليلا آخر على قيام هذا اليهودي الوغد بتدنيس المقدسات فقد اشترك مع آخرين في السطو على أيقونة غالية الثمن للعذراء مريم من إحدى الكنائس وسرقة ما تحتويه من مجوهرات وتدنيس هذا الشيء المقدس بوضع فأر حي فيه .

ونحن لا نعرف سوء خلق ليماشين منذ البداية بل قرب منتصف الرواية عندما يكتشف القارئ أنه مهرج وأن شخصيته مخادعة فهو عميل مزدوج يعمل لصالح السلطة ويتظاهر بالعمل لصالح الثوار . ويهدف دستيوفسكى من وراء رسم شخصية اليهودي ليماشين إلى الزراية بالعناصر الثورية والليبرالية والتقدمية في المجتمع القيصري والسخرية منها. كما أنه يشير إلى تزايد عدد اليهود النازحين إلى المدن الروسية حيث يمارسون إقراض المال بالربا . وهكذا تظهر صورة اليهودي التقليدية في رواية " الذي به مس من الشيطان " كإنسان جبان شكاك لئيم مخادع يغالي في الحرص على صحته . ويشير دستيوفسكى في المذكرات التي سطرها للاستعانة بها في تأليف " الذي به مس من الشيطان " إلى أن اليهود اعتنقوا الأفكار الاشتراكية لأنهم رأوا فيها وسيلتهم للحصول على السيادة والسلطة . فضلا عن أنه رأى أن الحركة الاشتراكية بذلت كل ما في وسعها لتحريض اليهود واستغلالهم في إشعال نيران الثورة . والرأي عنده أنهم وراء الحركات الفوضوية والاشتراكية ليس فقط بهدف بسط نفوذهم الكامل على سوق المال ولكن أيضا من أجل تدمير الحضارة المسيحية . واقتلاعها من جذورها . فلا غرو إذا وجدناه يحدثنا في خطاب يرجع تاريخه إلى ٢٩ أغسطس ١٨٧٨ عن ظهور عدو المسيح يسعى إلى تحطيم المسيح .

فترة اشتغال دستيوفسكي بالصحافة والرسائل التي تبادلها مع الصحفى السجين أ. ج. كوفنر

في عام ١٨٧٣ - ١٨٧٤ أصبح دستيوفسكي رئيس تحرير المواطن . والذي يلفت النظر أن مؤلفنا لم يكف أبدا عن الكتابة في الصحف الأمر الذي حدا ببعض النقاد إلى اعتبار مقالاته جزءا لا يتجزأ من أدبه الروائي الذي يتضمن بعضا من كتاباته الصحفية فضلا عن أن كتاباته الصحفية تتضمن بعضا من أدبه الروائي . وإذا أردنا أن نتتبع موقفه من اليهود في العشرة أعوام الأخيرة من حياته فلا مناص من القول إنه في السبعينات كرس جانبا كبيرا من مطبوعه " يوميات كاتب " لمناقشة المشكلة اليهودية كما أنه ناقشها فيما سطره من مذكرات ورسائل . ويشير الدارسون إلى زيادة اهتمام دستيوفسكي بالمشكلة اليهودية في سنوات عمره الأخيرة إلى جانب امتداد الجانب المحافظ في نظرته إلى الحياة وإيمانه بضرورة عودة روسيا إلى المبادئ والفضائل

الروسـية الأرثوذكسـية الراسخة . وبعد مضي بضعة شهور من عودته من منفاه إلـى بطرسـبرج في خريف عام ١٨٧١ تعرف دستيوفسكي بالأمير شتشرسـكي الذي قدمه إلى علية القوم في بطرسبرج ومن بينهم رجل قانون يـرجع إلـيه الفضل في تقديمه في أوائل عام ١٨٧٨ إلى أفراد عائلة القيصر التي استخدمته كمربي لاثنين من أبناء قيصر روسيا الكسندر الثاني هما الدوق سـيرجي والـدوق بـافل إلى جانب عنايته بتربية أبناء شقيق القيصر الدوق كونستانتين . وفي الفترة الأخيرة من حياته توطدت أواصر العلاقات الحميمة بين مؤلفنا والمجتمع الأرستقراطي الروسي لدرجة قضت على صلاته السابقة برجال الفكر والأدب في بلاده . وترجع محافظة دستيوفسكي الفكرية الواضحة إلـى تأثـره مـنذ البداية بالأفكار السلافية المعادية للسامية . وفي نهاية عام ١٨٧٢ تطوع دستيوفسكي لرئاسة تحرير صحيفة " المواطن " المحافظة لسان حال الطبقة الحاكمة . وفي العدد الصادر في يونيه ١٨٧٦ من "يوميات كاتب" يعـبر دستيوفسـكي عـن استيائه من اليهود لأنهم يتبعون ناموسا خاصا بهم ومستقلا من القانون العام ولأنهم أصبحوا يمتلكون الأرض الروسية ويقومون باستغلالها أسوأ استغلال وينهكون قدرتها على الإنتاج . فإذا عن لأحد أن يلفت الـنظر إلـى استنزافهم للأرض هاجت الدنيا وماجت مطالبة بحق اليهود في التمـتع بحـرياتهم المدنية. ويضيف دستيوفسكي أن اليهود لم يعودوا يكتفون بامتلاك أرض الروس واستعباد الفلاحين الروس بل يتهمهم بشراء الرأي العام الليبرالـي بوجه عام. وفي الفترة من ١٨٦٩ حتى ١٨٧٥ (وهي الفترة التي شـاهدت نمـوا ملحوظا في التصنيع ونشأة الطبقة المتوسطة الروسية والتي أعقبـت تحرير رقيق الأرض الروس) حدث انخفاض مروع في الحاصلات الزراعـية إلـى جانـب المجاعـة الفتاكة التي حدثت عام ١٨٧٣ . وشعر دستيوفسكي بالاستياء الشديد من ظهور طبقة رجال المال اليهود الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية في أهم عواصم المال . وهكذا تصور اليهودي على أنه مـالك الأرض الجديـد الـذي يحلو له إذلال الفلاحين الروس والدوس عليهم بأقدامهم . فضلا عن أنه رأى ثمة تحالف يربط بين رجال المال اليهود باليهود مـن أصـحاب الحانات الذين يشجعون أبناء الطبقات الروسية الكادحة على السكر حتى يغيبوا عن الوعي. ورأى كاتبنا أن الخلاص من كل هذا يكمن من زيـادة الوعـي القومي والتحام الطبقات المتعلمة مع جماهير الشعب الروسي تحت لواء السيد المسيح والقيصر . وذهب إلى أن الشعب الروسي هالك إذا لم

ينتـبه إلـى هذا الخطر المحدق بهم . وقد بلغ إيمانه بعظمة الشعب الروسي وحكمـته مـبلغا جعله يعتقد في قدرته على البعث والتجدد حتى إذا أحجمت الطـبقة الروسـية المتعلمة عن الأخذ بيده . ولم يؤمن دستيوفسكي بالانتعاش الاقتصادي الذي يتم على أيدي اليهود . فهو في نظرة انتعاش كاذب لن يعود علـى الشعب الروسي بالخير والنفع . وحتى عندما اشتبكت القوات الروسية بـالقوات التركـية فـي عام ١٨٧٦ في القتال والتطاحن لم يتخل مؤلفنا عن اعتقاده أن اليهود هم أعداء البلاد من الداخل في حين أن الأتراك أعداؤهم من الخـارج مؤكدا أن الأرض الروسية يجب أن تبقى في أيدي الروس وحدهم . وعـندما نـزح سكان القرم المنحدرين من أصول تتارية عن هذه المنطقة نبه دستيوفسـكي إلـى ضـرورة نزوح الروس إليها وحذر من أن اليهود سوف يشـغلون المكان إذا تركه الروس شاغرا كما أنه أظهر شيئا من القلق بسبب عجـز الفلاح الروسي عن حل مشاكله الزراعية وزراعة الأرض على وجه أمـثل وهو ما تفوق اليهود فيه . وذهب دستيوفسكي إلى أن خطر اليهود ليس مقصـوراً علـى روسيا وحدها بل يمتد إلى مختلف أرجاء العالم عن طريق الـتحكم فـي اقتصادياته . كما رأى أن سيطرة اليهود معناها انتصار المادية وتدهور القيم الروحية والحضارية . يقول دستيوفسكي إن هذا ما حدث لأوربا ونفـس الشيء قمين بأن يحدث في روسيا إذا لم تسحق المسيحية هذا الوحش الكاسر والغول المفترس . والرأي عنده أن الحرب التي تخوضها روسيا ضد القوات التركية سوف تتمخض عن إحياء روسيا وبعثها كي تقود العالم بأسره إلى الخلاص . وكل من يشك في هذه الحقيقة لا يخرج عن كونه يهوديا يضلل الناس بالحديث عن أثر هذه الحرب السيئ في التجارة والاقتصاد الروسي .

وبطبيعة الحال لم يسكت اليهود على الهجوم الذي شنه دستيوفسكي عليهم فقد تلقى منهم في عام ١٨٧٦ - ١٨٧٧ عددا من الرسائل التي ترد على رأيه السيئ فيهم . وتعتبر الرسالتان اللتي أرسلهما إليه أركادي ج. كوفنر الصحفي الذي زج به في سجن موسكو بسبب اقترافه جريمة اختلاس أهم هذه الرسائل علـى الإطـلاق وكوفـنر شخصية مثيرة للغاية فقد كان يهوديا متمردا على أصـوله الـيهودية ومنشـقا على بني جلدته ولكن الأمر انتهى إلى أن يصبح مدافعـا قويا عن بني إسرائيل في وجه زراية دستيوفسكي بهم . ويعجب هذا الـيهودي مـن أن دستيوفسكي يحجم عن مهاجمة الجاليات غير اليهودية من

الأجانب ممن يعيشون في الأراضي الروسية ويستغلون الشعب الروسي استغلالا لا يقل عن استغلال اليهود له في حين توقع منه أن يهاجم الظلم على إطلاقه سواء جاء من اليهود أو من غير اليهود أو حتى من الروس أنفسهم . ويعيب كوفنر على مؤلفنا أنه لا يدرك الفقر والإملاق الذي يعاني منه السواد الأعظم من اليهود ويذكره على أية حال بأن الطبقة الحاكمة الروسية تربطها علاقات طيبة بذوي البأس والثراء من اليهود الروس . فضلا عن أنه يعيب عليه زرايته برئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي بسبب انحداره من أصل يهودي في حين أن سياسته الإنجليزية المحافظة تخلو من كل أثر لأصله اليهودي . واستطاع كوفنر أن يستثير اهتمام دستيوفسكي فكرس معظم صفحات عدد مارس ١٨٧٧ من "يوميات كاتب" لمناقشة المشكلة اليهودية ففند كل الاتهامات التي وجهها إليه كوفنر تقريباً . وفي خطابه الثاني إلى دستيوفسكي أنكر كوفنر على مؤلفنا إيمانه بوجود الله وخلود الروح والمعجزات التي قام بها السيد المسيح . والجدير بالذكر أن دستيوفسكي رد على الخطابين اللذين أرسلهما كوفنر إليه قائلا إنه لا يعادى اليهود ولم يكن في أي يوم من الأيام عدوا لهم وإنه مقتنع بأنهم شعب يتمتع بحيوية دافقة بدليل أن تاريخهم تمتد جذوره إلى أربعة آلاف عام مضت . ويؤكد دستيوفسكي بأن كوفنر شخص ذكي ولماح كما تدل على ذلك خطاباته . ويؤكد دستيوفسكي في رده أنه قابل في بيئه يهودا أخيارا بقدر ما قابل يهودا أشرارا وأن الشعب الروسي يقبل اليهود بين ظهرانيهم ويتسامح معهم في حين يتهم كثيرا من اليهود بكراهية الروس بدليل أنهم يرفضون الجلوس معهم على مائدة واحدة ، بعكس الروس الذين لا يجدون أدنى غضاضة في الجلوس مع اليهود على مائدة واحدة . والرأي عند دستيوفسكي أن الشعب الروسي يتعرض لظلم أفدح من الظلم الذي يتعرض له اليهود وخاصة لأنهم أصبحوا يتمتعون بحقوق مدنية مساوية لحقوق الروس . فضلا عن انهم يتبعون الناموس الخاص بهم في ظل حماية القوانين الروسية . وأيضا يذكر دستيوفسكي أنه يعرف بعض الفتيات اليهوديات اللائي يثقن في حكمه ويسعين للحصول على نصائحه رغم عدم ارتياحهن لرأيه السيئ في بني جلدتهن . ولكن كوفنر رفض أن يقتنع وأنحى باللائمة على مؤلفنا مؤكدا له أن اليهود لا يتمتعون بأبسط الحقوق المدنية وهي الحق في اختيار المكان الذي يسكنون فيه الأمر الذي يؤدي إلى تكدسهم في الجيتو أو ما يعرف بحارات اليهود. ولكن كوفنر في النهاية توقف

عن التصدي لآراء دستيوفسكي السيئة في اليهود بل أنه هادنها معترفا بأن بني جلدته سيئون وأن مؤلفنا على حق فيما يذهب إليه .

حلول دستيوفسكي للمشكلة اليهودية :

يحتوى العدد الصادر في مارس عام١٨٧٧ من صحيفة دستيوفسكي "يوميات كاتب " على ثلاثة فصول . ويعالج الفصلان الثاني والثالث (وخاصة الفصل الثاني) مشكلة اليهود . وينقسم الفصل الثاني وهو أكثر أهمية من الفصل الثالث إلى أربعة أجزاء فرعية :

أ - المشكلة اليهودية ب - نقاط مع وضد اليهود

ج - القانون القائم بذاته (او دولة داخل الدولة) وأربعون قرنا من البقاء على قيد الحياة . د - ولكن لتحيا الأخوة

أما الفصل الثالث وهو الأقل أهمية فينقسم إلى جزءين يحملان هذين العنوانين " المواطن العالمي " و " حالة فريدة من نوعها " . يقول دستيوفسكي في الجزء الأول من الفصل الثاني بعنوان " المشكلة اليهودية " أن اتهامه بمعاداة السامية أمر لا أساس له من الصحة ولا يستحق حتى مجرد الرد عليه. ولكن يعود للحديث عن سعى اليهود الحثيث إلى تدمير الشعب الروسي الذي وفر لهم الحماية والملاذ الآمن .

ويشير دستيوفسكي في الجزء الثاني من الفصل الثاني عدة نقاط تتلخص فيما يلي :

١ - لا يوجد شعب آخر في العالم يندب حظه ويشكو من المعاناة والإذلال والشهادة مثلما يفعل اليهود .

٢ - ينكر اليهود أنهم يسيطرون على أوربا ويرسمون سياستها الداخلية ويتحكمون في بيوت المال فيها .

٣ - أن المشكلة السلافية كانت ستجد حلا لصالح الشعب السلافي ضد الشعب التركي لولا قوة تأثير اليهود في السياسة الدولية .

٤ - أن الفلاح الروسي يتعرض لإذلال يفوق بكثير الإذلال الذي يتعرض له اليهود ومن ثم فهو الأجدر بالرعاية والاهتمام .

٥ – أنه لا جدوى من المبالغة في حجم معاناة اليهود بالتركيز على تحديد الروس لمحل إقامتهم في الجيتو أو حارات اليهود في حين أن ثلاثة وعشـــرين مليونا من رقيق الأرض في روسيا يعيشون في أحوال أكثر سوءا من احوال اليهود .

٦ – ثم أن تحرير الرقيق في روسيا لم يحسن أحوالهم لأن اليهود الذين اشـــتروا الأرض الزراعـــية من أصحابها الروس أمعنوا في إذلال الفلاح الروسي واستغلاله واستنزاف الأرض .

وأيضا يحتوى الفصل الثاني على فقرات طويلة تشرح أثر اليهود السيئ فـــي الاقتصاد الروسي مثل استغلال الفلاحين الروس وتشجيع الطبقة العاملة علـــى معاقـــرة الخمر عن طريق فتح الخمارات والحانات . ثم أن اليهود في روسيا يتمتعون بحرية التنقل رغم القوانين التي تحد من حرية حركتهم . وإذا كان اليهود يعانون من العزلة فإن هذا لا يرجع إلى مقاطعة الروس لهم وإلى تعصبهم للدين المسيحي ضدهم بل يرجع إلى تصرفات اليهود انفسهم ورغبتهم في اعتزال كل من يخالفهم في الدين والعقيدة . فهم يقيمون دولة داخل الدولة ويتبعون قوانينهم الخاصة بهم وليس القانون العام السائد في البلاد . ويضيف دستيوفســـكي أنه يشعر ببدنه يقشعر عندما يتصور أن اليهود أصبحوا الغالبية الســـاحقة فـــي البلاد وأن الروس صاروا أقلية فيها . عندئذ يتوقع مؤلفنا أن يسحقها اليهود ويمحقونها ويسومنها مر العذاب . أما فيما يتعلق بإقامة اليهود دولة داخل دولة فمن الواضح أن دستيوفسكي تأثر في هذا الرأي بالكتاب الذي ألفـــه ياكوف راخمان بعنوان " كتاب اليهود " الذي احتفظ مؤلفنا بنسخة منقحة ومزيدة منه في مكتبته الخاصة .

ويذكـــر دستيوفســـكي أنه في طفولته سمع أسطورة حول انتظار اليهود لمجـــيء المســـيح كي يخلصهم من العذاب ويجمع أشتاتهم في أورشليم أرض المـــيعاد . وبمجيئه سوف يخضع لهم العالم كله ويصبح تحت رحمتهم ورهن إشارتهم . ولهذا يتعين على اليهود أن يهتموا باقتناء الذهب لسهولة حمله معهم في أي مكان بدلا من حيازة الممتلكات الثابتة التي تعوق انتقالهم من مكان إلى آخـــر . ويبدو أن دستيوفسكي في طفولته تأثر ببعض أشعار مؤلف مسرحي روســـي مغمـــور في القرن التاسع عشر اسمه نستور كوكولنيك وأنه حضر

بعض مسرحياته التي مثلت على مسارح بطرسبرج في شتاء عام ١٨٤١ – ١٨٤٢ . ويختتم دستيوفسكي هذا الجزء بتوجيه تحذير إلى اوربا من تآمر اليهود عليها ورغبتهم في إبادتها والانتصار عليها .

ويحتوي الجزء الرابع والأخير من الفصل الثاني وهو بعنوان " ولكن فلتحيا الأخوة " على تأكيد دستيوفسكي على إيمانه بضرورة منح اليهود كافة الحقوق المدنية الممنوحة للروس لأن مبادئ الدين المسيحي تنص على ذلك . ولكنه يقرر أن فرص اليهود في الحياة الكريمة تفوق بكثير فرص الروس فيها. وكما تعودنا نراه ينحى باللائمة على اليهود لأنهم (وهم المظلومون) أصبحوا يظلمون الشعب الروسي . ويختتم هذا الجزء بطرح السؤال التالي : ما السبيل إذن لاتمام المصالحة بين اليهود والروس ؟ والرأي عنده بأن التوفيق بينهما لن يتم إلا إذا غير اليهود ما بأنفسهم ونبذوا ما يحملون من حقد وكراهية نحو الروس وتخلوا عن تحيزاتهم التاريخية الموروثة التي غارت في نفوسهم . ولكن هذا لا ينبغي أن يحول دون إعطاء اليهود نفس الحقوق المدنية الممنوحة لأهل البلد .

وبعد اغتيال القيصر الكسندر الثاني في مارس ١٨٨١ اجتاحت روسيا موجة عنيفة وعاتية من معاداة السامية . وشكلت لجان رسمية لدراسة وضع اليهود في المجتمع الروسي فتوصلت إلى نتيجة مفادها أنه لا فائدة من إعطاء اليهود المزيد من الحقوق المدنية إذا لم يتخلوا عن عزلتهم ويندمجوا في بوتقة الحياة الروسية . وليس أدل على اشتداد حدة كراهية اليهود آنذاك من أن الدوق سيرجي الحاكم العام والقائد العسكري لمنطقة موسكو أمر عام ١٨٩١ بطرد ٢٠ ألف يهودي منها .

إن دستيوفسكي نفسه لم يحض على كراهية اليهود ولكن جاء من بعده من استغل كلماته لتهييج الخواطر ضدهم . ويعتقد بعض الدارسين أن السلطات السوفيتية تعمدت حذف الإشارات المسيئة إلى اليهود عند إعادة نشر أعمال دستيوفسكي الكاملة في النصف الثاني من القرن العشرين . والذي لا شك فيه أن دستيوفسكي كان له أتباعه ومريدوه الذين اعتبروه نبياً في عصره . ولكن رضاء الكثيرين عن آرائه السيئة في اليهود لا تعني أنه لم يجد بين قرائه من

يتصـــدى لها مثل الصحفي اليهودي كوفنر الذي سبق لنا الإشارة إليه . ولكن من المؤسف أن التاريخ لم يسجل مواقفهم وأقوالهم .

قلـــنا أن الفصـــل الثالـــث من عدد " يوميات كاتب " الصادر في مارس ١٨٧٧ ينقســم إلى جزءين هما - جنازة مواطن عالمي - و " حالة فريدة من نوعهـــا " . والذي أوحى إلى مؤلفنا بكتابة هذا الفصل أنه تلقى خطابا بتاريخ ١٣ فـــبراير ١٨٧٧ من فتاة يهودية شابة في الثامنة عشرة من عمرها اسمها صـــوفيا يليموفـــنا لوري روت له قصة طبيب ولادة وأمراض نساء مسيحي اسمه الدكتور هندنبرج نذر نفسه لخدمة الفقراء .وقبل أن نعرض لهذه القصة الإنســانية الــرائعة يجــدر بنا أن نقول أن مؤلفنا دأب على معاملة هذه الفتاة اليهودية بكل رقة وحنان واعتاد تبادل المراسلات معها ولا غرو فقد كانت لها مكانـــة خاصة في قلبه لا يعرف الدارسون أسبابها ودوافعها . كل ما يعرفونه أنه كان يعامل هذه الفتاة اليهودية كابنته وأنها اعتادت أن تزوره كي تأخذ رأيه وتسترشد بأفكاره . فبالرغم من ثراء والديها اليهوديين كانت ترغب في عمل شـــيء يفيد به عامة الناس لأنها لا تريد أن تسير على نفس الدرب الذي سار فـــيه والداهـــا . وشكت الفتاة لدستيوفسكي من أن أبويها يريدان تزويجها من شـــخص لا تحـــبه ... من طبيب وسيم ثري وناجح ولكنه يكبرها في السن . واعترفـــت الفتاة لدستيوفسكي بأنها تقدر هذا الطبيب وتحترمه ولكنها لا تميل إلـــيه . وعبـــثا نصـــحها مؤلفـــنا بأن تقبل الزيجة التي اختارها لها والدها . والغريـــب فـــي علاقة دستيوفسكي بالفتاة صوفيا أن معرفته بيهوديتها وشدة استمساكها بدينها لم تمنعه من أن يعاملها بحنو أبوي.

أمـــا قصـــته "المواطن العالمي" التي يحدثنا دستيوفسكي عنها في الفصل الثالـــث والأخير من " يوميات كاتب " فتدور حول الدكتور هندنبرج الألماني وهـــو طبيب ولادة وأمراض نساء ألماني نذر حياته لخدمة الفقراء وعلاجهم بالمجان ومساعدة المعوزين بالمال لا فرق عنده بين ملة وأخرى ودين ودين. فـــالأرثوذكس والـــيهود والبروتستانت في نظره سواء . وبعد حياة حافلة بفعل الخـــير مـــات هـــذا الطبيب فحزن عليه الفقراء حزنا لا مزيد عليه . والتف مرضاه من كل دين وملة حول نعشه كي يشيعوه إلى مثواه الأخير وجاءوا إلى الكنيسة ليقبلوا قدمه ويصلوا صلواتهم وينشدوا المزامير عليه بالمخالفة للتعاليم اليهودية التي تحرم إقامة الصلوات اليهودية على جثمان رجل غير يهودي .

وعندما خرج الموكب الجنائزي بالنعش من الكنيسة دقت أجراس هياكل اليهود تعبيرا عن عميق الحزن على وفاته . وهكذا استطاع هذا الطبيب المسيحي الذي عاش كقديس ومات كقديس أن يوحد بين جميع الملل والأديان حول وفاته. هذا هو مضمون المقال الثالث الذي سطره دستيوفسكي بوحي من صوفيا تحت عنوان " حالة فريدة من نوعها " ليوضح للعالم الطريق الذي ينبغي أن يسلكه إذا شاء أن يجد حلاً لمشاكله . وهو حل ينبع من الروح المسيحية الحقة .

معاداة دستيوفسكي لليهود في أيامه الأخيرة :

يدل فحص أعداد " يوميات كاتب " الصادرة في الفترة من أبريل حتى ديسمبر ١٨٧٧ على التهاب مشاعر دستيوفسكي القومية وتحمسه الشديد للحرب التي خاضتها بلاده ضد الأتراك . ونحن نراه يمجد هذه الحرب قائلا أنها نعمة تؤدي أحيانا إلى الانتعاش والخلاص وأن الشعب الروسي الذي لا يقهر أقوى شعوب العالم طرا وأن جميع يهود أوربا بكل أموالهم يعجزون عن الحاق الهزيمة به . وظل دستيوفسكي يردد اتهامه لليهود بأنهم يتحكمون في رسم السياسة التي تتبعها أوربا . ولكن الهزائم التي منيت بها روسيا على يد الأتراك جعلته ينفض عن نفسه غبار الأوهام والأحلام . ورغم ذلك فقد ظل حتى نهاية عام ١٨٧٧ يقاوم ببسالة ضد الروح الانهزامية ويكرس صفحات " يوميات كاتب " للدفاع عن الدعوة إلى ضرورة تضافر العرق السلافي واتحاده الأمر الذي أدى إلى انحسار كتاباته عن المشكلة اليهودية دون أن يعني هذا تضاؤل اهتمامه بها . ومن ثم نراه يشير إلى ضرورة تحرر الروس من براثن اليهود والمضاربين حتى لا يصيروا جثة هامدة في أيديهم . وعلى الرغم من أن كتابات دستيوفسكي عن اليهود آنذاك اخذت في الانكماش فإنه حدد ملامح مشروعاته الأدبية القادمة في مذكرة سطرها في ٢٤ ديسمبر ١٩٧٧ ومن بين هذه المشروعات الكتابة عن اليهود. ويمكن القول بأن عداوة دستيوفسكي للسامية اقتصرت على الرسائل التي تبادلها مع كوفنر والتي سبق لنا أن تناولناها . وكذلك الخطابات التي أرسلها أثناء استشفائه في ألمانيا إلى زوجته آنا جريجورنفيا . والجدير بالذكر أن كراهيته للسامية أصبحت نوعا من المزاج النفسي الدائم الذي انعكس على بعض صفحات روايته الشهيرة " الأخوة كارامازوف " التي كان آنذاك بصدد تأليفها .

وسوف نعرض فيما يلي لرأي دستيوفسكي في اليهود كما ورد في بعض رسائله الأخرى . وأهم ما يتسم به هذا الموقف هو تأكيده على سيطرة اليهود على الصحافة الروسية وابراز دورهم المهم في إذكاء الحركات الثورية .

وابـتداء من عام ١٨٧٤ أصبح دستيوفسكي كثير التردد على المنتجعات الألمانـية طلـبا للاستشفاء . وهناك احس بالغربة عن زوجته ووطنه وسببت حاجـته المسـتمرة للمال ألما ممضا . فضلا عن نوبات الصرع التي أصابته وأنهكت قواه كما أن مياه المنتجع لم توافق جهازه الهضمي . وفي ألمانيا عاش مؤلفـنا في عزلة وآثر عدم الاختلاط ببني جلدته . وتدهورت روحه المعنوية لدرجـة أرهقت أعصابه . فلا غرو إذا رأيناه ينفس عن كربه بأن يصب جام غضـبه على الألمان تارة والروس تارة أخرى واليهود تارة ثالثة ونحن نراه يرسـل إلـى زوجته خطابا من منتجع إلمز بألمانيا يشكو فيه مر الشكوى من الغلاء وارتفاع تكاليف الحياة ومن اليهود الذين يقابلهم في كل مكان . وأيضا شـكا دستيوفسكي من إزعاج اليهود الشديد له . فقد كانت امرأة يهودية وابنها يشـغلان الغرفة المجاورة له في الفندق . وكان يحلو لهما الحديث بلا انقطاع وبصـوت عـال دون ادنى اعتبار لمشاعر النزلاء الاخرين الأمر الذي جعله يشعر بالتعاسة ويمنعه من القراءة والكتابة .

ويخـبر دستيوفسكي زوجته في خطاب آخر كيف أنه فقد مظلته فاضطر إلـى شراء مظلة أخرى بأربعة عشر ماركا من تاجر يهودي . وبعد أن باع اليهودي المظلة له نصحه بالتوجه إلى البوليس (وهي فكرة لم تخطر على بال مؤلفـنا قط) كي يسأل عن المظلة الضائعة . وبالفعل اكتشف دستيوفسكي أن مظلته لم تضع وأن البوليس الألماني يحتفظ له بها . فأخذها ورجع إلى التاجر الـيهودي وعـرض عليه رد المظلة الجديدة مقابل اثنى عشر ماركا . ولكن الرجل رفض.

وروى مؤلفنا حادثة أخرى تدل على شدة ضيقه من المرأة اليهودية وابنها الشاب اللذين لا يكفان عن الثرثرة المتصلة والصياح على نحو يثير الأعصاب حـتى السـاعة العاشرة مساء . فاضطر مؤلفنا إلى تنبيههما بأنه يريد أن ينام فاشـتكت المـرأة الـيهودية وابنها لدى صاحبة الفندق واتهما مؤلفنا بشتمهما وتوجـيه الإهانة لهما كما هدداها بترك الفندق . واغتاظ دستيوفسكي من قلب

الحقائق وهدد بأنه أيضا سوف يترك الفندق . عندئذ هدأت صاحبة الفندق من روعــه . وطرأ على مسلك المرأة اليهودية وابنها نوع من التحسن فقد توقفا عن الصياح ولكنهما لم يتوقفا عن التحدث بصوت مرتفع .

وتتضــمن خطابات دستيوفسكي الأخرى إلى زوجته إشارات عديدة إلى ســوء مســلك اليهود مثل وصفهم قائلا : " أن اليهود ينتشرون في كل مكان ويســتولون على كل شيء . وليس هناك حد لأعمال النصب التي يمارسونها فهــم يضــايقونني بالمعــنى الحرفــي للكلمة . " وأيضا سطر عددا آخر من الخطابــات عــام ١٨٧٨ يتضــمن المزيد من أفكاره السيئة عن اليهود مثل الخطاب الذي أرسله في ٢٨ فبراير ١٨٧٨ إلى نيكولاي ايفانوفتش جرتشنكو والــذي يــتحدث لأول مــرة عن المؤامرة التي يحكيها اليهود للسيطرة على الصــحافة الروســية بتشجيع وتحريض من العناصر الليبرالية الداعية إلى أن تقفــو روسيا أثر الغرب . وقامت صحيفة الزمن الجديد المعادية للسامية بنشر نــص الخطــاب في عددها الصادر في ١٨ - ٣٠ مارس ١٨٩١ حيث يقول دستيوفســكي إن اليهود يحيكون مؤامرة للسيطرة على الصحافة الروسية عن طــريق تمويلهــم لعدد كبير من الصحف والمجلات الروسية . ويعيب مؤلفنا على الليبراليين النظر إلى اليهود باستمرار على انهم ضحية ظلم الآخرين في حيــن أن هــؤلاء المظلوميــن قد تحولوا بمرور الزمن إلى ظالمين يسومون الشعب الروسي مر العذاب .

وثمة موضوع آخر تطرق إليه دستيوفسكي في رسالته المؤرخة في ١٨ أبــريل ١٨٧٨ للرد على تساؤلات واستفسارات خمسة طلاب بجامعة موسكو موضــحا لهــم الدور النشيط الذي لعبه اليهود في إذكاء الحركات الفوضوية والــثورية فــي روسيا وهو الأمر الذي يدحضه المدافعون عنهم . ومن بين الأحــداث التــي ســاقها مؤلفنا لإثبات تورطهم في مناهضة النظام القيصري والســعي إلــى الإحاطة به حادثة مظاهرة حاشدة وقعت في ميدان كازان في ديســمبر ١٨٧٦ حيث قبض البوليس على ثلاثة يهود وقدموهم إلى المحاكمة فــي بطرسبرج في يناير ١٨٧٧ . وقد قام عدد من الطلبة والشباب الروسي بتنظــيم هذه المظاهرة تكريما لذكرى السجناء والمنفيين في سيبريا الذين لقوا حــتفهم . ورغم أن دستيوفسكي أظهر تعاطفه مع الشبان المتظاهرين فإنه لام بعضــهم لأنهم دنسوا المقدسات وهيكل الكنيسة التي رغبوا في إقامة الاحتفال

فيها . وأيضا عالج مؤلفنا موضوع مظاهرة الطلبة في ميدان كازان في خطابه إلى بوتسيكوفتش المؤرخ في ٢٩ أغسطس ١٨٧٨ والذي جاء فيه إن اليهود يستحقون الزراية والتحقير لأنهم طغمة من التجار والمرابين الصغار الذين يثيرون الضحك والاستهزاء أكثر مما يثيرون من مقت وكراهية . ويأسى دستيوفسكي لأن شوكة هؤلاء المستضعفين ما لبث أن قويت في نهاية الستينات وفي عقد السبعينات حيث اصابوا ثراء عريضا وباتوا يستغلون الشعب الروسي نفسه ويعملون على تدمير الحضارة المسيحية عن طريق انخراطهم في صفوف الثوار والفوضويين ونشر الأفكار الاشتراكية الهدامة .

ويشير مؤلفنا في الكتابات التي سطرها في الفترة الأخيرة من حياته إلى قرب حدوث كارثة تتمثل في انهيار الحضارة الأوربية بسبب ماديتها واستيلاء اليهود على مقدرات العالم كله عن طريق التحكم في البنوك والمصارف وبيوت المال .

والجدير بالذكر إن إشارات دستيوفسكي إلى اليهود محدودة في رائعته الروائية " الأخوة كارامازوف " التي كتبها قبل وفاته بشهور قلائل . وهذا امر مستغرب بالنظر إلى شدة اهتمامه بمشكلة اليهود آنذاك فقد عالجها بكثير من الاستفاضة فيما سطره من مذكرات ومراسلات و " يوميات كاتب " . ورغم قلة الإشارات إلى اليهود في رواية " الأخوة كارامازوف " فلا مناص من أن نذكر أن بعض فصولها تحتوي على إشارات مستفيضة إلى موضوع يسيء إلى مشاعر اليهود وخاصة لأنه لا يعدو أن يكون أسطورة لا أساس لها من الصحة استمرت في الرواج منذ القرون الوسطى حتى وقت قريب . ومفادها أن اليهود يسفكون دم الأطفال المسيحيين كي يستخدموه في إقامة بعض طقوسهم الدينية في عيد الفصح . يقول الباحث ليونيد جروسمان في هذا الشأن أن دستيوفسكي اعتاد مطالعة الحوادث التي تنشرها الصحافة بنهم شديد والاستفادة منها في تأليف أعماله الفنية . ومن بين هذه الحوادث ذلك الحادث الذي اوردته الصحف في ليلة عيد الفصح الموافقة ٤ أبريل ١٨٧٨ عن فتاة ريفية صغيرة اسمها سارة اختفت من قريتها في جورجيا . واكتشفت جثتها وقد غطت يديها الجروح بعد مرور يومين من اختفائها . وتم القبض على بعض المشتبه فيهم من الجيران ولكن التحقيق أثبت أن الموت حدث قضاء وقدرا نتيجة انهمار السيول الجارفة . وبرأت المحكمة ساحة المقبوض عليهم .

ويــرى جروســمان أن دستيوفســكي استفاد من هذه الحادثة في تأليف بعض أجــزاء " الأخــوة كارامــازوف " . وأيضا يرى بعض الدارسين أن احجام شخصيته اليوشا التي تمثل الطهارة والفضائل المسيحية عن إنكار حدوث مثل هذه القصة ينم عن تحامل مؤلفنا الدفين على اليهود.

وهكــذا يتضح أن مشكلة اليهود شغلت بال دستيوفسكي منذ بداية عهده بالكــتابة حــتى وفاته . فضلا عن أنه دعا في محاضرته الشهيرة في ذكرى شــاعر روسيا العظيم بوشكين إلى وحدة الجنس البشري ولكنه استثنى اليهود من هذه الوحدة لأنهم لم يعودوا يشكلون أمة قائمة بذاتها أو كيانا قوميا . والذي لا شــك فيه أن هناك علاقة وثيقة بين مقت دستيوفسكي للحضر وحبه للريف وبيــن معاداتــه لليهود . فاليهود لعبوا دورا حيويا في نقل المجتمع الروسي الريفــي إلــى مجتمع بورجوازي صناعي كي يستأثروا به وينعموا بمغانمه . والــرأي عــنده أن المــال هو سبيل اليهود للتحكم السياسي في العالم وتسيير مقدراته على النحو الذي يشاءون .

القسم الثاني

اليهود في الأدب السوفيتي في القرن العشرين

....

تمهيد :

درج الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية – شأنه في ذلك شأن الآداب الأوربية – على رسم صورة اليهودي على نحو نمطي وكاريكاتوري يدعو إلى الزراية ويبعث على الإضحاك . وحتى عندما توقف الأدب الروسي عن الزراية باليهود وأظهر نوعا من العطف عليهم مثلما نجد في أدب ماكسيم جوركي وأندريف نراه يستمر في تصويرهم على نحو نمطي بعيد كل البعد عن حياتهم الواقعية . وعندما قامت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ أجرت تغييرات اجتماعية واقتصادية شاملة في المجتمع الروسي وسعت ما وسعها السعي إلى إزالة الفوارق بين القوميات والأديان المختلفة . واعترفت الثورة البلشفية بحق الأقليات العرقية في تقرير مصيرها كما تنص على ذلك الفقرة ١٢٣ من دستور ١٩٣٦ التي تقول :

" يصبح قانونا واجب النفاذ إقرار الحقوق المتساوية لجميع مواطني اتحاد الجمهوريات السوفيتية بغض النظر عن اختلاف قوميتهم أو جنسهم في شتى مجالات الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية وتعاقب وفقًا لأحكام القانون أية انتهاكات مباشرة أو غير مباشرة لهذه القوانين . أو بالعكس منع أية انتهاكات مباشرة أو غير مباشرة للمواطنين بسبب عرقهم أو قوميتهم كما ينص القانون على معاقبة أية دعاية من شأنها الحض على التفرقة العرقية أو القومية أو بث الكراهية والاحتقار " .

وسرعان ما أدت القوانين الجديدة التي تكفل الحقوق المتساوية لكافة أقليات الجمهوريات السوفيتية إلى إحداث تغيير كبير في حياة اليهود .فقد أزيحت عن كاهلهم القيود المفروضة على إقامتهم والتي تلزمهم بالسكنى في

الأماكـــن المخصصـــة للـــيهود . وبمجيء عام ١٩٣٩ كان ٤٠% من اليهود الروس يعيشون خارج الأماكن المخصصة لهم . ورغم أن نسبة اليهود لم تزد على ١,٧٨% من إجمالي سكان الجمهوريات السوفيتية فقد كانت نسبة التعليم بينهم مرتفعة فهم يمثلون ١٠% تقريبا من مجموع الطبقة المثقفة و ١٧% من مجمـــوع الأطـــباء و ١٠% من مجموع الطلبة في الجامعات والمعاهد العليا وأيضا استطاع كثير من اليهود أن يحتلوا مراكز مرموقة في عالم الأدب فبرز مـــنهم في مجال النثر بابل واهرنبرج والف وجره سمان وغيرهم وفي مجال الشـــعر باجرتيســـكي وألـــيجر ومارشـــاك وإيـــبر وفي مجال النقد ليشفتس وسكولوفسكي .

ولكـــن من الخطل أن نظن أن الثورة البلشفية استطاعت أن توفر الأمن الكامل لليهود . ففي العشرينات من القرن العشرين نشأت الحرب الأهلية بين الـــروس الحمـــر الموالـــين للنظام الشيوعي والروس البيض الموالين للنظام القيصـــري المخلـــوع . واشـــتدت هذه الحرب بوجه خاص في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية من اليهود صاحبها مجازر أودت بحياة يهود كثيرين . وصور نيكولاي أوستروفسكي في روايته " صنع بطل " (١٩٣٧) إحدى هذه المجازر التي وقعت في حي اليهود في مدينة أوكرانية . تقول الرواية :

" كثيرون لن ينسوا أبدا هاتين الليلتين أو الثلاث أيام الفظيعة فقد قتل منهم عـــدد لا يحصى منهم وشوهوا وفقدوا أطرافهم . وشاب من الهول عدد كبير مـــن الشـــبان خـــلال الساعات التي تقطر دما : وليس من المؤكد أن اليهود الناجيـــن بحـــياتهم شـــعروا بالسعادة لأن أرواحهم تحولت إلى خرابات نتيجة إحساســـهم بخـــزي وعار لا يمحى واستهزاء ومذلة لا تطاق .. ونتيجة الآلام المـــبرحة التي كابدتها قلوبهم بسبب فقد الأعزاء . " وقد انعكست هذه الآلام علـــى شـــعر البيديش لدرجة أن النقاد اللاحقين أرخوا لهذه الفترة من الإنتاج الأدبي اليهودي بفترة النحيب .

وكـــان من الطبيعي أن يعكس الأدب اليهودي في تلك الفترة وعياً شديداً بأوجاعهـــا وأحـــزانها . والجديـــر بالذكر أن جانبا كبيراً من الأدب اليهودي الخاص بتلك الفترة درج على تصوير اليهود على نحو نمطي مثلما فعل اسحق بـــابل فـــي روايته " سلاح الفرسان الأحمر " (١٩٢٦) . وتتميز الشخصيات الروائية اليهودية التي رسمها بابل بأنها صور كاريكاتيرية . ولكنها شخصيات مقنعة تبدو مأخوذة من الواقع . ويستبد الاضطراب بعقولها وتحس بأنها ليس لهـــا حول أو قوة ويصيبها الفزع من جراء المجازر . ويعجز اليهود عن أن يفهمـــوا كيف يتهمهم البلاشفة الذين جاءوا لتحريرهم من إسار العبودية بأنهم أعداء الطبقة العاملة . واليهود في أدب بابل لم يتحرروا تماما من حياة الجيتو ومشاعرها .

وتصور الرواية التي ألفها الكاتب اليهودي ليبيدنسكي عام ١٩٢٢ بعنوان " أســـبوع " معارضـــة اليهود المنتمين إلى الطبقة البورجوازية ممن أصابوا نجاحا في عهد القيصرية ضد النظام البلشفي الوليد . ولكن هذه المعارضة لم تـــدم طويـــلا فقد انتهى الأمر باليهود إلى مساندة الثورة الشيوعية وتعضيدها نظـــرا لشعورهم بأن ثمة ارتباطا بين مناصبة الثورة البلشفية العداء والتهاب المشـــاعر المعاديـــة للســـامية . فضلاً عن أن كثيرا من اليهود انخرطوا في صـــفوف اليســـاريين الـــثوار الذين أشعلوا نيران الثورة الشيوعية . والجدير بالذكـــر أن هـــؤلاء اليهود المنضمين إلى صفوف البلاشفة هم الذين يحرص الأدب الســـوفيتي على تصويرهم فرواية ليبينسكي التي أصدرها عام ١٩٢٦ بعـــنوان " الكوميسار " تدور حول قوميسار يهودي في أعقاب الحرب الأهلية الروسية . ورغم أن الرواية لا تحدثنا بصراحة عن جنسية هذا القوميسار فإن كـــل الدلائل تشير إلى أنه يهودي . ويعجب رؤساؤه من شدة إخلاصه وولائه للحزب الشيوعي . وهو نموذج للفضيلة والأخلاق الحميدة . واللافت للنظر أن الـــنقاد السوفيت تجاهلوا تماما جنسيته اليهودية وركزوا تركيزا يكاد أن يكون كاملا على أنه نموذج يحتذى للبطولة السوفيتية .

ثم تطور هذا النموذج البطولي حتى أصبح إحدى سمات الأدب السوفيتي البارزة كما يتجلى لنا في شخصيته أوسيب أبراموفتش ليفنسون وهو شيوعي يهـودي مغـوار أولـى ظهره للماضي وآمن إيمانا راسخاً بالمستقبل رسمه الروائي الكسندر فاديف في روايته " التاسع عشر " عام ١٩٢٦ . وقد أبلى هذا الـيهودي بـلاء حسنا في الحرب التي خاصتها روسيا ضد الاحتلال الياباني لأراضـيها . وفـي عام ١٩٤٧ ذاعت هذه الرواية بين الروس ذيوعاً عظيما لدرجـة أن الحكومة السوفيتية أعادت طبعها خمسة وسبعين مرة في أكثر من ستة عشر مليون نسخة .

غـير أن الأديب الروسي ميخائيل شولوخوف حظى بشهرة تفوق شهرة فاديف كما ان روايته " نهر الدون الهادئ " حظيت بشهرة تفوق شهرة رواية فـاديف " التاسـع عشر " . وتصور رواية شولوخوف الأعمال البطولية التي اضطلعت بها يهودية تدعي أنا بوجودكو ابان الحرب الأهلية . ومعنى ذلك أنه إذا كـان بعـض اليهود – كما أوضحنا – عبروا في أدبهم عن سخطهم على الـنظام البلشـفي فإن بعضهم الآخر رحب باقامته وتهلل لقدومه . وليس أدل علـى التغيير الكبير الذي طرأ على موقف الأدب الروسي من اليهود من أن الكاتـب الروسـي فـاديف يصور في رواية " التاسع عشر " اليهودي كبطل صنديد يدافع بشجاعة واستبسال عن النظام الشيوعي .

وفـي عـام ١٩٢٢ اتبعـت الحكومة السوفيتية في عهد لينين ما يعرف بالسياسـة الاقتصادية الجديدة وهي سياسة ليبرالية سمحت برفع القيود الجامدة المفروضـة علـى حركة التجارة الروسية . وانتهز عدد كبير من اليهود هذه الفرصـة السانحة فعـادوا إلى ممارسة مهنة التجارة التي أتقنوها على مر القـرون والأجيال . وكما يتضح لنا من الأدب السوفيتي استطاع بعض اليهود آنـذاك أن يجنـي ثـروات مـن وراء الاشتغال بالتجارة . وقد سجل الأدب السـوفيتي هـذه الظاهرة واصما هؤلاء اليهود المنتفعين بأنهم أبناء السياسة الاقتصادية الجديدة . وظهرت في الفترة من ١٩٢٧ حتى ١٩٢٩ ، وهي فترة

اتباع السياسة الاقتصادية الجديدة - مجموعة من الروايات التي تدور حول يهود مضاربين في بيوت المال . ومن بين هذه الروايات التي تصور اليهود الذين انتعشوا اقتصاديا بسبب السياسة الاقتصادية الجديدة - رواية ألفها مارفي روازمان بعنوان " ناقص ستة " التي ترسم اليهود على نحو لئيم وبخيل وطماع. وفي عام ١٩٣٣ ألف بيريتس ماركيش مسرحية بلغة البيديش بعنوان " المستوى الخامس " تناولت النواحي المعادية للسامية التي ظهرت في بداية الخطة الخمسية الأولى . وتروي لنا أحداث هذه المسرحية إحجام عمال المناجم الروس عن العمل جنبا إلى جنب مع العمال اليهود . ولكن الأدب الروسي الصادر في تلك الفترة يصور كيف تصدى الشيوعيون الروس لمقاومة ظاهرة معاداة اليهودية ، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الثورة المضادة المتمثلة في طبقة الكولاك أو صغار المزارعين وغيرهم من المخربين والمتآمرين . وقد شاهدت تلك الفترة ظهور كتب تدافع عن اليهود مثل " من يشوه سمعة اليهود ولماذا ؟ " و " كراهية اليهود " و " حقيقة اليهود ".

ومن الكتب المناهضة لمعاداة السامية ذلك الكتاب الذي ألفه ميخائيل كوزاكوف عام ١٩٢٨ بعنوان " الرجل الذي يقبل الأرض " . ويأسف راديشتشيف لأن بعض الشيوعيين الواعين طبقيا لا يخلون من العداء للسامية . يقول راديشتشيف في هذا الشأن :

" لقد قامت ثورة اكتوبر بحل مشكلة اليهود .. ولكن نفاد الصبر القومي لا يزال مستمرا .. إن الجوهر السياسي لمعاداة السامية لا يزال خافيا على كثير من العمال بل وخافيا حتى على الشيوعيين الواعين أنفسهم .. فمعاداة السامية لواء أو ستار تختفي وراءه الثورة المضادة "

والجدير بالذكر أن الحكومة السوفيتية في الثلاثينيات والأربعينات أرادت أن تحل مشكلة اليهود عن طريق ترغيبهم في إعادة توطينهم في مناطق شاسعة ونائية للغاية في شرق البلاد . وأغرت الحكومة السوفيتية اليهود بأنهم يستطيعون أن يقيموا هناك مجتمعات يهودية خالصة تتمتع بالحكم الذاتي .

وفي عام ١٩٣٩ امتدت سياسة إعادة توطين اليهود في أوكرانيا والقرم لتشمل خمس مستعمرات جديدة .

وفي بادئ الأمر استطاعت هذه المشروعات الاستيطانية أن تجذب اليهود من روسيا ومن خارج روسيا إليها لدرجة أن شاعراً كبيراً من شعراء اليديش هـو أنسـيك فيفر زار هذه المناطق النائية وعاد منها ليتغنى بالوطن اليهودي الجديد الذي كان اليهود في سبيلهم إلى إنشائه هناك . وبعد أن وضعت الحرب العالمـية الثانـية أوزارها استمرت الحكومة السوفيتية في تشجيع اليهود على استيطان المناطق الروسية النائية . وأصابت هذه السياسة شيئا من النجاح فقد تضاعف في عام ١٩٤٦ عدد الصحف الصادرة باليديش هناك عما كان عليه عـام ١٩٣٩ . ولكـن قسوة الحياة في المناطق الجديدة أدى إلى تعثر سياسة توطين اليهود . ورغم قسوة هذه السياسة الستالينية فإنه يمكن القول أنها كانت أرحم بكثير من السياسة التي أتبعها هتلر في إبادة اليهود .

ويلاحظ أن الحكومة السوفيتية منذ البداية شجعت إقامة المدارس لتدريس اليديش وأن يتلقى اليهود تعليمهم بها . وبمضي الوقت نجح اليهود الروس في خلق ثقافة سوفيتية خاصة لهم بهذه اللغة . فضلا عن السماح بإقامة أربع دور نشر كبيرة لإصدار كتب بلغة اليديش . وبمجئ عام ١٩٣٣ كانت هذه الدور الأربعـة قد نشرت ٣٩١ كتابا في نحو مليون ونصف نسخة . وأثمرت ثقافة اليـديش فـي خلـق عدد من الأدباء اليهود البارزين الذين يؤلفون بها أمثال بيرجلسـون ودانييل في النثر وريفتكو وفيفر وهومشتين وماركيش في الشعر وقد فاز هؤلاء الأدباء بالجوائز والتقدير اللائق بهم . ويعتبر إنتاجهم جزءا من الإنـتاج الثقافي للاتحاد السوفيتي بوجه عام . وحتى نستيقن من انتشار أدب اليديش نقول أنه في الفترة في ١٩٢٢ حتى ١٩٣٩ بلغت أعمال بيرتس كاتب اليـديش ملـيون ومائـة وثلاثة وتسعين ألف نسخة ظهرت في ثلاث لغات سـوفيتية كما أن أعمال ليب كفيتو ظهرت في ستة ملايين ونصف نسخة في اثنيـن وعشرين لغة من لغات الاتحاد السوفيتي . وبطبيعة الحال لم يكن من

الممكن أن تشجع السلطات السوفيتية اليهود على إنتاج أدب البيديش لو لم يكن هذا الأدب متفقا مع المذهب الاشتراكي وطموحات طبقة البروليتاريا . ومعنى هذا أن ثقافة البيديش كانت قومية في شكلها واشتراكية في مضمونها . وأيضا كـــان من الطبيعي أن يحارب أدب البيديش الحض على الكراهية القومية وأن يدعو إلى الأخوة بين اليهود وغير اليهود الأمر الذي دعا شاعر البيديش فيفر لأن يقـــول : " أننـــا نحـــارب الأفكار القومية الانعزالية كما أن أدب البيديش السوفيتي وثقافتنا تنموان وتترعرعان بفضل حربنا ضد النعرة القومية "

وبـــنهاية الثلاثيـــنات تحول الاتحاد السوفيتي برمته إلى مجتمع صناعي جماعـــي . وتم تحويل اليهود غير المنتجين إلى فئة اجتماعية عاملة كما تدل علـــى ذلك الإحصائية التي أجراها الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٩ والتي يتضح منها توزيع الأشغال بين اليهود الروس على النحو التالي :

نسبة العمال والمواطنين	٧١,٢%
عاملون في المزارع الجماعية	٥,٨%
حرفيون عاملون بالتعاونيات	١٦,١%
حرفيون مستقلون	٤%
اشغال أخرى	٢,٩%

وهكـــذا تحـــول الـــيهود الروس في نظر الحكومة السوفيتية من فئة من صـــغار البورجوازيـــن الانفصـــاليين وغـــير المنتجين إلى جزء من الكيان السوفيتي كما أنهم لم يعودوا عنصرا من عناصر الفساد والإفساد أو غرباء أو أجانـــب كمـــا دأب دعاة السلافية في القرن التاسع عشر على اعتبارهم . وإذا كانت الإحصائية السالفة الذكر لا تبين على وجه التحديد كم كانت نسبة اليهود العمـــال ونسبـــة اليهود الذين يشغلون وظائف عليا في الإدارات العمالية فإن الأدب السوفيتي يشير إلى قلة عدد اليهود المشرفين على المصانع أو يشغلون وظـــائف إدارية عليا . كما يدل هذا الأدب على ضآلة عدد اليهود الزراعيين

العامليـن في المزارع الجماعية التي تستخدم كلا من الروس واليهود على حد سواء .

ولكـن أدب اليـديش – علـى عكس الأدب السوفيتي – يتناول اليهود كفلاحين وعمال يدويين .

ولم تكن مهمة تحويل اليهود من تجار إلى عمال بالمصانع مهمة سهلة بل انطـوت على صراع محتدم بين العناصر الموالية للنظام السوفيتي والعناصر المـناوئة له . ويمكن القول أن اليهود المتقدمين في العمر كانوا يرغبون في الاحتفاظ بعاداتهم القديمة وأخلاقيات الجيتو على عكس الجيل الجديد من اليهود الـذي يـتطلع إلى تغيير نمط حياتهم تغييرا كاملا والجدير بالذكر أن الأدب الروسـي أولى الجيل القديم اهتمامه ونجح في معالجته معالجة فنية أكثر من نجاحه في التعامل مع الجيل الجديد مثلما نلاحظ في الرواية التي ألفها الروائي اليهودي إليا اهرنبرج بعنوان " بعيداً عن الفوضى" وتدور رواية "أجلوميرات" التـي تعالج موضوع التصنيع حول محاولة تحويل يهودي كبير في السن إلى عامل في مصنع . غير أن هذه المحاولة تنجح ظاهريا فقط في تحويله فهو لا يـزال يحتفظ بعاداته ومواقفه وأخلاقياته القديمة. ويعبر اليهودي العجوز عن عـدم اقتـناعه بعملـه الجديد فهو يقول : " إنني اقطع الحجر من أجل كسب الرزق وأنا لا أحب هذا العمل ولكنك لن تستطيع اقناعي به . فقد كان الأجدر بهـم إلا يسـتبعدوا الـيهود من التجارة " . ويتجلى نفس الشئ في الكوميديا الروسية التي ألفها الكسندر ميروفتش عام ١٩٣٣ بعنوان " الأب المجهول "

وإلـى جانـب هذا الجيل من اليهود المشوش الذهن وغير المقتنع تماما بالنظام الجديد نرى جيلا آخر أصغر في السن يظهر بطولة فائقة في الاجتهاد والعمل على نجاح الخطة الخمسية ولا تقل بطولتهم عن أسلافهم الذين أشعلوا نـار الـثورة الشـيوعية واشتركوا في الحرب الأهلية ضد الروس البيض . ويعتـبر نقـاد اليـديش ايلك ردنر بطلة الرواية التي ألفها لورى " الاستبس يـناديكم " نموذجا رائعا للبطولة السوفيتية والولاء للحزب والشجاعة . ونحن

نرى هذه البطلة تحث اليهود على التحول إلى فلاحين في المزارع الجماعية. ويثلج صدر هذه البطلة أن ترى الجيل القديم يتهاوى ليخرج من صفوفه جيل جديـد يرحب بالنظام الجديد وبالتغيرات الجديدة ونحن نجد نفس الولاء للنظام السوفيتي والحزب الشيوعي ونفس الإحساس العميق بالمسئولية عند بطل آخر اسمه بريسكر رسمه الكاتب برجلسون في رواية " القاطنون في بيروبيدران "

ويشير النقاد السوفيت إلى عدم وجود أية فروق بالمرة بين هؤلاء اليهود الذيـن يـتحدثون لغـة اليـديش وبين الأبطال الروس الذين أفرزتهم الخطة الخمســية وترسم رواية " وقت للتقدم إلى الأمام " التي ألفها فالتين كاتيف عام ١٩٣٢ نموذجا يحتذى لمهندس يهودي يدعى مارجوليس يعتبر مثلا أعلى في التنظيم وحسن الإدارة والولاء للنظام والتضحية بالنفس في سبيل تحقيق أهداف هــذا النظام الاجتماعية . وليس هناك في شخصية هذا اليهودي ما يميزه عن سائر العمال الروس إلا اسمه وأن والده هلك عام ١٩٠٥ في مجزرة يهودية . ومعنى هذا أن الأدب الروسي الذي يتناول الخطة الخمسية لا يختلف في شئ عــن معالجــة أدب البيديش لهذه الخطة . وباختصار لم يعد اليهودي في فترة الخطة الخمسية يخجل من يهوديته بل أصبح يباهى بالجهد الذي يبذله في سبيل إقامة المجتمع الاشتراكي المنشود . وهو لا يحس بأدنى فرق بينه وبين العمال الروس . حتى جيل اليهود الكبار في السن الذي ناصب الثورة البلشفية العداء بــدأ في الانقراض ولم يبق غير نوعين : نوع لا يكترث بالثورة ونوع يتفانى في خدمتها والإخلاص لها . حتى اليهود الذين ظلوا مناوئين للثورة لم يعودوا محل سخط النظام الشديد كما كان الحال في الماضي الأمر الذي يدل على أن شيئا من المهادنة والتغير أخذ يطرأ على الثورة بعد أن رسخت أقدامها .

وقــرب نهاية عقد الثلاثينات في القرن العشرين كانت هناك دلائل تشير إلى تحسن علاقة فلاديمير لينين باليهود مما ساعدهم على استقصاء تاريخهم. وفي عام ١٩٣٨ قدم مسرح البيديش مسرحية بعنوان " باركوخبا " من تأليف هالكيــن تــدور أحداثها التاريخية حول ثورة العبيد اليهود في روما القديمة .

وعندما أصبحت ألمانيا النازية تمثل تهديدا للاتحاد السوفيتي لجأ السوفيت إلى عرض أفلام تدل على المعاملة الوحشية التي لقيها اليهود على أيدي النازيين . وفي عام ١٩٣٩ احتفلت السلطات الروسية في حديقة منيسك ببلوغ الكاتب اليهودي شوليم أليكهيم سن الثمانين عن طريق إقامة مهرجان أطلق عليه مهرجان الصداقة بين الشعوب . وفي الكلمة التي ألقاها كاتب روسي بهذه المناسبة نراه يعاير الفاشست البرابرة لأنهم ينظمون المجازر للقضاء على اليهود ويسنون القوانين لاضطهادهم ويسعون إلى تدمير صفوة المثقفين التقدميين بينهم في حين ان السوفيت يقيمون حفلا لتكريم هذا الكاتب اليهودي . ومن ناحيتهم انتهز اليهود هذه الفرصة ليؤكدوا أنهم لم يعودوا أقلية قومية في روسيا .

وبالإضافة إلى ذلك قدمت مسارح الييديش مسرحية تاريخية أخرى عن اليهود ألفها م . دانييل بعنوان " سليمان ميمون " كما أن المسرح الأوكراني في أوديسا قدم باللغة الأوكرانية مسرحية ألفها شوليم إليكهيم بعنوان " تيفني " وأيضا في عام ١٩٤٠ أعاد مسرح مالي أحياء مسرحية يهودية بعنوان " أوريل أكوستا " وصفت بأنها أفضل المسرحيات التي قدمت في ذلك الموسم المسرحي .

ومن المسرحيات ذات الدلالة في هذا الشأن مسرحية ألفها شينين والأخوان تور عام ١٩٤٠ بعنوان " زواج غير متكافئ " . وتدور أحداث هذه المسرحية حول شاب أمريكي يشترط عليه والده اليهودي المهاجر أن يعود إلى أوكرانيا للزواج من فتاة يهودية من أهل بلدته . ولكن هذه الفتاة ترفض هذه الزيجة وتأبى أن تتخلى عن حياتها الروسية رغم قسوتها كي تعيش في رفاهية وشرف أمريكي . وفي عام ١٩٤١ ألف نيكولاي بوجودين مسرحية بعنوان " أجراس الكرملين تدق " والمسرحية تحكي عن صانع ساعات يهودي استدعاه زعيم الثورة البلشفية لينين كي يجعل أجراس الكرملين الخرساء تدق. ورغم أن هذا اليهودي العجوز لا يكترث بلينين ولا يحس بأهميته فإنه يشعر بالشرف

والفخار أن الحزب الشيوعي أسند إليه هذه المهمة وبعد أن أتمها بنجاح رفض أن يتقاضى من لينين أجراً واكتفى بالشرف في ان يكون أول صانع ساعات في العالم يجعل أجراس الكرملين تدق النشيد الشيوعي الدولي المعروف .

وشيئاً فشيئاً وبزيادة عدد اليهود في الاتحاد السوفيتي نتيجة ضم اثنين مليون يهودي بولندي إليهم أخذت الثقافة السوفيتية تتشرب ثقافة اليديش بحيث أصبحت ثقافة اليديش رافدا مهما في الثقافة السوفيتية .

وعندما قامت القوات النازية بغزو الأراضي السوفيتية في شهر يونيه عام ١٩٤١ تعرض اليهود في روسيا إلى عمليات إبادة جماعية . وقد عبر الشاعر الكسي سيركوف في شعره عن الفظائع التي اقترفتها القوات النازية ضد اليهود. وتصور لنا إحدى الروايات الروسية وعنوانها " الشمس تشرق من الشرق " (١٩٤٦) . وهي من تأليف تاتيانا فاليدنتسكايا – بكثير من التفصيل أحداث الجيتو اليهودي الدامية في غرب أوكرانيا حيث أقدم الجيش النازي على نحر اليهود وهم يتدثرون بشيلان الصلاة ويساقون إلى العراء في ميدان عام ليلقوا حتفهم بالجملة . وتعطينا الرواية التي ألفها بوريس جورباتوف بعنوان " عائلة تاراس " صورة لمصرع أعداد كبيرة من اليهود الأوكرانيين على أيدي الألمان بعد جمعهم في هاوية سحيقة ويحكى الشاعر البيلوروسي يانكا كوبالا في إحدى قصائد البالاد التي لم يستكملها قصة تسعة يهود يصدر إليهم النازيون الأوامر بحفر قبورهم بأنفسهم كي يدفنونهم فيها رغم أحياء . وأيضا يصور الروائي اليهودي الأوكراني يوري سموليتش في إحدى روايات الحرب التي ألفها عام ١٩٤٥ – ١٩٤٦ بعنوان "لم يمروا" منظر مدينة خاركوف المرعب عند دخول الألمان فيها وكيف أنهم جمعوا كل اليهود في الجيتو بزعم نفيهم في حين كان الهدف الحقيقي إطلاق النار عليهم . ويقال إن عدد الضحايا اليهود في مدينة خاركوف بلغ عشرات الألوف . ورغم عدم توفر إحصائية دقيقة تعدد الضحايا اليهود فإن عددهم في بابي يار بمدينة كييف وحدها يقدر باثنين وخمسين الف يهودي وفي مدينة دنبروبتروسك بستة

وعشـــرين ألفا وفي بافلو جراد بأربعة آلاف وفي خاركوف بثلاثة عشر ألفا . ويقول الكاتب فاسيلي جروسمان أن أكثر من مائة ألف يهوديا قتلوا في منيسك فـــي غضـــون سنتين . ويذكر الكاتب الروسي المعروف الكسي تولستوي في إحـــدى مقالاتـــه النارية : " في شمال القوقاز قام الألمان بإبادة كل السكان اليهود وكان معظمهم قد تم اجلاؤهم في لينجراد وأوديسا وأوكرانيا والقرم . " وأمـــام الوحشـــية النازية لم يجد اليهود الروس غير أدب الييديش للتعبير عن محنـــتهم المروعة يستمدون منها الأمل و الإلهام مما مثل المسرحية التي ألفها برجلســـون عام ١٩٤٢ بعنوان " سوف أعيش ". وتدور هذه المسرحية حول خبير زراعي يهودي عجوز يمعن النازيون في تعذيبه لاستخلاص المعلومات منه . وأحضروا ابنته العذراء وهددوه بهتك عرضها إذا أصر على الصمت . ولم يرضخ الرجل لتهديدهم وآثر أن يموت وهو يصلي لابنته كي تحافظ على عفافهـــا حـــتى إذا أفضى بها الأمر إلى الموت . والمسرحية لا تنطوي على الأمل فقط بل تدعو إلى انتقام اليهود من أعدائهم . وأيضا ينعي كاتب الييديش انســـيك فيفر إبادة اليهود الفقراء داخل الجيتو في وارسو ببولندا داعيا الله أن يستمد شعب إسرائيل الإلهام من بطولته واستبساله في مقاومة البولنديين .

ونحـــن نجد نفس الشيء في شعر أوشروفتش الذي يصف معاناة اليهود وهم يحرقون أحياء أثناء الصلاة في الهياكل والمجامع . ويطلب منهم الشاعر أن يخففـــوا آلامهم بالثأر لأنفسهم من مضطهديهم . واستخدام النازيون سياسة فـــرق تســـد في الأراضي التي قاموا باحتلالها أثناء الحرب العالمية الثانية . ويدلنا كتاب " المرشد إلى التحريض " الصادر عام ١٩٤٢ على أن هتلر كان يحـــرض البلجيكيـــن ضـــد الفرنسيين ويستعدي الروس على الأوكرانيين ثم يحـــرض الجمـــيع لكراهـــية اليهود ومعاداة السامية الأمر الذي جعل صحيفة " الدعائي " تحذر الناس من مغبة الوقوع في شرك هذه السياسة الخبيثة القائمة علـــى ضـــرب القوميات بعضها ببعض .وتسوق الصحيفة موقف ستالين من قضية معاداة السامية كما عبر عنه عام ١٩٣١ . يقول ستالين :

" إن عــداوة السامية – وهي اكثر مظاهر السوفيتية تطرفا – هى أخطر مظاهــر الوحشــية وأكل لحوم البشر ... إن عداء السامية خطر يتهدد الطبقة الكادحــة لأنــه يحــول انتباهــنا إلى أهداف زائفة ويعود بنا إلى حياة الغابة والوحوش الكاسرة . ولهذا فإن الشيوعيين كمؤمنين بالنظام الشيوعي الدولي لا يملكــون ســوى أن يناصــبوا كراهية اليهود مر العداء . وعداوة السامية في الاتحــاد الســوفيتي أمر يعاقب عليه القانون أشد العقاب باعتباره أشد مظاهر العداوة للنظام السوفيتي . "

لقــد ربط البلاشفة في بداية الثورة الشيوعية بين الثورة المضادة ومعاداة السامية . ونحن نرى شيئا شبيهاً بهذا في الأدب الروسي الذي يتناول الاحتلال الــنازي فهــو يصــور أعــداء السامية بأنهم طغمة من الخونة والمتخاذلين والمرتدين .

ويحدثنا الكاتب الروسي اليهودي فاسيلي جروسمان في القصة التي ألفها عــام ١٩٤٢ بعنوان " المدرس العجوز " عن المشكلة التي يواجهها اليهود في مديــنة أوكرانية صغيرة . يقول جروسمان أنه بمجرد وصول القوات النازية المحــتلة إلــى الأراضــي الروسية انضم إليها حثالة المجتمع والهاربون من صــفوف الجــيش الأحمر . وكان أول ما قاموا به هو الاعتداء على اليهود . وفــي روايته " العاصفة " يرسم إليا اهرنبرج صورة مشابهة . وكذلك يرسم فيلبس لاتسيس في روايته " نحو الشاطئ الجديد " صورة لبعض سكان ليتوانيا المتعاونين مع الاحتلال النازي ويروي القائد الألماني بسرور وفخر كيف أنه قضــى على جميع اليهود في إحدى المدن الروسية الصغيرة في يوم واحد . والأدهــى مــن كل هذا ما نطالعه في الرواية التي ألفها أي فاليكمان بعنوان " الــنور يأتــي من الشرق " والتي تروي تخاذل اليهود العاملين في البوليس البولــندي وكيف أنهم خوفا على حياتهم قاموا بأنفسهم بتسليم بني جلدتهم إلى الألمان كي يعدموهم في معسكرات الاعتقال .

ولكـن الأدب السـوفيتي ازور عن تصوير خيانة الروس لليهود وخيانة اليهود لليهود لأن النظام السوفيتي لم يكن يسمح بذلك التشويه للحياة الروسية.. ففـي قصـة البيديش التي ألفها هرش دوبن بعنوان " سكر " نرى فلاحا من بيلورسيا لا يجد ما يقيم به أود أسرته التي تتضور جوعا فيتفتق ذهنه عن حل يتلخص في أن يقبض على يهودي ويسلمه إلى الألمان فيكافئونه بإعطائه كمية مـن السـكر حسـب وعدهـم المنشور في الإعلانات . ولكن قلب الرجل لا يطاوعه فنراه يعطف على المرأة اليهودية التي كان ينوي تسليمها إلى الألمان. وأيضـا يحدثـنا كوتشـورا في قصته " عائلة سوركين " عن عائلة فلاحين أوكرانية تعرض حياتها للخطر من أجل إنقاذ جارهم اليهودي العجوز. ونحن نطـالع نفس المؤازرة السوفيتية لليهود في قصة قصيرة روسية ألفها الكسندر بيزيمنسكي . حتى قصة جروتسمان الآنفة الذكر لا تخلو من مساعدات كثيرة يقدمهـا أهـل أوكرانـيا لليهود الأمر الذي يدل على أن الكتاب الروس أمثال جروسـمان ودوبن واهرنبرج وكوتشورا تعمدوا إبراز الجوانب الإيجابية في موقف الروس من اليهود وحتى تطغى الصورة الناصعة على القتامة المتمثلة في غدر الروس باليهود . والجدير بالذكر أن اتحاد الكتاب في أوكرانيا أنحى على الشاعر هولوفانيفسكي لأنه نظم قصيدة تصور الروس وهم يتفرجون بكل هدوء وسلبية على الألمان وهم يفتكون بأحد اليهود .

علـى أيـة حال لم تفرض السلطات السوفيتية حظراً على تناول الأدب لمحـنة الـيهود في فترة الاحتلال النازي وما تلاها . ففي الرواية التي ألفها فلاديمير بوبوف عام ١٩٤٩ بعنوان " الصلب والنفايات " نرى بسالة سوفيتية منقطعة النظير في صد الغزو الألماني لروسيا ورغم أن الرواية تروى المآسي التـي تعرض لها اليهود فإنها في نفس الوقت تصف بطولة الروس في الذود عـن أصـدقائهم الـيهود . وتدور رواية "الذهب" التي ألفها بوريس بوليفوي والمنشـورة في نهاية ١٩٤٩ حول طبيب يهودي تلقى القوات النازية القبض علـيه وتسـومه مـر العذاب . فضلا عن أن الكاتب الأوكراني أيا روسنلاف جـالان ألف في مايو ١٩٥٠ مجموعة من الاسكتشات تصور المصير الفاجع

الــذي لقيه عدد من كتاب البيديش هم كاتسايزن وبيرل وفيير وكنجسبرج إلى جانب الأعمال البطولية التي اضطلع بها شاعر البيديش شيدريك أثناء اشتراكه في المقاومة السرية ضد الغزاة الألمان . ويقص علينا جالان حادثة في منتهى الترويع والفظاعة عن أم يهودية وولديها الصغيرين اقتحم رجال الأمن النازي بيــتهم لإرغــام الأم علــى الإدلاء بمعلومات فلما فشلوا في ذلك ألقوا بالمرأة الضــحية على الفراش وشقوا بطنها بسكين مطبخ وسط هلع ابنيها وفزعهما . غــير أن جــالان في ـــنجة المجازر اليهودية لم يفصل المأساة اليهودية عن مآســي أهــل اوكرانيا وبولندا . ويعتبر لاتسيس الكاتب السوفيتي اللتواني في روايته " في اتجاه الشاطئ الجديد " (١٩٥١) التي سبق الإشارة إليها أن عداوة الســامية جزء لا يتجزأ من الغدر والخيانة ومناهضة النظام السوفيتي كما أنه يذكــر أن المناصــرين اللتوانيين للحزب الشيوعي قاموا بالقبض على الخونة المتعاونيــن مــع النازيــن الأعــداء ثم اجهزوا عليهم . وإذا كانت السياسة السوفيتية اضطرت الكثيرين من الكتاب الروس إلى التخفيف من وقع المأساة على اليهود عن طريق إظهار العطف الشعبي الروسي عليهم فإن هذا لم يقلل مــن قلــق كتاب البيديش السوفيت على بني جلدتهم الأمر الذي جعل صحيفة صادرة بلغة البيديش تتهم في افتتاحيتها عام ١٩٤٦ أدب البيديش بالتقصير في تصــوير الجرائم النازية على حقيقتها وتصوير هذه الجرائم على أنها أحداث فــردية في حين أنها مرتبطة أوثق الارتباط بجرائم القتل النكراء التي ارتكبها هتلر في وجه الشعب الروسي كله .

ويلاحظ في فترة الحرب العالمية الثانية أن اليهود في روسيا ازداد وعيهم بدينهم كما تدلنا على ذلك المسرحية التي ألفها الأخوان تور وتشينين بعنوان " لمن ينحنى الزمن ؟ " التي قدمت على المسرح السوفيتي عام ١٩٤٦. ويعبر أدب البــيديش عن هذا الاتجاه نحو الدين بصورة أوضح . وليس من شك أن الأزمــات والمحــن التي تعرض لها اليهود في فترة الحرب زادتهم قربا من الديــن واستمساكا به . فضلا عن أن الأجيال اليهودية الأكبر سنا وجدت كما أســلفنا في حظيرة الدين راحتها وسلواها وارتباطها بجذورها . وقد احتفظت

هذه الأجيال بكتابها المقدس ولم يكن في ذلك أية غرابة لأن السلطات السوفيتية لم تحظر رسميا ممارسة الديانة اليهودية على أراضيها . ولكن هذه السلطات ما لبثت أن أشاحت بوجهها دون أي تصريح رسمي عن أدب البيديش بعد أن كانت حتى الثلاثينات تشجعه وتؤازره لأنه لسان حال اليهود الروس وذلك لعدم ارتياحها لتنامي الشعور الديني والقومي بينهم . وبعد عام ١٩٤٨ اتبعت الصحف والدوريات السوفيتية سياسة الصمت نحو الإنتاج الأدبي المكتوب بالبيديش فلم تعد تذكره أو تشير إليه حتى انتهى به الأمر إلى الاندثار دون أن تتخذ السلطات إية إجراءات رسمية في سبيل ذلك. فلا غرو إذا رأينا اللغة الروسية يكتب لها السيادة .

وفي عام ١٩٤٧ كتب اتسيك كيبنيس مؤلف البيديش الأوكراني البارز يقول : " أحب أن يضع كل اليهود الذين يمشون في جسارة مشيتهم العسكرية في برلين نجمة داود الجميلة الصغيرة على صدورهم جنبا إلى جنب مع الأوسمة والنياشين " وكانت هذه الكلمات سببا في غضب قسم البيديش في اتحاد الكتاب الأوكرانيين منه فقام في نفس العام بطرده بل وبخه قائلا : " أنه لا يريد أن يعترف أن الجنود اليهود السوفيت لم يحاربوا من أجل داود أو التوراة .. ولكن من أجل الطريقة السوفيتية في الحياة والدولة السوفيتية والوطن السوفيتي " وتدل الإحصائيات أن كثيرا من اليهود أبلوا بلاء حسنا في الدفاع عن الوطن وحصلوا على نوط الشجاعة . ويصور الروائي فكتور نكراسوف في روايته " في خنادق ستالنجراد الشجاعة التي يظهرها الجنود اليهود وعلى رأسهم كابتن فاربر في هذه المعركة . ولم يكتف اليهود بالاشتراك النشيط في جبهة القتال بل أن بعضهم أسهم على الجبهة الداخلية في حركة الأدب الروسي مثلما فعل فاسيلي أزهايف عام ١٩٤٨ بكتابه رواية بعنوان " بعيدا عن موسكو " التي نالت الثناء العظيم والتقريظ الكبير .

وبوجه عام يمكن القول بأن اليهود الروس في زمن الحرب العالمية الثانية أظهروا وعيا بقوميتهم أقل من الوعي الذي أظهره كبار السن منهم أو

وعي اليهود كما صورهم الأدب الروسي في الفترة السابقة على الثورة . ولا غـرو فقد كانت درجة انصهارهم في فترة هذه الحرب كبيرة للغاية . ويرى الـنقاد أن السـوفيت لم يتبعوا أية سياسة مقصودة أو واعية من شأنها صهر الـيهود في بوتقة الحياة السوفيتية بل اكتفوا بإزالة كافة المعوقات التي تعرقل سـبيل أنصـارهم . والجدير بالذكر أن الود لم ينقطع مطلقا بين اليهود الذين انصـهروا فـي بوتقة المجتمع الروسي والذين لم ينصهروا فيه فقد استمرت العلاقـات بيـنهم طيبة . أضف إلى ذلك أن اليهود في روسيا لم يشعروا بأن اضـطهاد النازييـن لهـم يفوق اضطهادهم للروس . ففي إحدى مسرحيات اليـيديش التـي ألفهـا ماركيش عام ١٩٣٣ ترى امرأة يهودية أن الألمان لا يميزون بين اليهود والروس فهم يعاملونهم بنفس المقدار من السوء .

وأخيرا نختتم هذا التمهيد بالإشارة إلى الدور الذي لعبته اللغة الروسية في انصـهار الـيهود فـي بوتقـة الحياة الروسية حيث نلاحظ شيئا من المفارقة فالسـوفيت وعلى رأسهم ستالين لا يمانعون البتة في أن تتعلم الأقلية اليهودية لغة اليديش الخاصة بها ، بدليل أنها سمحت لها بإنشاء دور نشر لغة اليديش ومـدارس للتعلـيم بها . كما أنه ليس هناك ما يدل على أن السوفيت أجبروا الـيهود على استخدام اللغة الروسية . ولكن تبقى الحقيقة وهي أن السوفيت لم يشجعوا اليهود مطلقا على استخدام اليديش كلغة تخاطب في حياتهم اليومية . كبديل عن اللغة الروسية . بالعكس فالدلائل تشير إلى أن السلطات السوفيتية لم تكن ترحب باستخدام اليديش كلغة تخاطب بين اليهود بدلا من الروسية .

وتظهر هذه المفارقة بجلاء في موقف ستالين من استخدام اليديش فالرأي عـنده أنه يحق لليهود أن يكونوا أحرارا في تطوير أنفسهم . ولكنه رغم ذلك عـارض اتباع أي برنامج من شأنه الحفاظ على كل ما هو يهودي وعلى كل السـمات القومية التي تميز اليهود .. أو السماح بانعزال اليهود عن كل ما هو غـير يهـودي حـتى ولو تمثل ذلك في إقامة مستشفيات خاصة بهم . ونلقى الحادثـة التالـية التي رواها المؤلف كيبنيس في إحدى قصصه أنه قابل عددا

كبـــيرا من اليهود السوفيت ثم أردف قائلا أنه تمنى لو انهم تخاطبوا معه بلغة اليديش عندئذ تصدت له دوائر اليديش العليا وسألته : " ولنفرض أنهم تحدثوا اللغـــة الروســـية ؟ هل يعني هذا أنهم فقدوا يهوديتهم ؟ وهل معنى أن يتحدث أوكراني أو بلا روسي اللغة الروسية أنه لم يعد أوكرانيا أو بيلوروسيا ؟

إن الإنتاج الأدبي السوفيتي لا يميز مطلقا بين مفهوم البطولة عند اليهود وعـند غير اليهود . فالمفهوم في الحالتين واحد . والأدب السوفيتي لا يصور الـيهود كأبطال لمجرد أنهم يهود أو على الرغم من أنهم يهود ولكن بطولتهم تـتطابق مـع الـبطولة الروسية . ثمة أمر آخر . فإذا كانت بطولات اليهود كجماعة تطل من صفحات الأدب السوفيتي فإن هذا الأدب يصور أحيانا مثالب اليهود وعيوبهم .

صورة اليهود في الأدب الروسي بعد ستالين

يتضح من دراسة أحوال اليهود في روسيا أن بعضهم كان يعيش في مدن صغيرة خاصة بهم shtetl وأن بعضهم الآخر كان يعيش في المدن الكبيرة . ومنهم من كان مستقرا في مكان ومنهم من لجأ إلى التجوال طلبا للرزق . فضلا عن اختلاف مستواهم الطبقي والاجتماعي والتعليمي وبالتالي اختلاف مستويات معيشتهم فمنهم من امتهن الطب ومنهم من كان حرفياً أو بقالاً أو عاملاً . وسواء كان هؤلاء اليهود يعيشون في المدن الصغيرة المخصصة لهم أو في المدن الكبيرة مع جيرانهم الروس فإنهم كانوا في جميع الأحيان شديدي الارتباط بجذورهم وذويهم ودينهم وطقوسهم . وبالنظر إلى وجود نوعين من الأدب السوفيتي : الأدب الرسمي الذي تصدره الدولة والأدب غير الرسمي الذي يؤلفه المنشقون على النظام فإننا سوف نركز في هذه الدراسة على صورة اليهود في الأدب الروسي الرسمي قبل أن ننتقل إلى أدب المنشقين . ويمكن القول أن هذا الأدب الرسمي عالج :

أ – التقاليد اليهودية والصلات العائلية بين اليهود وخصائصهم اللغوية المميزة .

ب – الصراعات الاجتماعية داخل الجالية اليهودية وأسباب معاداة السامية.

ج – مواقف اليهود من الثورة البلشفية وأثر هذه المواقف على حياتهم .

والجدير بالذكر أن معظم الروايات والقصص والمسرحيات الروسية التي تعكس حياة اليهود من تأليف كتاب وأدباء يهود في أغلب الأحيان .

اليهود والثورة البلشفية :

نبدأ بالمدينة الصغيرة التي لا يسكنها غير اليهود فنقول أننا نجد وصفا لها فـــي الحكاية التي ألفها بوريس يامبولسكي بعنوان " صبي من شارع الحمام" التـــي تدور حول عائلة يهودية فقيرة تعيش في أوكرانيا . ونعرف من الرواية أن هذه العائلة لم تختر مقر إقامتها بل أن الحكومة القيصرية هي التي أجبرت جد الأسرة على العيش فيها . ويصف المؤلف هذا الوضع بأنه مجحف ومن ثم يعتبر إلغاءه في عهد الثورة البلشفية انتصارا للعدل والقيم الإنسانية . وتصور حكايـــة " صبي من شارع الحمام " عادات اليهود وتقاليدهم ومتانة روابطهم العائلية وتفاصيل حياتهم اليومية مثل احتفالهم بأيام الاجازات . وينمو الصبي ويكبر ويقارن بين سوء الحياة في عهد القيصر والحياة الطيبة في عهد الثورة البلشـــفية فيناصر الثورة ويتحمس لها . لا غرو فقد كانت أوكرانيا قبل الثورة تـــتفجر بالمشـــاعر المعادية لليهود كما كان حاكمها المتعصب يحرض اتباعه علـــى سفك دمائهم وهدم مساكنهم وإحراقها . ويشعر الصبي بالامتنان للثورة البلشـــفية لأنهـــا قضت على النزعات العرقية المعادية للسامية . وأيضا ألغت الـــثورة البلشـــفية الفـــوارق الطبقـــية بين اليهود أنفسهم ولم تسمح لأغنيائهم باستغلال فقرائهم .

وبالإضـــافة إلـــى ذلك ألف الشاعر اليهودي الروسي صامويل مارشاك (١٨٨٧-١٩٦٤) كـــتابا بعـــنوان " في بداية الحياة : صفحات من الذكريات " يتضـــمن ســـيرة حياته . ويذكر المؤلف أن والده كان عاملا في مصنع وأن الســـلطات لم تكن تسمح له بمغادرة محل اقامته . ويبين الشاعر فساد البوليس القيصري الذي كان يسمح لليهود بمغادرة محل إقامتهم نظير رشاوى كبيرة . كـــان مارشـــاك طفـــلا موهوبا استطاع أن يجتاز امتحان الدخول في مدرسة روســـية غـــير أن هذه المدرسة لم تقبل انضمامه إليها بسبب دينه اليهودي . ويذهـــب مارشاك إلى القول بأن كثيرا من المدرسين في هذه المدرسة وامثالها كانوا يتسمون بعداوة السامية . وهو يؤكد حبه الشديد للحياة والتقاليد اليهودية

ويعتبر نفسه مجرد حلقة في سلسلة متصلة من الأنساب اليهودية . فضلا عن فخره بأصله اليهودي .

ويصـف الكتاب السوفيت الطابع المحلي الذي يضفيه اليهود على المدن الروسـية التي يعيشون فيها كما نرى في كتاب " بلدي أوديسا " حيث يصف مؤلفه ليونيد أوتيسوف حالة هذه المدينة قبل الثورة البلشفية في أيام القصاص اليهودي البارز اسحق بابل . وأيضا تصف مذكرات ليونيد أوتيسوف عالم التجارة والحرف التي انخرط فيها بنو جلدته وعالم الحكايات الشعبية التي انتشرت بينهم بقوانينها الأخلاقية والسلوكية . ويقول أوتيسوف أن الجالية اليهودية التي انجبت عددا من اللصوص وقطاع الطرق هي نفس الجالية التي أنجبت كتابا يهودا عظاما مثل إليا إلف – اسحق بابل – إدوارد باجريتسكي – فيرا إنبر . وتتضمن المذكرات شوقا وحنينا إلى الجالية اليهودية التي كانت تعيش في أوديسا قبل أن يقوم ستالين بالقضاء على الكثيرين منهم في حملات التطهير .

ولم يقتصر وصف مدينة أوديسا على كتابات ليوبيد أوتيسوف بل امتد إلى الذي كتبه لف سلافين بعنوان " صور ومذكرات " . ويتناول هذا الكتاب حياة بعض المثقفين اليهود أمثال بابل وبراجيتسكى كما أن ذكرياته التي تحمل عنوان " رسل الحقيقة " تصف العلاقات القوية المستمدة من الدين التي تربط اليهود . ويهاجم سلافين تشدد اليهود وتزمتهم في روابطهم العائلية والدينية . ويرى أنها ضارة وتؤدي إلى النفاق الاجتماعي في كثير من الحالات . وهو يريد أن تنهض هذه الروابط على المودة الحقيقية وليس على الشكليات والأفكار المجردة . ويوضح لنا المؤلف أن إعمال العقل بطريقة ناقدة كفيل بأن يجعل المرء يتغلب على تحيزاته العرقية والدينية ويسير به على طريق التقدم. وتتسم شخصيات سلافين اليهودية بأنها تتحرك بين الروس بحرية أكبر من الحرية التي تتحرك بها شخصيات كل من يامبولسكي ومارشاك . وتختلف قصص سلافين عن أترابه في أنها تحتوي على قدر كبير من المعلومات حول

حياة اليهود في روسيا قبل الثورة الشيوعية . وهي تدحض الفكرة السائدة بأنها حياة كئيبة وخانعة بل هي في نظره حياة تمور بالمبادرة الخلاقة والقدرة على التطور الثقافي والاجتماعي وعلى الاضطلاع بدور فعال في المجتمع الروسي ككل .

ويؤكــد معظم الكتاب السوفيت أن غالبية اليهود الروس قبل قيام الثورة كــانوا يعــانون مــن الفقر ويعيشون في ظروف حياتية بدائية ويقاسون من المــرض والجــوع وســوء الأحوال الصحية مثلما نجد في كتاب كونستانين بوستوفسكي " كتاب التجوال " الذي يصف سيرة حياة الشاعر اليهودي ادوارد باجرتيســكي . يقول بوستوفسكي إن باجريتسكي كان يقاسي من أزمات الربو وأن هذا الشاعر قال له ذات مرة أن الربو مرض شائع بين فقراء اليهود الذين يســكنون في بيوت خانقة تفوح منها رائحة البصل والفلفل والتوابل الحراقة . ويضيف باجريتسكي قائلا أن السبب الأصلي في هذا الربو يرجع إلى الورش التعيسة البائسة التي يعملون بها وتفوح رائحتها بالأحماض .

ومــن الروايات التي تعالج طبيعة الحياة اليهودية في الفترة السابقة على الــثورة تلــك الرواية التي ألفها دافيد جالكن بعنوان " عائلة سيمبالست " التي تصــف افــتقار الــيهود إلــى عمل ثابت أو مصدر رزق منتظم كما أنهم لا يضمنون لقمتهم في المستقبل ويعتمدون في معاشهم على المحسنين الأثرياء . ويــرى جالكيــن أن السبب في هذا يرجع إلى وجود فروق طبقية بين اليهود وعــداوة أهل البلد الأصليين لهم وأن اضطهاد الروس أو الأوكرانيين لهم قد جعلهم يغرقون في لجج اليأس والجهل والتخلف والرعب والاحباط والانعزال وعجزهم عن الحصول على عمل ثابت يقتاتون منه . وتشهد بعض شخصيات رواية " عائلة سيمبالست " بأن الثورة عادت عليهم باليمن والبركات . وتدور أحداث هذه الرواية حول عائلة ترزي يهودي يعيش في فقر مدقع الأمر الذي لا يسمح له بتطوير موهبته الموسيقية . غير أن حفيدته تستطيع بفضل الثورة أن تلــتحق بالكونســرفتوار وتنمــي موهبــتها الموسيقية . ولهذا نرى إحدى

شخصيات الرواية تلهج بالثناء على الثورة البلشفية قائلة : " لو أنني استطعت لصـــرخت أمام العالم كله . يا يهود هذا العالم . لقد أصبحت روسيا في عهد الثورة وطنكم . وليس هناك سبيل غير سبيل الاشتراكية الروسية ".

ويوضـــح دافيد جالكين في روايته أنه من العسير أن يتغلب اليهود على تحـــيزاتهم الاجتماعـــية والدينـــية بســـبب تعلقهـــم الشديد بتقاليدهم وأنماطهم الأخلاقية. فضلا عن أنه من العسير عليهم التأقلم مع المتغيرات والمستجدات الاجتماعية . لقد كان جالكين من المؤمنين بضرورة انصهار اليهود في بوتقة الحـــياة السوفيتية وهو الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان هناك احترام متـــبادل بين الروس واليهود . وهي مسألة لا بد من إتمامها بالتدريج . ونحن نـــرى فـــي كتابات جالكين أن جيل الشباب هو الذي يدافع عن الانصهار في بوتقـــة الحـــياة الروسية . فضلا عن استعداده لتأييد النظام السوفيتي الجديد ، ورغبته في الخروج من شرنقة الحياة اليهودية الاجتماعية والجغرافية الضيقة. والـــذي أغرى اليهود بالانضمام إلى البلاشفة هو رغبتهم في تحسين أحوالهم المادية والتصدي لمعاداة السامية المنتشرة في كل مكان . صحيح أن كثيراً من الـــيهود كانوا يعانون من الفقر ولكن المتعلمين منهم من سكان المدن كانوا لا يعـــانون منه . وتقول رواية " آه يا شبابي " التي ألفها إليا سلفنسكي أن الفقر بين اليهود لم يكن عاما ولكن كراهية اليهود انتشرت في كل مكان . فسلفنسكي يصـــور المدرسين الروس على أنهم قوميون متعصبون يحضون بني جلدتهم على كراهية اليهود . وتحدثنا رواية سلفنسكي عن طالب يهودي تستبعده إدارة المدرســـة من المسابقات الرياضية بسبب ديانته اليهودية . فيدفعه هذا التمييز إلـــى الانضـــمام فـــي صفوف البلاشفة مقتفيا بذلك أثر والده الذي انضم إلى البلاشفة الذين أشعلوا نار الثورة في أكتوبر ١٩١٧. ومعنى هذا أن المتعلمين اليهود من سكان المدن أيدوا الثورة بغية التخلص من عداوة السامية . غير أن التميـــيز العنصري في رواية " آه يا شبابي " ليس في خطورة معاداة السامية فـــي رواية " عائلة سيمبالست " التي تتخذ شكلا عدوانيا وعنيفا فهو يؤدي إلى مقتل اليهود في المجازر التي وقعت في أوكرانيا .

وأيضـا تصـور رواية " حكاية طفولتي " التي ألفها نيكولاي ريلينكوف المجـازر التـي ينظمها الروس للفتك باليهود . وتبين لنا أحداث الرواية أن الأوكرانيين ليسوا عن بكرة أبيهم معادين للسامية . يقول المؤلف أن والده في إحـدى المناسـبات تقدم بشجاعة إلى إنقاذ بعض اليهود من براثن الاضطهاد الأوكرانـي رافضا أن يتقاضى مكافأة مالية نظير شهامته . ويذهب نيكولاي ريليـنكوف إلـى أن معظم الأوكرانيين يعترضون على الاعتداء على اليهود والتنكـيل بهم وابتزازهم وأن أغلبية الشعب الأوكراني لا يؤمنون بالشوفيتية وأن حـوادث الفـتك باليهود ترجع إلى انتشار الفقر والجهل بينهم وأن معاداة السـامية سـوف تختفي باختفائهما . ويلاحظ أن الأعمال الأدبية التي تتناول الـيهود بعد ١٩٥٣ لا تنسب الأعمال الوحشية ضد اليهود إلى طبيعة الشعب الروسـي بـل إلى الطبقة الظالمة التي تظلم الروس واليهود على حد سواء . ونحـن نشـاهد فـي روايـة سلفنسكي " آه يا شبابي " ضابطا مواليا للنظام القيصـري يلوم اليهود لدورهم في إشعال فتيل الثورة الروسية ويهدد بقتل كل يهـودي في المدينة . ونحن أيضا نطالع شيئا شبيها بهذا في الرواية التي ألفها جوليان سيمينوف بعنوان " لا حاجة إلى كلمة سر "

وتشير جميع الأعمال الأدبية المشار إليها إلى أن الثورة البلشفية هي التي استأصـلت معـاداة السـامية ورفعت الظلم عن كاهل اليهود وأنها هي التي شـجعت علـى مـؤازرة الجماهير الروسية في سعيها إلى الإطاحة بالنظام القيصري . ومعظم هذه الأعمال يصور التخلف الذي عاش فيه السواد الأعظم مـن اليهود قبل الثورة البلشفية وأن الثورة نجحت في تغيير النفسية اليهودية وأنهـا هـي التـي أطلقت طاقاتهم الخلاقة والمكبوتة من عقالها ودفعتهم إلى التجديد والابتكار والتلاحم مع المجتمع الروسي .

والجديـر بالذكر أن كل المؤلفين الذين أشرنا إليهم يهود (يامبولسكي – مارشـال – يوتيسوف – جالكين – سيلفنكسي) وأنهم من المدافعين عن النظام السـوفيتي ويمتدحون أثر الثورة البلشفية الطيب في حياة اليهود . ولهذا يمكن

اعتبارهم بشكل أو آخر أبواق دعاية للنظام أو أنهم على الأقل لم يعالجوا اليهود من الداخل بل اكتفوا بمعالجتهم من الخارج . ولأنهم ألفوا أعمالهم قبل ١٩٥٣ أي قبل وفاة ستالين فقد جاءت كتاباتهم ترديدا لما تقوله أجهزة الإعلام السوفيتية . ويذكر أيضا أن هؤلاء الكتاب أغفلوا كثيراً من الجوانب المهمة في حياة اليهود الروس مثل حقيقة مشاعرهم نحو الثورة والأحداث العاصفة التي واكبتها كالحرب الأهلية بين الثوار وأنصار القيصرية . وثمة عدة تساؤلات أخرى أغفلها هؤلاء الكتاب ومنها تأثير الثورة في تمسك اليهود الروس بدينهم وطقوسهم وقيمهم وتقاليدهم وعاداتهم وإلى أي مدى انصهروا في بوتقة الحياة الروسية . ثم كيف تأثرت حرف اليهود وأشغالهم بالثورة .!

وهناك أسباب عديدة تدعو الباحثين إلى اعتبار الطبقة اليهودية المثقفة كيانا منفصلا بعض الشيء عن عموم الجالية اليهودية فهي بادئ ذي بدء تعيش في المدن فضلا عن أنها كانت أكثر تأثرا بالمؤثرات غير اليهودية وأنها انفتحت على العالم الخارجي كما إنها كانت أقل من اليهود الآخرين في الاستمساك بالتقاليد اليهودية . ولا يعني هذا أن صلات هذه الطبقة المثقفة بالدين اليهودي والعادات اليهودية قد انفصمت بل أن مفهومها لها قد تغير نتيجة احتكاكها بالمجتمع غير اليهودي ؛ ومن ثم يمكن القول أن الصلات الاجتماعية التي تربط اليهود الساكنين في المدن اختلفت عن روابط اليهود الساكنين في الريف أو المناطق المخصصة لسكنى اليهود . ويمكن القول أيضا أن الطبقة اليهودية المثقفة نزعت إلى الحرية .

وسوف نعني في هذا المقام بإلقاء الضوء على موقف الكتاب السوفيت من الطبقة المثقفة اليهودية خلال فترة قيام الثورة والفترة التالية لها . وتعالج الكتابات السوفيتية ثلاث شرائح من المثقفين اليهود :

١ – شريحة العلماء والفنيين من أصحاب التعليم العالي .
٢ – الشخصيات العامة والسياسية والاجتماعية والعلمية .
٣ – الأدباء والفنانون الخلاقون .

وتصـــور روايـــة " الحـــياة بطريقة أخرى لا تستحق " التي ألفتها فيرا رتيلينسكايا الشريحة الأولى وهي شريحة العلماء والفنيين في عقد الثلاثينات. وهـــي تـــدور حول مجموعة من المهندسين والفنيين والجيولوجيين الخ . كما تحدثـــنا عـــن شخصـــية يهـــودي اسمه آرون بدأ حياته قبل الثورة الشيوعية كشخص موهوب يلم بالجغرافيا الطبيعية . وأعجب بموهبته خبير روسي اسمه البروفيســـور كانتين الذي أحضره معه إلى موسكو مدعيا أنه خادمه ومنتهكا بذلـــك الحظر المفروض على انتقال اليهود من مكان إلى آخر ، ويكمل آرون تعلـــيمه بتفوق وينضم إلى الحزب البلشفي بعد نجاح ثورة ١٩١٧ . ويعارض آرون كانتيـــن الـــذي يناصـــب البلاشفة العداء الشديد ورغم اعترافه لكانتين بالجميل ويحمل له الود فإنه يعامله كعدو طبقي ويحول دون انضمام ابن ولي نعمته للحزب البلشفي . وبهذا يثبت هذا اليهود إخلاصه وولاءه للحزب فيكسب ثقة الحزب فيه فيسند إليه الإشراف على عمليات التعدين في منطقة دوباس . ويصـــبح هـــذا الـــيهودي الموالي لستالين نموذجا للشيوعي المخلص الجامد المتزمت الذي يحكم على كل شئ من وجهة نظر أيديولوجية.

ويواجه آرون في عام ١٩٣٦ – ١٩٣٧ بعض المتاعب الوظيفية الطارئة ولكـــنه لا يتعرض لحملات التطهير التي يشنها ستالين على خصومه في تلك الفترة .

وهنا نرى المؤلفة تلقي خطبة تبرر فيها هذه الحملات وتعتبرها ضرورة كـــي يـــتخلص الحـــزب مـــن العناصر الضارة مثل التروتسكيين والمرتدين والجواسيس . ولكن آرون يخرج سليما من هذه الشدة ولا يلحق به أدنى أذى. وأغلـــب الظـــن أن المؤلفة أرادت بذلك تبرئة سالتين من تهمة معاداة السامية التـــي يمارســـها بصـــورة مستترة . فستالين في نظرها لا يؤذي الشيوعيين المخلصين حتى إذا كانوا يهودا . ورغم أن آرون شخصية شيوعية نمطية فإنه يثير الاهتمام فضلا عن أن الحياة تنبض في عروقه . والمؤلفة على أية حال

لا تدين اليهودي آرون كما أنها لا تمجده بل تعتبره نموذجا لكل من ساهم في إقامة النظام الشيوعي .

وإذا كانــت شخصية آرون شخصية نسجتها المؤلفة من خيالها وليس لها وجــود فــي الواقــع فإن الشخصيات اليهودية التي رسمها ف. إملفانوف في مذكراته " الأوقات الماضية : أنا ورفاقي " لها نظير في الواقع .. وأيضا ألف فلاديمير دميتويفسكي رواية بعنوان " العلم الأحمر " . والجدير بالذكر أن هذه الرواية تتضمن جانبا من سيرة حياة مؤلفها . فضلا عن أنها تحدثنا عن يهود حقيقييــن عاشــوا فــي وقــت ستالين وناصروا نظامه . ولكن هؤلاء اليهود تعرضــوا لتنكيل النظام الستاليني بهم . ورغم ذلك فإن الرواية تغفل الإشارة إلــى أي اضـــطهاد واقع عليهم ، وتجنب الإشارة إلى اليهود المضطهدين في الثلاثينات كان سمة من سمات النظام الستاليني الذي لم يجرؤ الأدباء السوفيت على كشف عيوبه وفضح سلبياته باستثناء قلة من كبار الأدباء اليهود (وغير اليهود) الروس الذين انشقوا على ستالين . (انظر د. رمسيس عوض " أدباء روس منشقون في عهد جوزيف ستالين " الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩١) .

اليهود كثوار

هــم اليهود الذين انخرطوا في النشاط الثوري الذي تمخضت عنه الثورة البلشفية عام ١٩١٧ والذين أسهموا في إقامة النظام السوفيتي بعد نجاح الثورة. ويلاحــظ أن الأدب السوفيتي بعد عام ١٩٥٣ يبدي اهتماما شديدا بشخصيات تروتسكي وزينوفييف ومارتوف دون الإشارة في معظم الأوقات الي يهوديتهم. وبطبيعة الحال لم يتحر الروائيون الذين تناولوا هذه الشخصيات التاريخية الدقة التاريخية ولا غرو فالخيال الأدبي شيء مختلف تماما عن كتابة التاريخ .

وألف ايمانويل كازاكيفتش رواية بعنوان " الكراسة الزرقاء " تحدث فيها عن كل من لينين وزينو فييف موضحا ما بين الرجلين من خلاف نفسي كبير. وتعــالج الــرواية بالتحديد فترة منتصف عام ١٩١٧ عندما كان لينين مختبئا

برفقة زينوفييف في راذليف ، ونحن نرى لينين واثق الخطى وواضح الهدف ، في حين يعيش رفيقه زينوفييف نهبة الشك والتردد وانعدام الثقة بالنفس . ويعتقد زينوفييف أن روسيا لم تصل إلى مرحلة النضج وأنها غير مستعدة للثورة كما أنه يشك في قدرة البلاشفة على تولي مقاليد الأمور في البلاد . ويذهب زينوفييف إلى ضآلة حجم البروليتاريا الروسية الواعية وإلى غرقها في مستنقع البورجوازية الصغيرة . ويحاول لينين من جانبه تبديد شكوك زميله زينوفييف . ويتساءل عن السبب الذي يحدو بهذا الرجل إلى التردد فيصفه بالضعف والحياء والافتقار إلى قدرة لينين على مصاحبة الفلاحين والعمال . وزينوفييف شعر بالنقص عندما يقارن نفسه بلينين . ولكنه في بادئ الأمر يحبه ويحتاج دوما إلى تشجيعه الأدبي والروحي . ويقول المؤلف أنه حب مرضي له أبعاد فرويدية وأنه نوع من التعلق بشخص يفوقه في القوة والكفاءة الأمر الذي ولد فيه عقدة الخوف والإعجاب والكراهية المتزايدة .

وأيضا ألف إيمانويل كازاكيفتش رواية أخرى باسم " الأعداء " تناول فيها العلاقة بين لينين والثائر اليهودي مارتوف الذي يناصب زعيم الثورة البلشفية العداء . ورغم هذا فإن لينين يتسامح معه ولا يقيد حريته في الحركة بل يتركه يسافر حيثما شاء . ويلجأ مارتوف إلى الخارج طلبا للأمان . وهناك يسطر خطابا معاديا للبلاشفة . ورغم المعارضة التي يظهرها مارتوف نحو البلاشفة فإن لينين لا يغضب منه ويتصرف معه بسماحة غير عادية . وتروى لنا رواية " الأعداء " أن مارتوف ثائر بارز يتمتع بالقدرة المذهلة على الإدارة والتنظيم كما تروى كيف أن حبه للينين تحول إلى كراهية مشبوبة . ويتضح من الرواية أن تسامح لينين مع مارتوف نوع من المناورة السياسية القائمة على الحصافة وبعد النظر مبعثها أن لينين يعرف أن قتل غريمة قد تكون له عواقب سياسية وخيمة .

ويرمي ايمانويل كازاكيفتش في روايتيه كلا في زينوفييف ومارتوف بعدم النضج السياسي والعجز عن وضع نظرياتهما موضع التنفيذ .

وترسم رواية فسفولود روتشينوف " زاوية السقوط " صورة مختلفة لزينوفييف فهو في نظر هذا المؤلف الروائي إنسان بلا ضمير أخلاقي وعدو طبقي تسيطر عليه العادات البورجوازية في التفكير . وتضيف الرواية أنه عندما تمكن الحزب البلشفي من تولي مقاليد الأمور انضم إليه زينوفييف بهدف إحداث شقاق في صفوفه ونسف السياسة التي ينتهجها لينين .

وزينوفييف في رواية كونشينوف يحاول تسليم بتروجراد إلى الروس البيض أعداء الثورة لولا يقظة لينين وبعد نظره . وحتى لا تقع بتروجراد في أيدي الأعداء يرسل لينين مبعوثا آخر هو ستالين الذي يلتقي بزينوفييف المصاب بجنون العظمة والذي يعامل ستالين باحتقار شديد . والرواية تعيد الاعتبار إلى ستالين وتمتدح دوره في التخلص من زينوفييف .

وتدور الرواية التي ألفتها سافاد انجولوف بعنوان " الدبلوماسيون " حول إقامة علاقات دبلوماسية لأول مرة مع الدول الأوربية . وتحدثنا الرواية بالذات عن ماكسيم ليتفينوف الذي عينه الاتحاد السوفيتي أول ممثل دبلوماسي له في لندن . وليتفنيوف كما تصوره هذه الرواية رجل يتمتع ببعد النظر السياسي . وهو شديد الإخلاص للثورة وشديد الولاء للينين . وتحدثنا الرواية عن ظروف إنشاء أول مفوضية سوفيتية في لندن . وكذلك تتناول الرواية شخصية تروتسكي وتقارن بينها وبين شخصية لينين موضحة أن لينين تفوق عليه في اتخاذ الخطوات العملية لتأمين سلامة الثورة البلشفية . فقد رأي لينين أن فرص نجاح هذه الثورة كانت ضئيلة طالما أن روسيا اشتبكت في حرب مع ألمانيا . ومن ثم نراه يسعى إلى عقد معاهدة سلام معها في حين أن تروتسكي عارض هذه المعاهدة لاعتبارات أيديولوجية لا تمت إلى الواقع المعاش بصلة. ورغم أن الرواية تعلي من شان لينين وتخفض من شأن تروتسكي فإنها تشهد بأن تروتسكي قدم للثورة خدمات جليلة وأنه يتمتع بقدرات ذهنية وفكرية فائقة. فضلا عن قدرته المذهلة للدعاية للثورة والدخول في حرب كلامية ضد المناهضين لها .

وإذا كانت رواية " الدبيلوماسيون " لم تبخس تروتسكي قدره ، فإن بعض الـــروايات الأخرى هاجمته بشدة واتهمته بتمزيق وحدة الحزب وخيانة الثورة وفقـــا لخطـــة مدبـــرة وموضوعة بأحكام الأمر الذي استفاد منه الاستعمار . فالرواية التي ألفها فيتالي زاكروتكين بعنوان " خلق العالم " تسعى جاهدة إلى إثبات وجود علاقة بين تروتسكي وهتلر الذي قرأ سيرة حياة تروتسكي الذاتية بإعجـــاب شديد . وأيضا اتهم زاكروتكين تروتسكي بالفوضوية والديماجوجية وانه لم يأل جهدا لافساد العلاقة بين ألمانيا وروسيا السوفيتية وذلك بالتآمر مع جوداه ستيرن لمحاولة اغتيال مستشار المفوضية الألمانية في موسكو ..

ويعـــالج ج مارياجيـــن فـــي روايته " خلق قبة السماء " موضوع خيانة تروتســـكي باستفاضة وخدمته للمصالح الاستعمارية . ورغم أن المؤلف بين عداوة تروتسكي لروسيا السوفيتية وأن الدبيلوماسيين الأعداء يمتدحونه لدوره فـــي توريطهـــا فـــي الحرب وأنه يعزو خيانته إلى الانتهازية واغفال مصالح روســـيا القومـــية فإنه لا يذكر لنا أن تروتسكي يهودي فضلا عن أنه لا يلوم اليهود بسبب المتاعب التي تقابلها الدولة السوفيتية الوليدة .

ويعرض الكاتب المسرحي ميخائيل شاتروف في مسرحيته " البلاشفة في ٣٠ أغســـطس " للـــثوار الـــيهود ويقارن بين أحداث الثورة البلشفية والثورة الفرنسية . ويدور موضوع هذه المسرحية الرئيسي حول النتائج المترتبة على محاولـــة اغتـــيال لينين التي أفضت إلى إقامة نظام حاكم ينهض على الرعب والفـــزع بســـبب الأخطار الداخلية والخارجية التي هددت روسيا السوفيتية . ويلاحـــظ أن بعض الذين يناقشون هذا الموضوع يهود غير أننا لا نعرف أنهم يهـــود مـــن الحوار بل من توجيهات الإخراج المسرحي . والجدير بالذكر أن ميخائـــيل شـــاتروف ينـــبري في هذه المسرحية للدفاع عن تروتسكي بخلاف هجوم كل من زاكروتكين ومارياجين عليه فهي تصوره على تخوم البلاد يذود عـــن حماهـــا ضد اعدائها والمتآمرين عليها . ومعنى هذا أن شاتروف يمتدح اليهود الثوار .

وهذا ما يتأكد لنا من شخصية ياكوف سفير دلوف في " الساعة الواحدة يا صاحب السعادة " فنحن نرى اليهودي سفير دلوف يسدى خدمة جليلة للبلاشفة. والكتاب يبين بما لا يدع مجالا للشك أن المحيطين بلينين والمقربين إليه لا يعرفون النزعات القومية أو معاداة السامية كما أن اليهود يتصدون بكل قوة وحزم ضد العناصر المعادية للنظام البلشفي .

ونشر ليف أوفالوف رواية بعنوان " ليالي يناير " تتناول حياة ثائرة اسمها روزاكيا ساموبلوفنا زاكليند تنحدر من عائلة تجار يهودية . ولكنها شديدة الولاء للطبقة العاملة . ورغم ما تعرضت له من تشريد ونفي في سيبريا فإن هذا لم يزعزع إيمانها بلينين والثورة فضلا عن تكريس نفسها للثورة جردها من المشاعر العائلية والحب ومن العواطف البشرية .

وهكذا يتضح لنا أن الأدب السوفيتي لم يحكم على الطهارة الثورية على أساس تقسيم الثوار إلى يهود وغير يهود ولكن من منطلق الولاء أو عدم الولاء للمبادئ اللينينية . ومن ثم فالمتشفيك والثوار الاشتراكيون يعتبرون مارقين وخونة وهراطقة سواء كانوا يهودا أم غير يهود . فضلا عن أن الأدباء السوفيت لم يحملوا اليهود مسئولية المتاعب التي واجهتها الثورة البلشفية في أوائل عهدها . ومن ثم يمكن القول أن هؤلاء الأدباء لم يكونوا يتصفون بمعاداة السامية . ولكن هذا لا ينفي وجود معاداة السامية تماما . فالكاتب كوتشينوف – كما أسلفنا – يشير إلى أن زينفيوف أجنبي ويهودي في حين أن الأديب كازاكفتش لا يعتبره خائنا للثورة أو عدوا للشعب .

والرأي عند بعض النقاد أن الشخصيات اليهودية الثائرة التي يرسمها الأدباء السوفيت في أعمالهم شخصيات ستاتيكية لا تتطور وليست شخصيات ديناميكية قادرة على التطور أي أنها مجرد تجسيد لمجموعة من الأفكار الثورية الجامدة هدفها الدعاية للنظام السوفيتي . وعلى الرغم من أن البطش الستاليني أودى بحياة عدد من اليهود فإن الأدب السوفيتي يخلو من أية إشارة إلى ذلك فلم يكن في مقدور أي كاتب سوفيتي أن يعرض لهذا الموضوع .

وقد نشر الكسندر سفوبودين عام ١٩٦٨ مسرحية بعنوان " إرادة الشعب" تبيـن الدور البارز الذي اضطلع به اليهود في ترسيخ الحركة الثورية. وتثير المسرحية تساؤلا : أيهما أفضل ؟ أن يقوم باغتيال القيصر واحد من اليهود أو واحد من الروس الأمر الذي يوحي بشيء من التفرقة بين اليهود والروس .

دور اليهود الروس في الحرب العالمية الثانية :

يعتبر فيدور جرانتشيف واحدا من الكتاب المعروفين الذين عالجوا الدور الـذي لعـبه اليهود في الحرب العالمية الثانية في كتابه " أيام في فاسيلفكا " . وكـان فـيدور جرانتشـيف طبيبا تربطه علاقة طيبة ووثيقة بالصحفي أبون رافايلوفـتش كوجـل الذي كان ينشر مقالاته في مجلة شهرية اسمها زيفزدا والـذي اسـتخدم مواهبه الأدبية في التخفيف عن المعذبين وشحذهم لمقاومة الغزاة الألمان . وقد قتل ابنه في الحرب العالمية الثانية . فضلا عن أن الوالد نفسه نقل للعلاج في المستشفي في فترة حصار لننجراد . ويشير الكتاب الذي ألفه الكسندر ديمشتيس بعنوان " ست دراسات " إلى طيبة قلبه وشعبيته .

وألـف الكاتب المغمور أريف ساربواف كتابا بعنوان " أربع كراسات " أشـار فـيه إلى الدور البارز الذي لعبه اليهودي مير فيسمان في نشر الوعي السياسي بين الجنود الاحتياطيين . وفيسمان شيوعي صادق ومتحمس عاصر أحداث الثورة البلشفية والحرب الأهلية .

وتصـور لنا الرواية التي ألفها كونستانتين سيمونوف بعنوان " الجنود لا يولـدون " اليهود الذين حاربوا جنبا إلى جنب مع الروس . وعلى غير العادة نرى المؤلف يبرز شخصية المحارب اليهودي مما يوحي بأنه يتعمد الدعاية له وإظهار العطف عليه .

وهناك أيضا وثيقة تسجيلية كتبها نعوم أيزمان بعنوان " على الأرض التي ولــدوا فيها " حيث نرى يهود منطقة بيربيدزان يذودون عن الاتحاد السوفيتي بكل قوتهم ضد القوات الألمانية الغازية .

وبالإضـــافة إلـــى هـــذا هناك بعض الأعمال الأدبية الأخرى التي ترسم صـــورة أشـــمل لحالـــة الجـــيش الأحمر في فترة احتلال النازيين للأراضي السوفيتية . ومن بين هذه الأعمال قصة كتبها ليونيد سيميد بعنوان "عين بعين" التـــي تحدثـــتا عن مجموعة من الضباط الروس يشاء حظهم العاثر أن يقعوا أسرى في أيدي الغزاة الألمان . ويراود هؤلاء الأسرى شوق واحد وحلم واحد هو العودة إلى بلادهم سالمين . ولكن بلادهم أصبحت بعد وقوعهم في الأسر تشـــك فـــي ولائهم لها فهي تطمئن إلى جواسيسها ومخبريها أكثر مما تطمئن لهم. بل هي تعاملهم كما لو كانوا خونة يتعاونون مع الأعداء النازيين . ولعلنا نذكـــر أن الـــنظام الستاليني كان بالفعل يشك في نوايا أسرى الحرب الروس الذيـــن يقعـــون فـــي قبضة النازيين ويزج بهم في معسكرات اعتقال بدلا من اســـتقبالهم بالحفاوة والتكريم خوفا من أن يكون الألمان قد نجحوا في تجنيدهم للعمـــل كطـــابور خامس . وتصور القصة ضابطا يهوديا في الجيش الروسي اســـمه إيلي ماتسفتش يلقى نفس المصير ويتوقع أن ترسله السلطات السوفيتية إلى أحد معسكرات الاعتقال . فالحكومة السوفيتية لا تفرق بين الجنود اليهود وغير اليهود . بل تعاملهم جميعا بنفس الريبة والشك .

وتتـــناول الأديـــبة أي . جـــريكوفا فـــي قصتها " المحاكمة " نفس هذا الموضوع الذي يدور حول جنرال روسي يهودي اسمه جندن أبلي بلاء حسنا فـــي الحرب العالمية الثانية وحارب الألمان بكل شرف وكرامة . وما أن عاد إلـــى بـــلاده بعد انتهاء الحرب حتى قامت السلطات السوفيتية بنفيه في مكان قصي . ولا يعرف القارئ تهمته على وجه التحديد ولكنه يخامره إحساس بأنه أحـــد ضحايا الحملة الشعواء التي شنها ستالين في نهاية الأربعينات في القرن العشـــرين على دعاة الانفتاح على العالم الخارجي . والجدير بالذكر أن معظم

اليهود المنخرطين في الجيش الأحمر لا يصلون في ترقياتهم إلى المكانة المرموقة التي وصلها إليها الجنرال جندن . والجدير بالذكر أيضا أن القارئ لا يعرف أن عددا من المقاتلين الشرفاء عن حمى الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية يهود إلا من أسمائهم فقط وأن المؤلفين الذين يشيرون صراحة إلى يهوديتهم ليسوا سوى قلة .

وإذا كانت الإشارات الصريحة إلى الشخصيات اليهودية في الأدب السوفيتي في عهد ستالين ضئيلة ومحدودة فإن الأدب السوفيتي بعد وفاة ستالين لم يجد غضاضة في الإشارة الصريحة إلى اليهود بهدف تأكيد العلاقات الودية والطيبة التي تربط الروس باليهود .

الروس يبادرون بمساعدة اليهود :

يصف كثير من الأعمال الأدبية السوفيتية حاجة اليهود إلى العون ومبادرة الروس لمساعدتهم في زمن الحرب على نحو ما نرى في القصة التي ألفها بوريس بوليفوي بعنوان " الدكتورة فيرا " التى تقع أحداثها في مدينة قريبة من موسكو تحت الاحتلال النازي . وترفض الدكتورة فيرا الهرب وتفضل البقاء كي تساعد المرضى والمحتاجين . وتكرس الدكتورة فيرا وقتها ومجهودها لمساعدة عائلة مهندس يهودي من براثن المحتلين الألمان . ولكن أحد أعداء هذه العائلة يشي بها لدى سلطات الاحتلال النازي الذي سبق أن أصدر أمره بعدم تقديم العون لأي يهودي . فيعاقبهم الاحتلال الألماني بإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال وإعدام بعضهم . وهكذا تهلك عائلة المهندس اليهودية ولا يبقى منها على قيد الحياة غير الابنة الصغرى رايا التي تقوم سيدة روسية تدعى زينايدا بإنقاذها وإخفائها في مستشفى الدكتورة فيرا ، بذافع الإنسانية والتعبير عن تضامن الروس مع اليهود في محنتهم ، ويذهب المؤلف بوريس بولينوي إلى أن القصة حقيقية ومستمدة من واقع الحياة .

وأيضا ألف إليا كونستانتيفوسكى قصة بعنوان " روشتة " تقع أحداثها في سجن سياسي عتيق في وارسو عام ١٩٤٣ في فترة الاحتلال النازي لبولندا. تــروي لــنا هــذه القصة بالتفصيل بؤس يهود بولندا وشقائهم أثناء الاحتلال النازي لهذه البلاد . والقصة تحمل الألمان وزر شن الحرب العالمية الثانية . والغريــب أن جيل الشباب الألماني الذي لم يخض الحرب أو يشترك فيها لا يــدرك الفظاعــات التــي اقترفها آباؤهم ضد اليهود في معسكرات الاعتقال البولــندية . والــرواية لا تركــز على محنة اليهود الرازحين تحت الاحتلال الــنازي ولكنها تركز على قسوة الاحتلال النازي بوجه عام وعدوانية ألمانيا كمــا أن القصـــة تبين مبادرة السلافيين إلى مد يد العون إلى اليهود . ويمكن القــول أن القصـــة تســتغل معاناة اليهود على أيدي النازيين لتمجيد السلوك السلافى مع التقليل من شأن اليهود كحلفاء للروس في الحرب . ورغم أن هذه النغمة التي تقلل من مجهود اليهود الحربي لا تظهر إلا نادرا فإنها موجودة في بعــض الأعمال الأدبية السوفيتية بعد عهد ستالين مثل القصة التي ألفها يوري بيليار بعنوان " الرجال يبقون رجالاً " التي تقع أحداثها في معسكر اعتقال في النمســا يضــم سجناء من جنسيات متعددة . تقول القصة أن السجناء الروس يتمــيزون بالحيوية السياسة والقدرة على تنظيم المقاومة ضد النازية وتوعية زملائهــم وحــثهم على التمرد في حين أن السجناء اليهود يكتفون بالمقاومة الســلبية . وأيضــا يقلل المؤلف من شأن مجهودات اليهود الحربية . وهم في رأي المؤلــف يتقاعسون عن بذل الجهد لتحرير أنفسهم وينتظرون في سلبية حــتى يقوم الآخرون بتحريرهم . ومعنى ذلك أنهم لم يشتركوا مع الروس في مقاومــة الاحتلال النازي بل اكتفوا بالفرجة على مجهودات الروس للحصول على الحرية . ومن ثم فإن اليهود يدينون بالفضل إلى الروس في تحريرهم من براثن النازية . وليس من شك في أن التقليل من شأن الدور الذي لعبه اليهود مــن الــتخلص مــن الاحتلال النازي ينطوي على قدر من معاداة السامية . واحقاقــا للحــق – كمــا سوف نرى – فإن بعض الأعمال الأدبية السوفيتية الأخــرى تشــيد بدور اليهود في مقاومة النازية . وعلى أية حال فإن النغمة

المعاديـــة للســامية خافتة ولا تظهر إلا قليلا في الأدب السوفيتي . أما النغمة الغالبة عليه فهي مبادرة الروس لإنقاذ اليهود وانتشالهم من محنتهم مثلما نجد في القصة التي ألفتها الكاتبة اليهودية ر . زيرنوفا بعنوان " الجانب المشمس " التـــي تروي حكاية طفلة يهودية مات أبواها في الحرب فتكفلت امرأة روسية بتربيـــتها بيـــن أبنائها التسعة . والقصة لا تدل على استعداد الروس لتقديم يد العون لليهود فحسب بل تدل أيضا على أن الطفلة اليهودية تنمو وتترعرع في بيئة روسية خالصة .

وأيضا تبين القصة التي ألفها كوزفيتسوف بعنوان " بابي يار " أن الروس والأوكرانييـــن يهبون لتخليص اليهود من الاحتلال النازي . غير أن المؤلف ينحى على النظام السوفيتي باللائمة لأنه يثير في الروس النعرة القومية فيمهد بذلـــك الطـــريق للفتك بملايين اليهود . والقارئ لهذه القصة يحس أن مبادرة بعـــض الروس لمساعدة اليهود لا تمثل اتجاها عاما ولا ترجع إلى أن الروس أو الأوكرانيين في مجملهم يكنون الحب لبني إسرائيل بل ترجع إلى المشاعر الطيبة التي تجيش في صدور بعض الروس والأوكرانيين الذين يشفقون على اليهود باعتبارهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة ويحتاجون أكثر من غيرهم إلى العون والمساعدة . والسؤال الذي يحير الألباب هو : إذا كانت الأعمال الأدبية الســـوفيتية تظهـــر هـــذا القـــدر مـــن العطف على اليهود فلماذا أقدم الروس والأوكرانيون على إبادة أعداد كبيرة منهم فزادوا طينة الاضطهاد النازي لهم بلة ؟!

اليهود يحاربون هتلر :

يعتـــبر ياكوف سيمنوفتش جروفمان واحداً من أبرز اليهود الذين حاربوا الـــنازية . وقد قام الكاتب أوليج مويسيف بتسجيل سيرة حياته في قصة " العم ياشـــا فـــي بونتشـــنوالد " . كان ياكوف جروفمان مهرجا في السيرك قبل قيام الحـــرب العالمية الثانية وبعدها . وانضم إلى صفوف الشيوعيين كي يحارب إلى جانب الروس ضد القوات النازية . ولكنه وقع في أسرها فنفته إلى معسكر

اعـــتقال فـــي بوتشنوالد حيث انضم إلى اللجنة السرية لمناهضة الفاشية. وفي معسكر الاعتقال اسندت إليه مهمة تنظيف دورات المياه الخاصة بالألمان بعد أن أخفى اسمه اليهودي واتخذ لنفسه اسما روسيا واضطلع بدور نشيط وفعال في حركة المقاومة ضد النازية داخل المعسكر حيث اهتم اهتماما خاصا بإنقاذ الأطفال من براثن الجوع وحمايتهم من الموت .وبعد أن تم تحرير الأراضي السوفيتية اضطلع بتربية طفل ولكن الطفل مات بالسل . وقد أثنى عليه الكاتب مويســيف وامـــتدح تواضـــعه وشـــجاعته وشفقته وقوة استمساكه بمعتقداته ومشـــاركته فـــي العمل الوطني . فضلا عن قدرته الهائلة على التحمل على الصعيدين البدني والنفسي .

وثمـــة قصـــة أخرى ألفتها ماريا بريلشيفا بعنوان " فالس بوشكين " تبين مقاومـــة الـــيهود للاحـــتلال النازي . وترسم القصة شخصية ساعاتي يهودي عجـــوز من ميناء أوديسا اسمه دافيد سيمنيخ قتل النازيون ابنته الصغيرة في معسكر اعتقال . ففي أثناء طابور المساجين وفيما كان الضابط الألماني ينادي اســـماءهم إذ بالفتاة الصغيرة تخرج من الطابور وتتقدم إلى الضابط الألماني لتبصـــق فـــي وجهه فأخرج مسدسه وأطلق عليها الرصاص الأمر الذي جعل أباهـــا عـــند إبلاغه بما حدث يشعر بالفخر لأن ابنته رفضت الذل والمسكنة والاستسلام للاحتلال النازي . فقد قاومت الصبية هذا الاحتلال قدر ما تستطيع بطريقـــتها الساذجة . والجدير بالذكر أن مؤلف هذه القصة لا يميز مطلقا بين مقاومة اليهود للاحتلال النازي ومقاومة الروس له .

وأيضـــا تصور قصة " البلابل " التي ألفها جوزيف جيراسيموف اليهود علـــى نحو مماثل . وتدور أحداث هذه القصة حول عازف موسيقي الجاز في زمـــن الســـلم اسمه ازيا ليفين أوصاه والده بالعناية بيديه لأنهما سر نجاحه . ولكنه لا يهتم بيديه ويستخدمهما في استعمال البندقية ضد الألمان الذين يغزون روســـيا . ويظهر هذا العازف شجاعة تثير إعجاب الروس به فهم لم يكونوا يـــتوقعون أن يصبح هذا الشاب الرقيق محاربا شديد المراس . ويهدف مؤلف

هذه القصة إلى إثبات أن اليهود ليسوا جبناء ولا يخافون من استخدام الأسلحة النارية كما هو شائع عنهم .

والجدير بالذكر أن اليهودي الذي يحارب الألمان وهو في صفوف الجيش الأحمـــر تتوفر له فرص نجاة أكبر بكثير من فرص بني جلدته الذين يأسرهم الجـــيش الـــنازي أثـــناء اجتياحه للأراضي الروسية . فقد قام النازيون بجمع الأســـرى اليهود بالآلاف في بابي يار وإطلاق الرصاص عليهم . ويروى لنا القصاص كوزفيتسوف قصة حقيقية عن فتاة يهودية صدرت إليها الأوامر مع بقـــية رفاقهـــا الأسرى بالتجمع في مدينة كييف في ٢١ سبتمبر عام ١٩٤١ . وعـــندما يأتي عليها الدور لضربها بالرصاص نراها تقفز في حفرة وتهرب . ولا يقبل الكاتب كوزينسوف الفكرة القائلة بأن اليهود سلبيون بطبيعتهم . ويؤكد أن الموت الجماعي الذي حدث لملايين اليهود في روسيا لا يرجع إلى سلبيتهم وتقاعســـهم عن المقاومة بل يرجع إلى ظروف سياسية واجتماعية عامة أدت إلى ذلك .

وايضا يبرز فاسيلي بيكوف موضوع شجاعة اليهود في قصة نشرها في مجلة " العالم الجديد " بعنوان " سوتنيكوف " . وتدور أحداث هذه القصة حول تدمير الألمان لإحدى وحدات الجيش الأحمر التي تضم في صفوفها اثنين من الشـــيوعيين الـــروس هما سوتنيكوف ورفيقة ريباك اللذان بأسرهما النازيون ويقومـــون بتعذيـــبهما . وفي حين يضعف ريباك ويستسلم أمام التعذيب يتجلد ويصمد زميله سوتنيكوف . وبوضع الاثنان في السجن وفي الزنزانة المجاورة لهمـــا نرى ثلاثة أسرى آخرين من بينهم فتاة يهودية صغيرة تدعى باسيا يقوم الـــنازيون بتعذيبها كي تعترف بأسماء الروس الذين أخذوها وربوها في كنفهم بعد وفاة والديها . ولكن هذه الفتاة اليهودية الشجاعة ترفض الاعتراف بأسماء الـــروس الذيـــن تربـــت فـــي كنفهم حتى لا يلحق بأولياء نعمتها أي ضرر . ونلاحـــظ أن هذه القصة تختلف عن بقية القصص التي تعالج هذا الموضوع . ففـــي العادة نرى أن الروس هم الذين يضحون بأنفسهم في سبيل حماية اليهود

الضـــعفاء ولكنـــنا هـــنا نرى أن اليهودية باسيا هي التي تحرص على حماية الـــروس مـــن أذى النازيين . وبسبب إصرار كل من سوتنيكوف وباسيا على عدم الوشاية بالآخرين يقوم النازيون بإعدامهما شنقا. واللافت للنظر أن بعض الـــروس علـــى غير العادة يضعفون أمام التعذيب النازي في حين تصمد هذه الفتاة اليهودية التي لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها على نحو بطولي يثير إعجاب الروس بها .

أعمال أدبية سوفيتية تتضمن معاداة اليهود :

تدل بعض الكتابات السوفيتية على معاداة اليهود . ومن بين هذه الكتابات مســرحية ألفــتها فــيرا بانوفا بعنوان " القصف بالقنابل " وتدور أحداث هذه المســرحية فــي معبد يهودي عتيق في مدينة روسية أحتلها النازيون وأهلكوا جميع اليهود فيها باستثناء ثلاثة هم ساعاتي وراقصة ملهى ليلي وزوجة حبر يهودي . ولا تبين لنا المسرحية السبب في أن النازيين أبقوا على حياة هؤلاء الـــيهود الثلاثة . وعند بداية المسرحية نجد أن المعبد قد صار مكانا يلتقى فيه أنـــاس من جنسيات متنافرة فهو ملتقى الألمان والروس والاستونيين . ومعظم الـــروس الذيـــن تدور حولهم المسرحية أسرى حرب . وتلجأ إلى المعبد فتاة هاربـــة . ورغـــم وجـــود صراعات وعداوات حادة بين أصحاب الجنسيات المختلفة فإن حبكة المسرحية تدل على أن أقوى هذه العداوات تلك التي تجمع بين الألمان والروس والاستونيين في كراهيتهم لليهود . فالخائن الغادر داخنو لا يـــتورع عـــن الـــتجديف والزراية بالسامية في قلب هيكلهم . والذي يشجع داخنو على استهانته واستخفافه باليهود تأكده من عدم اعتراض الآخرين على ذلـــك فهم لا يكترثون بما يحدث لهم . ويختفي اليهود من المسرحية دون أن يـــبادر أحـــد بالذود عنهم والدفاع عن عقيدتهم وتصاب زوجة الحبر اليهودي بنوع من اللوثة العقلية فنراها تتجول في المعبد وهي تصرخ :"أين يوجد الله ؟" الأمـــر الذي يدل على أنها تبحث عن سلطة أخلاقية يمكنها الرجوع إليها في عالم انهارت فيه القوانين الأخلاقية والإنسانية واختفى اليهود وتلاشى الله منه.

وترمـــز زوجـــة الحبر اليهودي إلى الضمير الإنساني وضرورة الدعوة إلى صـــحوته بـــل وضرورة تحميل الجميع المسئولية عن إبادة اليهود . وتستمد مســـرحية بانوفـــا فلسفتها من فكرة دستيوفسكي القائلة بأن كل شيء يمكن أن يحـــدث إذا انتفت سلطة الله من العالم . ورغم أن زوجة الحبر اليهودي تلغي الله لأنـــه سمح بقتل كثير من الأطفال الأبرياء والأحباء والأعزاء فإنها تمثل إنســـانية الإنســـان التي تخلو منها سائر الشخصيات الأخرى . كما أن موتها يرمـــز إلى اختفاء كل إيمان بقيمة الحياة ومعناها واختفاء المسئولية الأخلاقية مـــن قلـــوب البشـــر . وتهدف المسرحية إلى القول بأن مصير اليهود البائس وعداوة الجميع لهم يشيران إلى أن الجنس البشري يحطم نفسه بنفسه . فضلا عـــن أن عـــداوة السامية تنطوي على انتفاء الكرامة الإنسانية . والرأي عند بانوفا أن عداوة السامية التي تجيش في صدور البشر حتى قبل ظهور النازية واندلاع الحرب العالمية الثانية هي التي مهدت الطريق أمام هتلر والاضطهاد النازي .

وأيضـــا يتـــناول الأديـــب الروسي بوتستوفسكي في سيرة حياته معاداة الســـامية فيحدثنا عن مثقف يهودي بارز واسع العلم والثقافة اسمه روسكين . تخصـــص روســـكين في الأدب الفرنسي وبخاصة أدب فلوبرت كما أنه توفر علـــى دراســـة علمي الأحياء والنبات . وهو رجل حساس واسع الخيال كان يحمـــل المقـــت للفاشـــية منذ البداية ويعتبرها قوة غاشمة ومدمرة . ويحاصر الألمـــان الوحـــدة الروسية التي يحارب فيها روسكين فيقع أسيرا في أيديهم . ويقـــوم الألمان بفرز أسراهم وفقا للجنسيات التي ينتمون إليها ووفقا للظروف السياســـية . واعـــتقد البعض أن روسكين أرمني وليس يهوديا ولهذا كان من الممكن أن يفلت من الموت لولا أن وشى به أحد الأوغاد الروس واتهمه بأنه يهـــودي . ويفضل روسكين أن يقتل بالسم حتى لا يموت على أيدي الألمان . والجديـــر بالذكـــر أن المؤلـــف بوتستوفسكي يهدف إلى إدانة الفاشية وعداوة الـــروس للسامية على حد سواء . ومن الواضح أن بوتستوفسكي يظهر عطفا جلـــيا على اليهود وتكاد أن تكون كتاباته نوعا من الاعتذار عما أصابهم من

ملمات . إلى جانب أنه ينبه القارئ إلى الأسباب الاجتماعية والتاريخية العميقة لمعاداة السامية وينبهه إلى نتائجها غير الإنسانية .

وتتجلى معاداة السامية في أبشع صورها في القصة التي ألفها كوزينتسوف بعنوان " بابي يار " حيث يروي لنا المؤلف حالات كثيرة مما يرتكبه الروس والأوكرانيون ضد اليهود فقد سلموهم بلا رحمة إلى جلاديهم النازيين . ومن بين هذه الحالات الكثيرة حالة طفل يهودي يذبح الألمان عشيرته ولكنه ينجو من المجزرة . وتشاء الصدفة أن يلتقي بامرأة روسية تأويه وتطعمه ولكنها تبلغ عنه القيادة النازية ويأتي الجنود الألمان ليأخذوا الطفل ويحكموا عليه بالموت . وبعد أن تضع الحرب أوزارها نرى هذه المرأة الروسية الغادرة تعيش في رغد وبحبوحة . وتسرح بذاكرتها إلى الوراء وتتذكر الطفل اليهودي الذي بلغت عنه فلا تحس بأي نوع من الندم . وبالعكس نراها تقول في صفاقة ووقاحة أن الألمان كانوا على حق عندما أمروا بقتل الطفل . وينحي المؤلف باللائمة على النظام السوفيتي لأنه يسمح لهذه المرأة بممارسة مثل هذه البشاعة دون أن تمتد لها يد العدالة والقانون . وأيضا يلوم المؤلف الروس لأنهم لا يرون أن هناك ما يشين في تصرفات هذه المرأة الأمر الذي يشير إلى افتقارهم إلى الحس الأخلاقي السليم .

وكذلك تعالج رواية " بيت في الميدان " التي ألفها كازاكفتش موضوع معاداة الروس للسامية . وتقع أحداث هذه الرواية في ألمانيا في نهاية الحرب أي بعد أن تمكن الروس من احتلال الجزء الشرقي منها . وتقدم الرواية صورة لم يألفها الأدب السوفيتي تتمثل في هروب جندي سوفيتي من الجيش الأحمر والتجائه إلى الأمريكان . وهو شخصية لئيمة ومنفرة على أية حال . لقد تعودنا من الأدباء السوفيت أن ينسبوا معاداة السامية إلى النظام القيصري أو إلى الجيش الأبيض الموالي له ، ولكننا نشاهد هنا – وهو الغريب – أن الهارب من الجندية والمعادي للسامية ضابط في الجيش الأحمر .

ولا يقتصر تصوير معاداة السامية في الاتحاد السوفيتي على الأدباء الذين أشـــرنا إليهم ولكنه يمتد إلى غيرهم من المؤلفين والكتاب والرأي عند هؤلاء الأدباء أن العداء للسامية نابع من عمق اقتناع الجنسيات السوفيتية المختلفة به. فضـــلا عن أن السلطات أظهرت نوعا من التسامح إزاءه . ونحن نلاحظ في قصـــة بانوفا التي سبق الإشارة إليها أن عداء الروس لليهود لا يقل عن عداء النازييـــن لهـــم ومعـــنى هذا أن النظام السوفيتي لم يفلح في استئصال معاداة السامية من نفوس الجماهير السوفيتية حسب ما يزعم البعض ويعطي الأديب بوتوفســكي انطباعا مماثلا للإنطباع الذي تتركه بانوفا. فبوتوفسكي يشير إلى اســـتعداد كثـــير من الروس للتعاون مع الاحتلال النازي للتنكيل باليهود . أما كوزنيتســـوف فيذهب إلى أبعد من ذلك ويتهم السلطات السوفيتية بأنها تبارك معـــاداة الســـامية ولا يهمها أن تعاقب الممارسين لها على ما ارتكبوه في حق اليهود من جرائم في الماضي . ويذهب كازاكفتش إلى ما هو أخطر وأجل من هـــذا كله وهو أن العداء للسامية موجود في أقوى المؤسسات السوفيتية وهي الجـــيش الأحمر . ولا شك أن هذه الكتابات التي تشير إلى وجود عداء لليهود في الدولة السوفيتية تحث القراء على إعادة النظر في المسلمات التي يأخذونها على عواهنها والتي تذهب إلى خلو النظام السوفيتي من معاداة اليهود في عهد ســـتالين بوجه عام وفي فترة الحرب العالمية الثانية بوجه خاص . فضلا عن إعـــادة الـــنظر في الاعتقاد بأن ألمانيا النازية هي المسئولة أولا وأخيرا عن وجود هذه الظاهرة .

العداء النازي للسامية في الأدب السوفيتي :

تحدثنا جميع الأعمال الأدبية السوفيتية عن وحشية ألمانيا النازية . ويلقى بعضـــها الضـــوء علـــى النزعات العدوانية في ألمانيا في الفترة السابقة على الحـــرب العالمـــية الثانـــية التي أفضت إلى تفشي العداء للسامية في ألمانيا . ومعظـــم الأعمـــال الســـوفيتية التـــي تتناول عداء السامية عبارة عن قصص مغامـــرات يلعب فيها دور البطولة رجال المخابرات السوفيتية والأمن القومي

الســوفيتي الذيــن تقتضـــي وظائفهم تتبع التطورات السياسية خارج الحدود الســوفيتية . ولكنــنا في بعض الأحيان نرى أن البطل ليس جاسوسا أو رجل أمــن ســوفيتي بــل مجــرد روسي مهاجر إلى فرنسا مثل شخصية سيرجي بافلوفتش شيجلوف في رواية " الجبان " التي ألفها ليف نيكولين . ويعاني هذا الــرجل مــن الوحدة ويشعر بالحنين إلى العودة إلى أرض الآباء والأجداد . ولكن العقبات تعترض طريق هذه العودة . ويصف المؤلف حياة هذا المهاجر بالتفصيل ويعرض لفترة إقامته في ميونيخ بالنمسا حيث ذهب لدراسة الفلسفة في أواخر عقد الثلاثينات من القرن العشرين . وهناك في النمسا شاهد ظهور الــنزعات المعادية لليهود عن كثب . ويتزوج هذا المهاجر من طالبة يهودية هــي ابنة أستاذ في طب العيون . ويلقى النازيون القبض على ابنته وهي في طــريقها إلــى فرنسا فيرسلونها إلى معسكر اعتقال . ويتضح من الرواية أن اليهود هم ضحايا هتلر الرئيسيون وأن الهدف من التنكيل بهم هو إشعال نيران حمــاس الجماهــير الألمانية لإعادة التسلح . ومهد العنف النازي ضد اليهود للمجــازر النازية لليهود في فترة الحرب العالمية الثانية . وقد اتخذ هذا العنف أشــكالا مخــتلفة مثل مصادرة ممتلكات اليهود وشن الغارات عليهم وتفتيش بيوتهم واختطافهم والزج بهم في السجن ومعسكرات الاعتقال .

ونحــن نشاهد صورة مماثلة للعداء الألماني ضد السامية في القصة التي ألفها فاديم كوزيفنيكوف بعنوان " الدرع والسيف " التي تقع أحداثها في منطقة ريجا في الفترة السابقة على اندلاع الحرب بين ألمانيا والسوفيت . وبمقتضى معاهدة عدم الاعتداء السوفيتية النازية التي تم توقيعها عام ١٩٣٩ أصبح من حــق الألمــان مــن سكان لاتفيا (التي ضمها الاتحاد السوفيتي فيما بعد عام ١٩٤٠) الهجرة إلى ألمانيا . وتتناول القصة شخصية خبير فني يهودي أسمه جولبلات وابنته برتا وهي عازفة بيانو موهوبة . وتتمتع الابنة بحس سياسي مرهف وترفض العودة إلى ألمانيا وترى أن مستقبلها الحقيقي يكمن في الاتحاد الســوفيتي لخلــوه مــن التعصب القومي والتحيز العرقي وتواجه هذه الفتاة المتاعــب مع خطيبها بسبب نزعاته المعادية للسامية . ويوافق مؤلف القصة

علـــى قـــرار بـــرتا البقاء في الاتحاد السوفيتي لأنه الملاذ الآمن الوحيد من النازية. والمؤلف يصف عداوة السامية بالوحشية والعدوانية المدمرة والقضاء علـــى الـــثقافة والفكر . وهناك رواية أخرى تعالج العداوة النازية لليهود من تأليف فارتكيس تيفكيليات بعنوان " وكالة المستر كوتشيك للإعلان" تدور حول أعمـــال التجسس التي يقوم بها بعض رجال المخابرات السوفيتية في كل من فرنســـا وألمانيا والولايات المتحدة . ويصف المؤلف الوحشية التي اتسمت بها عـــداوة السامية في ألمانيا النازية في العقد الثالث من القرن العشرين ، وكيف كان يتعين على المسافرين إلى ألمانيا أن يثبتوا أنهم ليسوا يهودا وكيف أنه كان لزاما على اليهود أن يضعوا إشارات على أذرعهم تحمل صورة نجمة داود . إلـــى جانـــب مصادرة ممتلكات اليهود ونفيهم واضطهادهم بصورة جماعية . وكانـــت ألمانيا تعلم المواطن الألماني العادي كراهية اليهود لأنهم يسعون إلى الســـيطرة علـــى العالم والتحكم فيه وتدمير الاقتصاد الألماني وامتصاص دم ألمانـــيا في وقت الشدة بعد الحرب العالمية الأولى . ولهذا رفع الألمان شعارا يقول : " نحن لا نريد أي يهود هنا " .

وتتميز الأعمال الأدبية السوفيتية آنفة الذكر بما يلي :

١ – انها تمتدح كفاءة المخابرات السوفيتية .
٢ – أنها تدين ألمانيا النازية باعتبارها موطن العداء للسامية .
٣ – أنها تعارض التعصب القومي والعرقي فالاتحاد السوفيتي يخلو من هذه التحيزات ويوفر ملاذا آمنا لضحايا هذه التحيزات .
٤ – انهـــا تحـــض علـــى كراهـــية الغرب الفاسد وتحمل القوى الغربية الانـــتهازية مســـئولية وصـــول هتلر إلى سدة الحكم وانتشار العداء للســـامية . ولهذا يجد أبطال روايات تيفلكيان عسرا شديدا في العيش في مجتمع بورجوازي .

والجدير بالذكر أن مثل هذا النوع من الأدب السوفيتي أقرب ما يكون إلى نشرات الدعاية منها إلى الفن . غير أن هناك على نحو ما أسلفنا أنواعاً أخرى

من هذا الأدب تتحرى الدقة والموضوعية في معالجة موضوع معاداة السامية. فهي كما شاهدنا لا تقصرها على ألمانيا النازية . والهدف الدعائي من وراء الأدب السوفيتي الذي يحمل ألمانيا النازية تبعة انتهاج سياسة العداء للسامية هو تقديم صورة ناصعة البياض وطاهرة الذيل للاتحاد السوفيتي . فضلا عن انه يغطي على أية ممارسات معادية للسامية قد تحدث داخل روسيا السوفيتية .

وعلى أية حال فإن سمعة الأديبين تريفلكيان ونيكولين ليست فوق مستوى الشبهات داخل الأتحاد السوفيتي فمن المعروف أنهما من أعداء السامية . ويقول الدارسون أن الدعاية السوفيتية المنادية بخلو الاتحاد السوفيتي من كراهية اليهود دعاية غثة وضحلة ومن شانها أن تدعو إلى بعض التساؤلات : فإذا كان الاتحاد السوفيتي على مثل هذه الدراية الواسعة بممارسات النازيين المعادية لليهود قبل قيام الحرب العالمية الثانية فلماذا خرس لسانه وسكت عليها؟! ولماذا لم يفكر في فضحها إلا بعد أن قامت القوات النازية بغزو الأراضي السوفيتية ؟! وثمة سؤال آخر يطرحه المتشككون في صدق الاتحاد السوفيتي فيما يتعلق بالاضطهاد النازي لليهود. لماذا لم تحرك السلطات السوفيتية ساكنا عندما أقدم الغزاة النازيون على إبادة اليهود في روسيا بعد الزج بهم في معسكرات الاعتقال ؟ ، ويدفعنا هذا التساؤل الأخير إلى دراسة الأدب السوفيتي الذي تناول إبادة النازيين لليهود في وادي بابي يار .

بابي يار وجوانب الهولوكست الأخرى :

ينحي شاعر روسيا الغاضب يفتشنكو باللائمة على بعض الأدباء السوفيت لأنهم يعادون السامية ويرى أن كراهية اليهود شيء يرفضه الشعب الروسي ولا يقره . فضلا عن أنه يعيب على الذين يدعون الإيمان بالشيوعية ثم يتخذون في الوقت نفسه مواقف مناهضة لليهود . والرأي عنده أن ستالين اخطأ خطأ فاحشاً عندما شجع على معاداة السامية بالفعل دون القول ويرى يفتشنكو أن الشاعر الحق في نظره لا بد أن يناضل ضد كل أنواع المظالم .

ويـــروي يفتشنكو في سيرة حياته الظروف التي ألف فيها واحدة من أهم قصـــائده علـــى الإطلاق ، وهي "بابي يار" . فيقول أنه كان يتطلع إلى تأليف قصـــيدة يهـــاجم فـــيها معاداة اليهود والسامية في روسيا . ففي أحد الأيام قام يفتشـــنكو بزيارة مدينة كييف حيث شاهد بنفسه الهاوية السحيقة التي ألقى فيها الغزاة الألمان الآلاف من جثث اليهود الذين فتكوا بهم . واهتاجت مشاعره فلم تســتغرق كـــتابة القصيدة منه بعد عودته إلى موسكو أكثر من ساعتين توجه بعدهمـــا إلـــى معهد البولتكنيك ليلقي فيه حديثا عن كوبا . وبعد أن فرغ من حديثه عن كوبا ألقي قصيدة " بابي يار " لأول مرة بين جمهور الحاضرين ؛ فبهت الجميع وران عليهم صمت مروع ، ومرت لحظات من السكون استعاد المستمعون بعدها توازنهم . وأخذ يفتشنكو يطبق الورقة التي كتب فيها قصيدته اســتعداداً للانصـــراف . ففوجـــئ بجمهور الحاضرين يهب واقفاً ويصفق له تصـــفيقاً حـــاداً ومتواصلاً استمر عشر دقائق ، وأقبل عليه الناس يحتضنونه فاغرورقت عيناه بالدموع . وجاء رجل عجوز ليقول له إن ما كتبه عن بابي يـــار هو الثورة التي خانها أعداؤها . ورغم ذلك فالثورة مستمرة ولن تنطفئ جذوتها أبداً . وأضاف الرجل العجوز أن الخمسة عشر عاماً التي قضاها في عهـــد ســـتالين فـــي أحد المعسكرات لم ولن تقتلع منه إيمانه بالثورة . عندئذ أجهش شاعرنا بالبكاء .

وحمـــل يفتشـــنكو قصيدة " بابي يار " إلى مجلة الجازيت الأدبية بهدف نشرها والتف حوله العاملون بها فقرأها عليهم ، الأمر الذي أثار إعجابهم بها فـــنادوا على بقية زملائهم كي يحضروا ويستمعوا إليها ، وطلب البعض منهم أن يعطـــيهم نســـخة مـــن قصيدته فبدت على وجهه أمارات الحيرة والحرج والاندهاش . وقال إنه جاء إليهم كي ينشروا له القصيدة . فحل الوجوم عليهم فلم يدر بخلد أي منهم أنه يمكن لمثل هذه القصيدة أن تنشر . وقطع واحد من المحرريـــن الصـــمت المخيم بقوله : " أن ستالين لم يمت فهو لا يزال يعيش فيـــنا". وأعطـــى على الفور تعليماته الكتابية بطبع القصيدة غير أنه طلب من مؤلفهـــا الانتظار حتى يتأكد من أن رئيس التحرير أيضا يوافق على نشرها .

وانــتظر الشــاعر أكــثر مــن أربع ساعات طوال مضت عليه ثقيلة بطيئة ومشحونة بالقلق جاءه خلالها عمال المطبعة ليعبروا عن إعجابهم بالقصيدة . وقــال أحدهــم أن أي مهذب لا يوافق على كراهية اليهود ومعاداة السامية . وأخيرا استدعاه رئيس التحرير ليقول إنه موافق على نشر القصيدة وأنه تأخر كــل هذه الفترة لأنه كان حريصاً على أخذ رأي زوجته في هذا الموضوع . وأضــاف رئــيس التحرير أنه اعتاد استشارة زوجته قبل اتخاذ أي قرار جد خطير لأنه يثق في سلامة بصيرتها .

ويعد نشر هذه القصيدة تلقى الشاعر نحو عشرين ألف خطاب يعبر فيها أصحابها عن إعجابهم العظيم بها وكالعادة استغلت وسائل الإعلام الغربية هذه القصــيدة وهجوم المسئولين وبعض النقاد عليها ليثبتوا أن الاتحاد السوفيتي لم يستأصــل شأفة العنصرية ومعاداة السامية من نفوس مواطنيه . ولكن موقف عامــة الناس من هذه القصيدة كان مغايراً . فقبل سفره إلى كوبا ألقى الشاعر قصــيدته فــي مــيدان ماياكوفسكي أمام جمهور يصل عدده إلى عشرة آلاف جاءوا ليودعوه قبل رحيله ويستمعون إلى شعره .

ويأســى يفتشنكو لأن الدولة السوفيتية لم تفكر في إقامة نصب أو شاهد تذكــاري للتدلــيل على حدوث مجزرة لليهود في بابي يار الأمر الذي يوحي بــتواطؤ السوفيت مع النازيين على طمس معالم هذه الجريمة النكراء . ولكننا نخطــئ إذا ظننــا أن جمــيع الروس استقبلوا "بابي يار" بالتهليل والتكبير فقد استقبلها البعض بالهجاء والقدح . فقد ألف الأديب السوفيتي المتعصب للقومية الروسية جورجي ماركوف أبياتا بعنوان " إجابتي " انتقد فيها الشاعر يفتشنكو لأنــه قلــل من أهمية الدور الذي لعبه الروس في تخليص اليهود وتحرير كل الجنسيات السوفيتية المختلفة من براثن النازيين ويضيف ماركوف أن الروس ولــيس اليهود هم الذين يستحقون إقامة نصب تذكاري لهم وأن هناك أكثر من بابي يار قام فيه النازيون بذبح آلاف الروس .

وأيضا ألف يفتشنكو قصيدة أخرى بعنوان " مدير محطة الطاقة " نشرها عـــام ١٩٦٥ (أي بعـــد نشر بابي يار بأربعة أعوام) . وتدور هذه القصيدة الثانـــية حـــول يهـــودي اسمه إزيا كتبت له الحياة بعد اجتياح القوات النازية للأراضــــي السوفيتية . وتعينه الدولة مديرا لمحطة توليد الطاقة في سيبريا . وقد كان الرجل في شبابه عندما قامت ألمانيا بغزو روسيا وإبادة عائلته وذويه، ولأنه شاهد بنفسه فظاعة ما جرى لهم فإنه يعتبر ذكرى الماضى كابوسا يجثم علـــى صدره ويكتم أنفاسه . حتى حاضره كئيب وحزين فالروس الذين يعيش بيـــن ظهرانيهم لا يعاملونه كواحد منهم بل كأجنبي غريب عنهم . فضلا عن انهم يعاملونه بمنتهى الاحتقار والازدراء . ويرى هذا اليهودي نفسه شخصين ولـــيس شخصـــا واحداً : شخص يعيش في الحاضر وشخص آخر يعيش في الماضــــي والجيتو . ورغم أن قصيدة " مدير محطة الطاقة " لا تتناول الإبادة الجماعـــية للـــيهود مثلما تفعل قصيدة " بابي يار " فإنها تدل على انشغال بال الشاعر يفتشنكو بمحنة اليهود وهمومهم .

والجديـــر بالذكـــر أن جورجـــي مراكوف لم يكن وحده الذي انبرى لنقد قصيـــيدة يفتشـــنكو " بابـــي يـــار " فقد اشترك معه في نقدها الكاتب ديمتري ســـتاريكوف فـــي مقـــال طويل سطره بعنوان " حول قصيدة معينة " . هاجم ســـتاريكوف يفتشـــنكو لسوء فهمه للتاريخ والتهوين من شأن تصدي الاتحاد الســـوفيتي للـــنازية مضـــيفا أن النازيين قتلوا الروس واليهود على حد سواء ومـــتهما اليهود بأنهم لم يفعلوا شيئا في الدفاع عن روسيا يستحقون عليه إقامة نصب تذكاري لهم . وتأييدا لوجهة نظره استشهد ستاريكوف ببعض أقوال إليا اهرنـــبرج الذي قال عام ١٩٤٤ إن النازيين لم يقتلوا اليهود فحسب بل قتلوا الـــروس والأوكرانييـــن أيضـــا وكذلك اليوغسلافيين والبولنديين . وقد سبق لإهرنـــبرج أن كتـــب عـــام ١٩٤٣ يقول إن الألمان قتلوا مئات الأوكرانيين والبيلوروسيين والفرنسيين واليونانيين. كما أن اهرنبرج كتب في عام ١٩٤١ يقـــول ليس صحيحا أن الألمان يخصون اليهود بالعداء فهم يعادون الصربيين فـــي يوغســـلافيا ويســـتعبدون البولنديـــن ويكرهون جميع الأمم . لقد كان

ســـتاريكوف خبيثاً عندما استشهد بأقوال اهرنبرج اليهودي وكان يسعى بذلك إلـــى إخفاء مشاعره المعادية للسامية الأمر الذي جعل اهرنبرج نفسه وكثيرين غـــيره يستنكرون موقف ستاريكوف . ورغم ذلك فإنه يمكن القول أن مشاعر التأييد لقصيدة " بابي يار " ليفتشكنو فاقت بكثير المواقف المنددة بها . وانبرت أقلام كثيرة لتبين أن اليهود لم يتقاعسوا عن الدفاع عن الاتحاد السوفيتي وأن جمـــيع جنســـياته تكاتفت لمحاربة النازية . وترجع أهمية " بابي يار " إلى ما أثارته من مناقشات داخل الاتحاد السوفيتي .

ولعلنا نذكر أن الكاتب السوفيتي كوزنيتشوف أوضح بجلاء أن السلطات الســـوفيتية مسئولة عن نكبة اليهود في " بابي يار " بل أنه يتهمها بالسعي إلى محو بابي يار من ذاكرة التاريخ . ويتهم كوزنيسوف هذه السلطات بأنها ملأت هـــذا الفـــج السحيق بالمباني والمنشآت والماء حتى حولته إلى مكان للفسحة والترفـــيه كـــي ينسى الناس البشاعات التي حدثت فيه . ويؤكد هذا الكاتب أن الروس والأوكرانيين اتسموا بالممارسات المعادية لليهود إبان الحرب العالمية الثانـــية وأن الأوكرانيين بالذات لا يكرهون اليهود فحسب بل يكرهون النظام السوفيتي نفسه . والرأي عنده أن النازيين استغلوا كراهية الأوكرانيين لكل من اليهود والسوفيت وأغروهم بالتعاون مع الألمان للتخلص من اليهود . ولا ينكر كوزنيسوف أن هناك في بابي يار ضحايا من الروس والأوكرانيين ولكنه يؤكد أن الســـواد الأعظـــم من الضحايا كانوا من اليهود . ولهذا فهو يحمل الروس مسئولية ما حدث لليهود في بابي يار .

ويذهب كوزنتسيف إلى أن السلطات السوفيتية لم تمهد الشعب الأوكراني للحرب كما أنها تقاعست عن إجلاء سكان المناطق المهددة . ولكن كبار رجال الدولة والمخابرات السوفيت استطاعوا الهرب في وسائل نقل أعدت خصيصا لهـــم . أما أفراد الشعب العاديين فلم يتمكنوا من الهرب من كييف . وأيضا لم تفعـــل الدولـــة الســـوفيتية شيئا لتحذيرهم من المصير التعس الذي ينتظرهم . بـــالعكس رســـمت صورة وردية زائفة للعلاقات الوردية التي تربطها بألمانيا

النازية ولم تشر مطلقا إلى حرب الإبادة التي كان هتلر يعتزم شنها ضد اليهود. فضلا عن أنها لم تساعد اليهود على الهرب أو حتى على إعدادهم للدفاع عن أنفسهم . بل أنها أعطت لليهود بطاقات هوية مميزة سهلت على النازيين التعرف عليهم ومن ثم التخلص الجماعي منهم .

وعندما استولت القوات النازية على كييف قام رجال المخابرات السوفيت بتدمير البيوت والمسارح والمتاحف وتسوية كل المباني بالأرض الأمر الذي استغله الألمان في ترويج إشاعات مفادها أن اليهود مسئولون عن هذا التخريب ولهذا يجب تخليص المدينة من شرهم . وأخيرا يتهم كوزنتسيف السلطات السوفيتية بمعاداة السامية بدليل أنها أرغمت اليهود الذين بقوا على قيد الحياة بعد الهولوكست أمثال دينا برونتشيفا وفلاديمير دافيدوف على السكوت وعدم ذكر أي شيء عن مذبحة اليهود على أيدي القوات النازية في بابي يار .

وتلقى قصة "بابي يار" التي ألفها كوزنتسيف ضوءا غامرا على الإبادة التي تعرض لها اليهود في كييف إبان الحرب العالمية الثانية . والقصة لا تحمل النظام السوفيتي مسئولية قتل اليهود فحسب بل قتل الأوكرانيين والروس أيضا .

وألف ب. جافروتو قصة بعنوان " سحب فوق المدينة " وتروي لنا القصة خيانة بعض اليهود للمقاومة الأوكرانية تقول القصة على لسان زعيم المقاومة السرية في إحدى المناطق الأوكرانية أن يهودياً اسمه كوجان أبلغ الألمان عن شبكة كاملة تضم ألف عضو من أعضاء المقاومة السرية . وتوحي القصة بأن هناك مبالغة في تقدير عدد اليهود الذين أزهقت النازية أرواحهم . نشرت قصة " سحب فوق المدينة " لأول مرة عام ١٩٦٣ ثم أعيد نشرها في عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٨ .

ولم يسكت بعض النقاد على اتهام جافروتو لليهود بالخيانة فقد انبرت الناقدة أنا جروموفا للدفاع عنهم قائلة أنه لا يوجد أي إشارة بالمرة إلى اسم

كوجـــان فـــي قوائـــم حركة المقاومة السرية في كييف . فضلا عن أن قصة الخيانة مختلقة من أساسها لأن المؤرخين لم يشيروا على الإطلاق لحدوث أي خيانة في صفوف المقاومة السرية الأوكرانية . ورغم أن أنا جروموفا تعترف بوجود شخص حقيقي أسمه أ.ج كوجان فإنها تؤكد أن خيانته حكاية مختلقة ولا أساس لها من الصحة .

لقد سبق أن أشرنا إلى هجوم جاركوف وستارليكوف على يفتشنكو . وها نحن نرى جافروتو يفعل نفس الشيء .

وعلى أية حال لم يقف يفتشنكو وحده ليدافع عن ضحايا النازية من اليهود فقد انضم إليه الشاعر فوز تسنيكي الذي ألف قصيدة أهداها إلى ضحايا الفاشية بعـنوان " نداء البحيرة " وتهدف القصيدة إلى القول أن نسيان ما حدث لليهود فـــي مـــنطقة البحـــيرة جريمة نكراء . والجدير بالذكر أن السلطات السوفيتية أغرقت المنطقة بالماء حتى تحولت إلى مكان للترفيه وتسيير المراكب وصيد الأســـماك الأمـــر الذي يذكرنا بما حدث للفج العميق المعروف باسم بابي يار الذي ملأه السوفيت أيضا بالماء الصناعي بغية تحويله إلى مكان للهو والتسلية في محاولة لطمس ما شاهدته هذه المنطقة من مآس وفواجع .

مؤامرة الأطباء اليهود واتهام اليهود بالانفتاح على الغرب :

بعد وفاة ستالين بوقت قصير نشر الكاتب اليهودي الليبرالي إليا اهرنبرج رواية بالغة الأهمية بعنوان " ذوبان الثلج " تصور الحملة الضارية التي شنها ستالين لتطهير المجتمع السوفيتي من المنادين بضرورة الانفتاح على الغرب . وســوف نطالع المزيد عن اهرنبرج في فصل مستقل خصصناه لدراسة حياته وأعماله .

ولكنـــنا نغتنم هذه الفرصة لنذكر أن عددا من الكتاب والمؤلفين السوفيت حذوا حذو اهرنبرج واقتفوا أثره . ومنهم القصصية أ. فالتسيفا التي ألفت قصة

بعنوان " الشقة رقم ١٣ " تصور شخصية رجل مخابرات سوفيتية سابق يتسم بالقسوة والأنانية والغرور كما أنه لا يخفى عداءه السافر للسامية. وتقول لنا فالتسيفا في روايتها أن الاتحاد السوفيتي يمارس عداوة السامية على نطاق غير ضيق . وتدور أحداث هذه الرواية في فترة الخمسينات حتى وفاة ستالين. وهي تتناول حملة ستالين الضارية ضد الانفتاحيين على الغرب إلى جانب ما يعرف باسم " مؤامرة الأطباء " وهي مؤامرة وهمية نسبتها المخابرات السوفيتية إلى عدد من الأطباء اليهود اتهمتهم السلطات بدس السم لكبار رجال الدولة . وتذهب المؤلفة إلى أن روسيا لم تعرف عداوة السامية قبل الحرب وأن المشاعر المعادية لليهود ترجع إلى الغزو النازي للأراضي السوفيتية . والمؤلفة تحمل النظام السوفيتي وعلى رأسه ستالين مسئولية نشر المشاعر المعادية لليهود .

وعن فترة الرعب الستاليني نشرت القصصية نيكوليفا قصة بعنوان " المعركة الجارية " تدور حول عالم فلك يهودي اتهمه الحزب الشيوعي بالانحراف عن المبادئ الشيوعية الأصيلة بالانفتاح على الغرب .

ويعالج يوري بونداريف نفس الموضوع في رواية بعنوان " السكوت " حيث نرى النظام السوفيتي يتهم ناقدا فنيا يهوديا بالبورجوازية والدعوة إلى الانفتاح على الغرب .

وتحدثنا المذكرات التي نشرها بوريس دياكوف بعنوان " تجاربي " عن ضحايا حملة ستالين على الانفتاح كما يحدثنا دياكوف عن معسكرات العمل التي زج به في واحد منها عام ١٩٥٠ – ١٩٥١ بناء على تقارير المخابرات السوفيتية .

وأيضا يذكر الشاعر يفتشنكو في سيرة حياته الذاتية الحملة ضد دعاة الانفتاح على الغرب كما يذكر المؤامرة الوهمية المنسوبة إلى اليهود المتهمين بالسعي إلى قتل زادانوف والإطاحة بكبار رجال الدولة السوفيتية . ويعتبر

يفتشنكو النظام السوفيتي مسئولا عن انتشار ظاهرة العداء للسامية . يقول يفتشنكو في هذا الصدد أنه تناقش مع رفيق شيوعي في هذا الموضوع . وظل رفيقه يجادله حتى الصباح لاقناعه بأن اليهود طغمة من الخونة والمتآمرين ولما رفض يفتشنكو الاقتناع بهذا لامه رفيقه الشيوعي على قصر نظره السياسي . وفي اليوم التالي نشرت الصحف خبرا مفاده أن مجموعة من الأطباء اليهود تآمروا للتخلص من كبار رجال الدولة . غير ان يفتشنكو استنكر أن يؤمن المرء بالشيوعية وبعداوة السامية في آن واحد .

وبالإضافة إلى ذلك نذكر أن القصة التي ألفها آي جريكوفا بعنوان " في المحاكمة " تتهم النظام الستاليني بالحض على كراهية اليهود . وتقع أحداث القصة في عام ١٩٥٢ أي قبل وفاة ستالين بعام واحد . وتظهر هذه المؤلفة العطف على ضحايا ستالين من اليهود .

والجدير بالذكر أن عقد الستينات في الاتحاد السوفيتي شاهد تصاعدا للمشاعر المعادية لليهود . ويتضح هذا من إعادة نشر قصة بعنوان " قضية سيمنشول " عام ١٩٦٨ . وهي قصة كان الكاتب ليف شينين قد ألفها عام ١٩٣٨ وتدور أحداثها في عقد الثلاثينات . والقصة تعكس نزعة السوفيت إلى مطاردة اليهود في روسيا في أواخر الستينات أي عقب الحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٦٧ وهي الحرب المعروفة بحرب الستة أيام . وتحدثنا الرواية عن نزوع كثير من رجال الأمن والمخابرات السوفيت إلى كراهية اليهود وهو الأمر الذي ساعد على إشاعة جو من معاداة السامية في ربوع الاتحاد السوفيتي .

اليهود كمواطنين من الدرجة الثانية :

يتضح لنا مما سلف أن النظام السوفيتي شاهد تيارين متعارضين أحدهما ليبرالـــي متفـــتح يدافـــع عـــن اليهود ويقف في صفهم وآخر رجعي يندد بهم ويعتبرهم أعداء البلشفية . ويجدر بالذكر أن التيار الرجعي طرأت عليه بعض التغــيرات فبعد أن كان يصم اليهود بالجبن ويتهمهم بمحاولة قلب نظام الحكم نراه يغير تكتيكه في الهجوم عليهم فهو ينظر إليهم الآن على أنهم جسم غريب على الأمة السوفيتية يتكون من مواطنين من الدرجة الثانية لا أهمية لإسهامهم فـــي بناء الاتحاد السوفيتي . وليس من شك أن ظهور العداء للسامية من جديد حتى بعد ستالين يدل على أن بذرته غائرة في تربة المجتمع السوفيتي وأن هذه البذرة تنمو أو تذبل حسب الظروف .

وفـــي عام ١٩٥٧ نشرت الكاتبة ناتاليا إلينا قصة بعنوان " العودة " تدور حول يهودي نصاب وغشاش يمارس عمليات الابتزاز . وهو ليس إنسانا أنانيا وطفيلـــيا يستغل الآخرين بوحشية فحسب بل خائن ونهاز للفرص لا يعلق أية أهمية على الانتماء القومي أو الوطني . ومن ثم فهو يهاجر إلى منشوريا كي يمارس فيها طموحاته البورجوازية ورغبته في جمع المال .

وكمـــا أســـلفنا ظهر في الاتحاد السوفيتي في أواخر الستينات من القرن العشـــرين عدد من الأعمال المناهضة لليهود مثل القصة التي ألفها فارتكيس تيفيكـــيان بعنوان " وراء نهر موسكو " تدور حوادثها حول بعض المهندسين والفنيين الذين يعملون في مصنع بالقرب من موسكو . والجدير بالذكر أن هذا المؤلف أمضى عددا من سنوات عمره في مصنع للغزل والنسيج ..وقد أصدر أول كـــتاب له عام ١٩٢٩ تحت عنوان " مذكرات مدير مصنع " ثم قرر في الخمسينات أن ينذر نفسه لتأليف كتب تصف حياة عمال المصانع .

وتحتوي قصة " العودة " التي ألفتها ناتاليا إلينا على شخصية يهودي اسمه سليمان موايزيفتش كازارنوفسكي . وهو نصاب ورئيس عصابة يطارده رجال

الأمن بمساعدة المواطنين الروس الشرفاء وهو يتاجر في السوق السوداء ويرتكب أعمالا تسيء إلى اقتصاد الدولة مثل الاتجار بالعملة الصعبة والمضاربة . وهو لا يكتفي بشراء الدولارات من السائحين الأمريكان بل يساعد أعداء البلاد على تهريب بعض الكتابات الهدامة والساعية إلى قلب نظام الحكم الأمر الذي يدل على تأصل الخسة والخيانة فيه . هذه الصورة القميئة لليهود تتفق مع صورتهم التقليدية في عهد النظام القيصري والتي من المفروض أنها تغيرت بعد مجيء النظام السوفيتي . كما أنها تتفق مع الصورة التي رسمتها لهم أجهزة الدعاية النازية .

وكذلك تتجلى هذه الصورة النمطية التقليدية لليهودي كنصاب محتال معدوم الضمير في القصة التي ألفها الكسي كروتتسكي بعنوان " الأرواح الملعونة " .

هجوم الأدب الروسي على الصهيونية :

يعتبر الروائي إيفان تشفتسوف في طليعة الأدباء الروس الذين هاجموا الصهيونية . وتدور روايتاه " الحب والكراهية " و " باسم الأب والأبن " حول مطاردة المجتمع السوفيتي للعناصر المعادية له وعلى رأسها العناصر الصهيونية . وتحدثنا الرواية الأولى " الحب والكراهية " عن يهودي طفيلي اسمه ناعوم جولستر يعيش في رغد وبحبوحة . وهو عربيد يلتف حوله في فيلته جمع من المثقفين والفنانين والممثلين والصحفيين . ويعتبر المؤلف هؤلاء المثقفين حثالة المجتمع وطغمة من الأشرار والمجرمين الذين ينشرون الفوضى والارتباك الأيديولوجي في المجتمع ويدخلون موضات غريبة وهدامة على الفن الاشتراكي . ولا غرو فالمؤلف عدو لدود للتجديد في الفن وخاصة لاعتقاده أن اليهود هم الذين يلعبون دورا بارزا في حركات التجديد .

أما الرواية الثاني " باسم الأب والابن " فترسم صورة ليهودي قميء اسمه ماكس الفاسيف يدمر الشباب السوفيتي الموهوب عن طريق إغرائه بالابتعاد

عــن الواقعية الاشتراكية في الفن واتباع الأساليب الغربية في التجديد. ولعل المؤلــف يشــير بهذا الهجوم إلى كاتبين روسيين مولعين بالتجديد هما اندريه فوزيسنسكي وبيلا أخمادولينا اللذان تأثرا في أدبهما ببعض اليهود .

والــيهود فــي أعمال تشفتسوف في العادة في طليعة المثقفين التقدميين . وهم في نظره مسئولون عن تحطيم المواطن السوفيتي واستقدام أفكار ومفاهيم جديــدة هدامة في الفن . واليهود بإيجاز شديد هم ألد أعداء الشعب السوفيتي . وتشفتسوف يخص بالذكر الصهيونية في روايته " باسم الأب والابن " ويعتبرها مســئولة عــن الانحراف في الأدب والأخلاق والحياة العامة. ويبدو أنه كان يعتــبر تروتســكي (اليهودي) رائد الصهيونية . والرأي عنده أنه لولا ستالين الروسي القادم من منطقة جورجيا ودفاعه المجيد عن المصالح الروسية لكان تروتســكي قــد تصالح مع هتلر ولكان في ذلك شقاء البشرية جمعاء . وحتى تكتمل صورة تشفتسوف عن الصهيونية وتهديدها للجنس البشري فلا بد من الرجوع إلى روايته الأولى " الحب والكراهية " وإلى شخصية ناعوم جولستر المجــرم الــذي يقــتل أمه استجابة لنزعاته والإجرامية . فضلا عن انه يقتل ضــحية أخرى اسمها مونيكا بعد إيذائها وتعذيبها . فقد عودها على اخذ جرع مورفيــن كــي تصبح كالعجينة في يده يفعل بها ما يشاء . وجولستر وطغمة الأشــرار التي تحيط به يتاجرون بالمخدرات . وهم يلجأون إلى التخلص من ضــحاياهم خوفــا مــن أن يشوا بهم ويبلغوا البوليس عنهم . ويسعى المجرم جولســتر إلــى الهرب إلى الخارج ولولا يقظة البوليس السوفيتي لتمكن هذا الــيهودي الشرير من الهرب فعلا . وجولستر لا يتاجر بالمخدرات فحسب بل يقوم بتوزيع النبذات الداعية للصهيونية .

وغايته في الحياة هي الحصول على المال بأية طريقة وأي أسلوب على حــد قــول ضابط البوليس الذي قبض عليه . ومن النادر ان نجد بين الأدباء الروس والسلافيين من يناصب الصهيونية العداء أكثر من تشفتسوف . ويبالغ هذا المؤلف في تصوير ما تحتويه شخصية اليهودي من شر . والرأي عنده أن

الصـــهاينة يحيكون مؤامرة مع الدول الغربية ضد الاتحاد السوفيتي . وهو لا ينسى أن يمجد سياسة ستالين القومية الرشيدة ويشيد برغبته في المحافظة على نقـــاوة الفـــن والشـــعب الروســـيين . وبهذا تعود روايات تشفتسوف بنا إلى الســـتالينية ومـــبدأ عـــبادة الفرد الذي هاجمه خروتشوف بضراوة . ولم يكن تشفتســـوف الوحـــيد بيـــن الكتاب الروس ممن دعوا إلى إحياء الستالينية فقد شـــاركه عدد من الكتاب الآخرين أمثال كوشتوف وزاكروتكين ومارياجين . ولكن تشفتسوف يفوقهم جميعا في رجعيته وشوفنيته وعبادته لستالين .

ومـــن الأعمـــال الأدبـــية الأخـــرى التي تهاجم الصهيونية تلك الرواية التســـجيلية التي ألفها ايجور بلييف بعنوان " عن الطريق الخلفي " وهي تدور حول الحرب العربية الإسرائيلية التي نشبت عام ١٩٦٧ والمعروفة باسم حرب الســـتة أيـــام . والرواية تحاول أن تتحرى الموضوعية في وصف الظروف المؤديـــة للحـــرب . وهي تتضمن معلومات تتفق مع وجهة النظر السوفيتية الرســـمية . تـــبدأ مـــناظر هذه الرواية التسجيلية في مطار اللد في إسرائيل . وهـــناك أيضـــا مـــناظر تصور القاهرة وباريس وواشنطن . وتشمل الرواية شخصيات تاريخية هي جمال عبد الناصر وشارل ديجول ومكنمارا إلى جانب سياسيين وعسكريين ورجال مخابرات إسرائيليين مثل اشكول . تقول الرواية: " وابتعد أشكول عن النافذة واقترب من منضدة صغيرة تحمل قدحا من القهوة. وأغمض أشكول عينيه وبدأ يحتسي القهوة ببطء شديد . وانعشت القهوة ذاكرته وهـــدأت أعصـــابه . ولكن الأفكار الثقيلة ظلت جاثمة على ذهنه فتذكر ألمانيا النازية قبل الحرب وكيف أنه كان يساعد اليهود المضطهدين على الهرب إلى فلســـطين . وها هو الآن يستعد لشن حرب على العرب الذين استقبلوا بقلوب مفتوحة ضحايا النظام النازي . "

ومعنى هذا أن المؤلف يبرز موقف العرب النبيل من اليهود والفارين من وجه هتلر . والصهيونية كما يصورها بلييف مذهب توسعي يهدف إلى سيطرة إسرائيل على العالم العربي فهي إذن صورة طبق الأصل من ألمانيا النازية .

وهـــي قـــادرة علـــى ممارسة نفس أعمال هتلر الوحشية . تقول الرواية عن الجنرال ياكوف الإسرائيلي الذي يستعد لشن الهجوم على العرب أن فكره بدا مشوشـــا وأن صــــهيونيته هـــي الشيء الوحيد الذي جعل نفسه تستقر وتهدأ . وشـــعر أن واجبه يقتضي منه اللجوء إلى كل الوسائل الممكنة لتحقيق الهدف الســـاطع الماثل امام عينيه . وهو إقامة دولة إسرائيل الكبرى . وهو من أجل هدفـــه علـــى اســـتعداد للاســـتعانة بهتلر النازي الذي أباد اليهود في معسكر اسويتشز المعروف . ويرى بلييف أن زعماء إسرائيل نسوا ما تعرضوا له من ظلم وضيم وفقدوا الإحساس الأخلاقي في السياسة وتحولوا إلى جلادين بعد أن كـــانوا ضحايا يسعون إلى الانتقام من جيرانهم العرب . وهو في وصفه لبن جوريـــون يثبـــت أن ثمة علاقة تربط بين المذهب الصهيوني والعدوان وبث الرعب والاستيلاء على الأرض . تقول الرواية : " لم يكن بن جوريون رائدا مـــن رواد الصهيونية فحسب بل كان يدافع باقتناع عن المبدأ القائل أنه يتعين علـــى كـــل يهود العالم أن يجتمعوا في سلام في دولة إسرائيل . وهذه الفكرة المضـــحكة هي الأساس الذي بني عليه استراتيجيته الطويلة الأمد الرامية إلى التوســـع . وإذا تذكرنا أن الأرض التابعة للدولة اليهودية في فلسطين العربية ســـابقا كانت أصغر من أن تستوعب جميع اليهود فلا بد من بذل أقصى جهد لتوســـيع رقعة الأرض التي تملكها إسرائيل عن طريق الحرب بطبيعة الحال علـــى حســـاب جيرانها العرب . ولهذا السبب نجد أن أول رئيس وزارة في إسرائيل حفر كلمتي ضم الأراضي على العلم الذي يرفعه ولم يحد مطلقا عن هذه السياسة . "

وهكذا نرى مؤلف الرواية بلييف يؤكد أن الصهيونية عدوانية بالضرورة بســـبب دعوتهـــا إلـــى جمع وتوحيد كل يهود العالم . وترسم الرواية صورة لموشـــي ديـــان وبعض الشخصيات الإسرائيلية الأخرى تتفق مع الدعاية التي دأب الاتحاد السوفيتي بثها بخصوص حرب ١٩٦٧ وتتلخص هذه الدعاية في اتهـــام إســـرائيل بممارسة العدوان وضم الأراضي وعقد الصداقة مع ألمانيا الغربـــية واتباع الأساليب النازية إلى جانب التشدد القومي المصحوب بالرغبة

فـــي السيطرة على العالم في حين تصور الدعاية السوفيتية جمال عبد الناصر بأنه زعيم يحب السلام ويفعل كل ما في وسعه للحيلولة دون اندلاع الحرب . ويلتمس المؤلف الأعذار للعرب فيقول أن تصرفات إسرائيل معهم مسئولة عن مناصبتهم العداء لها .

ويســـتطرد بليـــيف قائلا إن خوف بن جوريون من أن يقوم المصريون بانتهاك السيادة الإسرائيلية عن طريق إغلاق مضيق العقبة دفعة إلى الاعتداء إلـــى مصـــر . تقول الرواية : " وفي مناقشاته أن مصر قد تتدخل في حرية الملاحـــة فـــي خليج العقبة نسى (بن جوريون) أن يذكر أن (إسرائيل) أقامت ميـــناء إيـــلات بطريقة غير مشروعة عند رأس الخليج في موقع قرية عربية صـــغيرة هي أم الرشراش . وعند توقيع الهدنة بين مصر وإسرائيل يوم ٢٤ فـــبراير ١٩٤٩ كانت ام الرشراش جزءا من الأراضي المصرية . وفي ١٠ مارس من ذلك العام قامت القوات الإسرائيلية باحتلال منطقة ساحلية مساحتها خمسة أميال تشمل موقع هذه القرية . فلماذا إذن ينسى المصريون أن إسرائيل ضمتها دون مبرر إلى أراضيها ؟! "

وتوحـــي الرواية بأن المصريين فكروا في استعادة الأرض التي فقدوها بـــالقوة وبأن إسرائيل حاربت في ١٩٦٧ لأسباب دفاعية وأن العرب هم الذين تحرشـــوا بهـــا كي تطلق الطلقة الأولى ، الأمر الذي يلقى بظلال الشك على نزعة جمال عبد الناصر إلى السلام فقيامه بإغلاق مضيق العقبة ينطوي على نوع من التحرش بإسرائيل .

ويحدثنا بلييف في روايته عن خطأ فنى فاحش ارتكبه جمال عبد الناصر عندما حرك دباباته يوم ١٥ مايو ١٩٦٧ داخل صحراء سيناء دون أن تتوفر لـــدى الجـــيش المصري أية إمدادات للمياه . تقول الرواية أن القائد اليهودي ياكوف كان يدرك أن الجندي في الصحراء الذي لا يجد جرعة ماء يطفيء بها ظمأه لا يستطيع أن يفكر في القتال . ورغم عداء المؤلف للصهيونية والسامية فإنه يعطينا الانطباع بأن إسرائيل في ١٩٦٧ كانت تدافع عن نفسها .

باسترناك واليهود

فـــي روايـــته الشـــهيرة الدكتور زيفاجو يتناول بوريس باسترناك الثورة البلشـــفية التي شبت عام ١٩١٧ ودور اليهود في إشعالها ثم الاكتواء بنارها . فقـــد أصبح اليهود ضحايا الجيش الأبيض الموالي للقيصرية والجيش الأحمر الموالـــي للبلشـــفية . وهو ما دعا لارا ويوري زيفاجو في الرواية إلى إظهار العطف عليهم . ويذهب الدكتور زيفاجو إلى القول بأن اليهود يستحقون اللوم على المصائب التي تحل بهم فهم يطالبون دائما بأن يكون لهم وضع متفرد . وهذا يعرضهم للمخاطر في وقت الأزمات كما يعرضهم للاضطهاد من جانب الأمـــم الأخـــرى . والـــيهود في وقت الأزمات إما يصبحون قادة وزعماء أو ضـــحايا الاضـــطهاد . والرأي عنده أن اليهود يتسمون بالتعصب لأفكارهم . ولهـــذا الســـبب يصبح من السهل عليهم الارتفاع إلى قمة أي نظام ناشئ أو جديد غير أنهم ينسون أنهم لا يستطيعون إغفال ديانتهم مهما كان الدور الذي يلعـــبونه فـــي إقامـــة أي نظـــام جديد . ومن ثم فهم يبقون يهودا على الدوام ويتعرضـــون لاضـــطهاد الأمم الأخرى لهم . وبذلك يثيرون في الآخرين إما البغضاء المفرطة أو العطف المفرط . وهذا أيضا مظهر من مظاهر تفردهم . ولكـــن هـــذا التفرد يعمل باستمرار لغير صالحهم . والرأي عند باسترناك أنه لـــيس هـــناك مخرج من هذا المأزق إلا إذا توقف اليهود عن ان يعكسوا حياة الآخرين (وهذا خطأهم على حد قول جوردون في رواية الدكتور زيفاجو ..) فـــيقومون بتشـــكيل حياتهم بأنفسهم . وينصح باسترناك اليهود أن يتخلوا عن يهوديتهم وأن يتوقفوا عن الحياة في جالية قومية منعزلة من صنعهم . وهم في نظـــره الشـــعب الذي اختاره القدر لكي يحمل لواء المذهب المسيحي المنادى بحـــب الجـــار واحـــترامه مهما كانت جنسيته كما أنه المثل الأعلى في الكرم وكمال الذات . وهنا يقع باسترناك في تناقض مع نفسه . فهو تارة يلومهم على انعـــزالهم عـــن الآخريـــن وتقوقعهم في مجتمع خاص بهم مما يثير الكراهية ضـــدهم وتـــارة أخرى يرى فيهم المسيح المنقذ الذي سوف يخلص الأمم من الشـــرور والآثام . وسواء بقي اليهود مختلفين عن الآخرين أو انصهروا فيهم

فإنــه يعتــبرهم مكلفيــن بتبليغ رسالة روحية سامية تتمثل في إحياء الجنس البشــري . وتناقض باسترناك مع نفسه يتضح لنا إذا طرحنا السؤال التالي : كــيف يمكــن للــيهود أن يــؤدوا مثل هذه الرسالة الروحية السامية لو أنهم انصهروا في بوتقة الآخرين ؟!

وتلخــص رواية " الدكتور زيفاجو " قصة الثورة البلشفية وما تلاها من أحداث . كما أنها تتضمن اعترافات مثقف عاش في الفترة السابقة على الثورة لقــد كــان هــذا المثقف يحلم مع أترابه في إقامة مجتمع جديد تختفي منه كل شرور ومظالم المجتمع القديم . فإذا بهذه الثورة تشوه أحلامهم وأمانيهم ومثلهم العليا . وأيضا جردتهم الثورة من الإيمان الذي كانت حياتهم تتغذى عليه كما أنها قضت على جذورهم الفكرية وتقاليدهم وحرمتهم من الحس الأخلاقي ومن الاســتمرارية . وهــي فــوق هــذا وذاك حرمتهم من القيم النابعة من التقدم والإحســاس بالتاريخ . ولأن الثورة تركت وراءها فراغا فإنه لا بد من ملء هــذا الفراغ . ولهذا آمن باسترناك بالمسيحية التي رأى فيها القدرة على ملء الفــراغ الــذي تركــته الثورة . وهو لا ينسى أن اليهود كانوا أول من تبعوا المســيح وآمنوا به . ويأسى باسترناك لأن اليهود ينبذون رسالتهم المتمثلة من كونهم أفضل المسيحيين في هذا العالم . وباسترناك لا يستخدم كلمة المسيحية بمفهومها التقليدي القديم بل يستخدمها للدلالة على الاشتياق الإنساني الروحي المثالي وهو الاشتياق الذي دنسته الثورة البلشفية بنشوئها . هذا هو النور الذي رأى باسترناك أنه يتعين على اليهود أن يلعبوه في العالم وهو الامتزاج بهم والتخلي عن عزلتهم وتفردهم وبهذا يستطيع اليهود أن يطوروا روح البشرية جمعاء . وعندما ينادي باسترناك بالعودة إلى المسيحية فإنه لا يفهمها بمعناها القديــم كدين بل يفهمها كنوع من الرقي الروحي والسماحة الفكرية . والرأي عــنده أن هــذه العــودة إلــى الأخلاق والتقاليد هي الأساس الذي تبنى عليه الليبرالية الحقة واحترام حقوق الآخرين . ولولا هذه التقاليد الراسخة في نفوس الــيهود لمــا اســتطاعوا الــبقاء على قيد الحياة بعد كل الظلم والإبادة اللذين تعرضوا لهما . يقول ج. بوميزانتس في مقالاته غير المنشورة في هذا الصدد:

" علــق أحد الذين تحدثت إليهم بقوله أن الأساس الحق هو التقليد الديني وأن الجــنس الــيهودي يقــى علـــى قيد الحياة بفضل الإيمان الغائر فيه وأن المســيحية قــد تكون حلا لمشاكل أوربا الحديثة وكل ما تعانيه من اضطراب روحـــي .. نعم إني أوافق على هذا الرأي بفرض أن تفهم المسيحية على أنها مــبدأ روحي معين . ولكني لا أوافق عليه إذا كان المقصود به التميز والتفرد ورفض كل شكل آخر من أشكال الروحانية حتى ولو كانت أعلى هذه الأشكال مرتــبة . " ويذهــب بوميزانتس إلى أن محنة المثقف الذي يشعر بالغربة هي نفس محنة اليهودي في الشتات فكل منهما تقطعت جذوره بماضيه وتقاليده .

وأخــيرا نذكــر أن الكاتب الروسي المنشق المعروف سولجتسين يعتبر الــيهود غــرباء وأنهــم يقللــون من نقاوة الجنس السلافي ويشارك فلاديمير ماكســيموف في روايته : سبعة أيام الخلق " عداوة سولجتسين لليهود . وهما يذهبان إلى أن الذنب الذي ارتكبه اليهود ويجب أن يكفروا عنه هو مساهمتهم الفعالــة في نجاح الثورة البلشفية . ويري ماكسيموف أن اليهود الروس يجب أن يكفروا عن خطيئتهم بنبذ التفكير في الهجرة إلى إسرائيل .

إيليا اهرنبرج (١٨٩١ - ١٩٦٧)

يمكن معالجة حياة الأديب الروسي اليهودي المعروف إيليا اهرنبرج من عدة نواح فقد كان ثائرا في شبابه وبوهيميا في منفاه وغربته جمع بين قرض الشعر وتأليف الرواية والاشتغال بالصحافة الأدبية والعمل كمراسل أجنبي ومراسل حربي . كما أنه كان سفيرا لبلاده غير رسمي يمثل نظاما يرضخ له فكره ولكنه غالبا ما يحتقره . شاهد اهرنبرج في حياته أحداثا دولية جسيمة مثل نشوب الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الأهلية الأسبانية ونشأة النازية والفاشية واندحارهما وعهد الرعب والهلع الذي فرضه جوزيف ستالين على الاتحاد السوفيتي .

وشخصية اهرنبرج شديدة التعقيد والتركيب فهو يتأرجح بين انفتاحه على الحضارة الغربية وانغلاقه الفكري على المذهب السلافي . ولكن ولاءه لأصوله اليهودية لم يهتز أبدا . فقد قال ذات مرة : " سوف أباهي بأني يهودي طالما أن هناك معاديا واحدا للسامية يعيش على وجه الأرض " .

ولد اهرنبرج عام ١٨٩١ في كييف في عائلة ثرية فقد كان والده يشغل وظيفته مدير معصرة نبيذ محلية ثم ما لبثت عائلته أن انتقلت إلى موسكو التي قال عنها في وقت لاحق بأنه يركن إليها ويرتاح فيها ويشعر بأنها بيته . وقد كان هذا نفس إحساسه في باريس . وفي موسكو تعرف على واحد من أبرز قادة الثورة البلشفية هو الفوضوي البارز نيكولاي بوخانين الذي شجعه على الانضمام إلى إحدى المنظمات البلشفية السرية . الأمر الذي أدى إلى إلقاء القبض عليه والزج به في السجون الروسية لعدة أشهر . وبعد الإفراج عنه تمكن والده من استخراج جواز سفر له لاستكمال دراسته في الغرب .

وما أن وطأت قدماه أرض باريس حتى عشقها وعاش فيها حياته البوهيمية والتقى بمشاهير عصره أمثال الأديب كوكتو والفنان السوريالي بيكاسو . وكاد اهرنبرج في باريس أن ينسى الثورة التي تأججت في صدره

أيــام شبابه . وبعد اندلاع الثورة الشيوعية في أكتوبر ١٩١٧ عاد إلى روسيا عــن طــريق ملتو وطويل وما أن وصل إليها حتى رأى بأم رأسه جانبا من فظاعــات الحــرب الأهلية هناك ، الأمر الذي جعل مشاعره تتذبذب بين حب الشــرق وحب الغرب حيث عاش جانبا من حياته في بلجيكا ثم برلين . ومن ســخرية الأقدار أنه قرر عام ١٩٣٢ الانضمام إلى المعسكر البلشفي في وقت كان الطاغية ستالين يحكم بالحديد والنار . وفي عام ١٩٣٦ – وهو العام الذي اندلعــت فــيه الحرب الأهلية في أسبانيا – اشتغل كمراسل صحفي لبلاده في أســبانيا. وبالــنظر إلــى أن محاكمات التطهير التي أجراها ستالين لإرهاب محكوميه تزامنت في عام ١٩٣٦ مع نشوب الحرب الأهلية الأسبانية فإن اليا اهرنــبرج كــان خارج روسيا عندما أغرقها ستالين في حمامات الدم . ولكنه لمــس بنفسه بشاعة النظام الستاليني عند عودته إلى موسكو عام ١٩٣٧ لفترة وجيزة : وأثناء إقامته في باريس وقع الروس عام ١٩٣٩ معاهدة عدم اعتداء مــع هتلر ، الأمر الذي صدم مشاعره . وزاد من أحزانه أن هتلر ما لبث أن مــزق هــذه المعــاهدة فــي يونيه وقام بغزو روسيا والتوغل في أراضيها . وازدادت مرارته عندما أراد العودة إلى بلاده فلم يكن في مقدوره أن يفعل هذا إلا بســماح وتحت حراسة المحتل الألماني . وتفجرت حميته ونشر سلسلة في المقــالات التي تحث على الإجهاز على القوات النازية الغازية . ووجدت هذه المقــالات رضا وقبولا لدى ستالين والشعب الروسي كله الأمر الذي أبعد عن رقبته سيف ستالين في وقت لاحق عندما انقض على المثقفين اليهود المنادين بالانفتاح على حضارة الغرب .

وفي عقد الخمسينات أظهر اهرنبرج خضوعا شبه كامل أمام بستالين الذي ســخره للدفــاع عن حركة السلام العالمي التي تبناها الاتحاد السوفيتي الأمر الــذي اقتضــى مــنه كثرة السفر إلى الخارج . غير أنه بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣ ألف رواية هامة بعنوان " ذوبان الثلج " رحب فيها بالتغييرات الجذرية التــي طــرأت على النظام السوفيتي بعد انقشاع الغمة الستالينية . واستمرت أسفاره إلى الخارج في عقدي الخمسينات والستينات من القرن العشرين . وفي

تلك الفترة من حياته الف مذكراته التي تتضمن سيرة حياته بعنوان : " الناس والسنون والحياة " ونذر قلمه منذ منتصف الخمسينات حتى وفاته في أغسطس ١٩٦٧ للدفاع بصراحة ودون مواربة عن ضرورة إجراء تغييرات ليبرالية جذرية في النظام السوفيتي . وكانت حياته تمور بالحركة وكثرة التجوال والانتقال . فقد قامت فرنسا أكثر من مرة بطرده لاشتباهها في أنه يتجسس عليها لصالح الدول الأجنبية .

ويتسم إنتاج اهرنبرج بالغزارة والتنوع فقد ألف ستين كتابا في الرواية والمسرح والقصة القصيرة والترجمة والمقالات الأدبية والصحفية إلى جانب مذكراته عن سيرة حياته الواقعة في ستة أجزاء . وفي أثناء إقامته في بلجيكا عام ١٩٢٠ ألف رواية ساخرة متميزة بعنوان " جوليو جورنيتو " ترجع أهميتها إلى أنها تبين أن المؤلف منذ باكورة حياته كان نصيرا للحضارة الغربية ورأي أن مصير روسيا مرتبط أوثق الارتباط بالثقافة الأوربية . وأغراه إعجابه الشديد بتقاليد أوربا الثقافية أن يلتحق بتنظيم الرهبان البنيدكتين ولكن هذه الفكرة العارضة ما لبثت أن تلاشت من ذهنه . والجدير بالذكر أن اهتمامه بالدين يظهر من وقت إلى آخر في كتاباته. غير أن تجاربه كمراسل صحفي في أوربا دلته على تدهور الحضارة الغربية . ولعل هذا يساعد على تفسير مؤازرته العمياء للنظام السوفيتي في عقد الثلاثينات وما تلاه من عقود. وبعد الحرب العالمية الثانية شن ستالين هجوما علنيا على دعاة الانفتاح على الحضارة الغربية بين المثقفين اليهود . وانتهت هذه الهجمة الستالينية الشرسة بالقضاء على عدد كبير منهم . والغريب أن اهرنبرج لم يصب في هذه الحملة بالأذى بل خرج سليما منها بسبب سياسة السكوت والصمت التي اتبعها . وبرر سلبيته بأنه أعزل لا حول له ولا قوة وأن أناسا أكثر منه نفوذا وبأسا ومنعة سكتوا على أفعال ستالين .

ولكن هذه السلبية ما لبثت أن زالت عنه في أواخر أيامه . ففي عام ١٩٦٦ وقع على احتجاج ضد محاكمة الأديبين المنشقين سينافسكي ودانييل .

ويعــزو اهرنــبرج إلى المصادفة البحتة فراره بجلده من الموت في حين أن شانئيه يرجعون سلامته إلى مهادنته وسلبيته في مواجهة الاستبداد والطغيان .

اهرنبرج في طفولته وشبابه :

يقول أناتول جولدبرج في كتابه عن سيرة حياة إليا اهرنبرج أنه كان في الثامــنة من عمره طفلا مشاكسا ومشاغبا للغاية لدرجة أن اسرته عجزت عن الســيطرة عليه فركنت إلي مدرس الرياضيات أن يصلح ما أعوج من مسلكه. ويقال أن هذا المدرس استطاع بالفعل عن طريق التنويم المغناطيسي أن يجعل مــنه طفلا عاديا ينأى بنفسه عن الشغب والمشاكسة . ورغم كراهيته الشديدة للمدرسة فقد كان يقبل على القراءة الحرة بنهم . وعندما قامت الثورة الروسية المجهضة عام ١٩٠٥ لم يكن كاتبنا قد بلغ بعد الخامسة عشرة . وما أن رأى الثوار يقيمون المتاريس في الشوارع حتى اشترك معهم في إقامتها الأمر الذي يــنم عــن أنه لم يأبه بالمخاطر وأنه تمتع بقدر ملحوظ من الشجاعة. وعندما أصــبح مراسلا صحفياً لم يرض بمكانه خلف القوات المتحاربة بل وقف في الصــفوف الأمامــية معرضــاً بذلك نفسه للخطر . وعندما نجحت السلطات القيصرية في قمع ثورة ١٩٠٥ قرر الانضمام إلى تنظيم ثوري غير مشروع . فلا غرو إذا رأينا السلطات الروسية تزج به في السجون في وقت باكر للغاية وهو غلام تجاوز السابعة عشر بقليل .

ذكــرنا فيما سلف أن والد إليا اهرنبرج كان مديرا لإحدى المعاصر مما سمح للطفل بدخول بيوت العمال أحيانا فروعته قذارتها . وحدثت له واقعة في طفولــته تركــت في نفسه أعمق الأثر . فقد ارتاع عندما شاهد بعض عمال المعصرة يسكبون البترول على فأر في مصيدة ويشعلون فيه النار ويتفرجون عليه وهو يصرخ ويتلوى من الألم .واستبشع الطفل هذه القسوة البالغة وخلص إلــى نتيجة مفادها أن الإنسان الذي يتلذذ بهذا المنظر لا بد أن يكون يائسا من حياته .

وفـــي حداثـــته قرر اهرنبرج الانضمام إلى الجناح العسكري في تنظيم بلشفي حيث أمضى عامين في طبع المنشورات وتوزيعها على العمال وبعض الجـــنود فضلا عن كتابة مقالات ثورية في إحدى الصحف التي تصدر سرا . ورغـــم أن التنظـــيم البلشفي الذي انضم إليه كان يحظر عليه المطالعات الغثة والمضيعة للوقت مثل قراءة الروايات فإن طبيعته المشاكسة جعلته يخالف هذا الحظـــر ويستغرق في قراءة الروئيات الممنوعة . وكان كاتبه المفضل روائي نرويجـــي اســـمه كنت هامسون انتشرت رواياته في روسيا انتشار النار في الهشـــيم . كـــان اهرنبرج في صباه يقرأ روايات هامسون باستمتاع شديد في الخفـــاء وأثـــناء اللـــيل . وزاد مـــن استمتاعه بهذه الكتب المحرمة أن كاتبها النرويجـــي جمـــع بين الرجعية والرومانسية ومعاداة السامية . أي أنها على طـــرف نقـــيض من الأفكار الماركسية الثورية . ويروي اهرنبرج في روايته "كـــتاب للكبار " أن البوليس القيصري ألقى القبض عليه وعلى بعض أصدقائه بسبب اندساس أحد المخبرين بينهم ووشايته بهم . وفي شبابه زج البوليس به فـــي الســـجون المختلفة لمدة خمسة شهور . وفي آخر مرة قدم والده التماسا للإفـــراج عنه وبالفعل أفرجت السلطات عنه بكفالة ولهذا لم يكن مسموحا له بالسفر والإقامة في الخارج . ولكن البطء الشديد في النظام القضائي الروسي كان في مصلحته فقد تأخر الإدعاء في إصدار صحيفة الاتهام لمدة ثمانية عشر شـــهرا ممـــا مكـــن والده من تهريبه إلى الخارج بحجة العلاج . وساعد على تهريبه أنه لم يكن بحاجة إلى تأشيرة دخول إلى فرنسا . غير أن أمه اليهودية كان لها رأي مخالف لأنها فضلت المانيا (التي كانت قبلة اليهود الراغبين في العلم) على فرنسا بلاد الجنس والمجون .

من باريس إلى فيينا وعواصم أخرى

كـــان إلـــيا اهرنبرج متيما بحب باريس مفضلا لها على جميع عواصم العالم. وكان يحمل الكراهية لبرلين كما أن الحياة في لندن لم ترق له . وفيما بعـــد قـــام بزيارة ايطاليا فأحبها لأنها أصل الثقافة الأوربية . وفي باريس بدأ يقرض الشعر ويتخلى عن ثوريته وينخرط في الحياة البوهيمية التي راقت له

كثيرا . ولأن باريس متعددة الجنسيات تضم القادمين من مئات الدول المختلفة فــإن اهرنبرج آمن بالانفتاح على العالم .. كان اهرنبرج ينوى الانضمام إلى صــفوف البلاشــفة المقيمين في الخارج ثم يعود إلى روسيا لمواصلة نشاطه الســري . ولكن هذا لم يحدث . وبعد وصوله إلى باريس بوقت قصير التقي بلينيــن الــذي دعاه إلى زيارته في بيته حيث دارت بينهما المناقشات . وفي بــاريس اســتبد الحنين بأهرنبرج إلى العودة إلى روسيا لدرجة أنه في سبيل العــودة إليها كان على استعداد أن يقضي سنة أو سنتين في سجونها . ولكنه امتــنع عن الرجوع عندما أدرك أن السلطات الروسية سوف تنفيه مدى الحياة فــي مكان قصي . وفي باريس خالط اهرنبرج جميع الروس المهاجرين على اختلاف توجهاتهم السياسية . ولكن جو الحرية والسلامة السائد في باريس لم يناسب طبيعته المغامرة التواقة إلى التعرض للخطر . وسئم الكلام الكثير غير المقترن بالعمل . ولهذا فكر في العودة إلى روسيا حيث الكلام لا ينفصل عن العمل وحيث الكلام يعرض صاحبه للمخاطر . ولكن أعضاء الحزب البلشفي في المنفى نصحوه بالبقاء في باريس والاستمرار في قرض الشعر لأن الحزب بحاجــة إلــى هذا الصنف من الناس واقترح عليه البعض أن يسافر إلى فيينا عاصــمة النمســا حيــث يستطيع تهريب الكتب السياسية إلى روسيا . ولكن اهرنــبرج قرر الاستقالة من عضوية الحزب البلشفي . وفي فيينا التقى كاتبنا بتروتسكي بعد أن قابل لينين في باريس . وعلى عكس لينين الذي كان يستمع باهــتمام شديد إلى كل ما يقول كان تروتسكي لا يكف عن القاء المحاضرات عن الفن على مسامعه . فضلا عن هجومه العاتي على الشعراء الأثيرين إلى قلب اهرنبرج .

ثــم غــادر اهرنــبرج فيينا ليقفل راجعا إلى باريس حيث يواصل حياته البوهيمــية ويقــرض الشــعر ويرتاد المقاهي التي يغشاها أقرانه من الأدباء والفنانين . وبعد أن قطع علاقته بالحزب الشيوعي الروسي في المنفى فكر في التحول إلى المذهب الكاثوليكي وكاد أن يلتحق برهبان البنيدكتين لولا أنه غير رأيــه فــي آخــر لحظة . وخطرت له فكرة الكثلكة تحت تأثير شاعرين هما

مـــاكس جاكوب وفرانسيس جام . وإذا دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى تأصل الرغبة في الإيمان في نفسه . فبعد أن نبذ إيمانه بالحزب البلشفي سعى إلى الإيمان بالمذهب الكاثوليكي كبديل . ولم يمنعه من الالتحاق بدير البنيدكتين غير هيامه بفتاة اسمها كاتيا هاجرت عائلتها من روسيا إلى ألمانيا ثم أرسلتها إلى باريس كي تكمل تعليمها . وفي اندفاعه البوهيمي تزوج اهرنبرج من هذه الفـتاة كاتـيا وهو في نحو العشرين من عمره ويعيش عالة على أسرته كما كانــت أســرة كاتيا تنفق عليها . وكان بامكانهما أن يعيشا حياة مستقرة لولا طبيعة اهرنبرج المنفلتة الأمر الذي جعل الخلافات تدب بينهما وتسعى الزوجة إلى الطلاق كي تتزوج برجل آخر تقليدي في أسلوب حياته . وأنجب اهرنبرج مــن هــذا الزواج ابنة اسمها إيرينا حذت حذو والدها وأصبحت كاتبة . وفي فــترة زواجه من كاتيا أصدر في باريس أول ديوان شعر باللغة الروسية على نفقته الخاصة وأرسل عددا من النسخ إلى الأدباء في روسيا فأثنى عليه الشاعر المــرموق فالــيري بريوسوف . وفي عام ١٩١١ وهو عام ولادة ابنته ايرينا تلقــى اهرنبرج لأول مرة في حياته أجرا على قصيدة نشرتها إحدى المجلات الصادرة في بطرسبرج .

ثم انتقل مؤلفنا إلى مقهى باريسي آخر يؤمه أشهر البوهيميين يعرف باسم الــروتوند . وفـــيه قابل مجموعة من صفوة أدباء العالم ورساميه مثل بيكاسو وابولينــير وجـــان كوكتو وكان اهرنبرج من أوائل الذين شاهدوا بأنفسهم ما اصــطلح الــنقاد علـــي تســميته بالفن التجريدي ، وهو الفن الذي شن عليه خروتشوف فيما بعد هجوما شديدا . ومن المفارقات أن المحقق الذي استجوبه بعد القبض عليه في موسكو عام ١٩٢٠ كان واحدا من رواد مقهى الروتوند . ورغم أن النقود التي كان والده يرسلها إليه من موسكو تكفى معيشته فإنه كابد الجوع لأيام متعاقبة بسبب أسلوبه البوهيمي في الحياة . ولكن ضيق ذات اليد لم يمنعه من مشاهدة بعض بلاد العالم عن طريق التجوال على الاقدام . وعند زيارتــه لامســتردام بهولندا تعرف على الرسام رامبرانت . وعند عودته من فيينا إلى باريس كانت الحرب العالمية الأولى قد نشبت بين ألمانيا ضد انجلترا

وفرنســا وروسيا . وبمجرد عودته إلى الأراضي الفرنسية تطوع في الجيش لأنــه لم يشأ أن يقف موقف المتفرج من هذه الحرب . غير أن الأطباء قرروا عدم لياقته الصحية للخدمة العسكرية ، الأمر الذي اضطره كارها إلى الوقوف موقف المتفرج منها .

ورغــم مقته للحرب فإنها أثارت اهتمامه . وعلى أية حال كان لها أثرها المباشــر على دخله فقد انقطعت المعونة التي كانت أسرته تبعث بها إليه من روســيا الأمــر الذي اضطره إلى البحث عن وظيفة يقتات منها . فاشتغل في تفــريغ الذخــيرة في مستودع سكة حديد . واستمر في ارتياد مقهى الروتوند حيــث قــابل عددا من المثقفين المجندين العائدين في إجازات من جبهة القتال وعــرف منهم حقيقة ما يجرى . وذات يوم قرأ في جريدة روسية تقريرا عن ســير الحرب في فرنسا فاستفزه كثرة ما ورد في التقرير من أخطاء . فخطر لــه أن بإمكانه أن يكتب تقارير عنها من فرنسا أكثر دقة . واقترح على عدد مــن الصــحف الروســية أو يوافيها بأنباء القتال . فقبلت صحيفة البورصة الروسية هذا العرض وكلفته بالكتابة لها . وكان يكتب تقاريره الصحفية أثناء عملــه في ورديات الليل في مستودع السكة الحديد . غير أن صحته لم تتحمل وطــأة الانهاك الشديد فأصيب بانهيار عصبي . وكانت هذه المرة الثانية التي يصاب فيها بانهيار فقد سبق أن أصيب بانهيار مماثل أثناء سجنه في موسكو. وعــندما كشف عليه طبيب السجن شخص علته بأنها نورستانيا حادة . وتذكر إحدى الفنانات المترددات على مقهى الروتوند أن البوليس الفرنسي قبض عليه أثناء تجواله في شوارع باريس شارد الذهن زائغ البصر وأودعه في مستشفى للأمراض العقلية أجبرته على حلاقة شعره الكث قبل أن تطلق سراحه . وكان يحلــو له أن يترك شعر رأسه يطول ويتلوى بشكل غير مألوف ويخفي الكثير من ملامح وجهه .

وفي هذه المحنة لم ينفعه شيء غير صحيفة البورصة الروسية التي عينته مراســلا حربيا نظاميا فيها . ولكن السلطات الفرنسية لم تسمح له بأية متابعة

دقيقة لوقائع الحرب ففكر في استئذان السلطات الإنجليزية كي تسمح له بزيارة جبهة قتالها فاستجابت لطلبه وسمحت له بحرية التنقل على جبهة القتال. وهكذا استطاع أن يؤدى مهمته الصحفية بدقة .

راقب اهرنبرج جانبا من معارك الحرب العالمية الأولى عن كثب وراعه أن ينحط الإنسان إلى هذا الحد وأن تبلغ وحشيته هذا المبلغ . وطرح عليه الجنود أسئلة عديدة عجز عن الإجابة مثل ما معنى الجبن ؟ وما المقصود بالشجاعة فبعض الجنود مثلا يبلون بلاء حسنا ثم يتعبون من الحرب فيتمارضون . فهل هم شجعان أم جبناء . وتعجب مؤلفنا من احتقار الأوربيين للروس واعتبارهم من جنس أدنى . وزاد من ضيقه أن الفلاح الروسي في جبهة القتال يظهر صلابة وقدرة على الاحتمال لا قبل لكثير من الأوربيين بها. ورغم نظرته المنفتحة على الحضارة الأوربية فإنه شعر بنفور من الألمان منذ طفولته وهالته كفاءتهم التي تشبه الساعة في دقتها والتي أصبحت مضرب الأمثال .

وعندما اندلعت الثورة البلشفية في أكتوبر ١٩١٧ تقدم اهرنبرج مع الكثيرين من زملائه الروس المهاجرين في فرنسا إلى السفارة الروسية في باريس بطلبات للسماح لهم بالعودة إلى روسيا . ونظرا للتزاحم الشديد على العودة فقد استغرق رجوع اهرنبرج إلى بلاده شيئا من الوقت . وفي موسكو قابل مؤلفنا الأديبين الروسيين الكبيرين ماياكوفسكي وباسترناك . فضلا عن انه قام بزيارة فاليري بريوسوف . وهناك ألف عام ١٩١٨ مسرحية بعنوان " القلب الذهبي " التي تدور حول مغفرة الخطايا المميتة .

وفي خريف عام ١٩١٨ نما إلى علمه أن أمه المريضة في أوكرانيا في حالة حرجة وعندما وصل هناك كانت قد فارقت الحياة . ثم تزوج أثناء إقامته في كييف من فنانة شابة اسمها ليوبوف كوزيتسيفا واستمر زواجه منها خمسين عاما حتى وفاته عام ١٩٦٧ . وبسبب الاضطرابات والحروب الأهلية وغير الأهلية تعاقبت الحكومات المختلفة على أوكرانيا التي رزحت تحت الاحتلال

الألمانـــي في الحرب العالمية الأولى قبل أن يتمكن الجيش الأحمر من احتلال كييف . ولكن هذه المدينة ما لبثت أن وقعت في أيدي الجيش الأبيض الموالي للنظام القيصري . وفي فترة احتلال الجيش الأبيض لها اسندت إليه مهمة شاقة هي تعليم الأحداث المنحرفين . وتحت ظل سيطرة الجيش الأبيض على كييف ساءه كثيرا أن يرى الملصقات في الشوارع وعلى الأبنية التي تصور القديس جرجس راكبا صهوة جواده الشهير وهو يدوس تحت أقدامه شخصا يهوديا . وزاد مـــن تقـــززه اندلاع المذابح اليهودية في كييف . وأيضا تواترت أخبار أخـــرى مزعجة عن اندلاع قتل لليهود في مناطق أخرى من أوكرانيا . وفي فترة إقامته في كييف ألف اهرنبرج مسرحية بعنوان " مأساة الريح "

ثـــم ســـافر اهرنـــبرج وزوجـــته إلى منطقة القرم في عربة سكة حديد مخصصة للمواشي ثم في قارب . وكانت بعض القوات غير النظامية المعادية للشـــيوعية تهاجم القطارات بحثا عن اليهود والشيوعيين للفتك بهم . وكاد أحد الضـــباط المخموريـــن في هذه القوة أن يلقى به في ماء النهر لولا أن تدخل ضابط يهودي لإنقاذه .

لم تكن حياته في القرم سهلة أو لينة بل كانت كابوسا يجثم على صدره. وهـــناك عين مديرا لدار حضانة تضم أبناء الفلاحين الميسوري الحال . ولكن أولـــياء الأمـــور الذين يحملون المقت لليهود اعترضوا على أسلوبه في تعليم أطفـــالهم . وأيضـــا تعرضت زوجته للموت بسبب إصابتها بمرض التيفوس ولكن بعض الأطباء أنقذوها بأعجوبة . وبعد ذلك نجح اهرنبرج في العودة إلى موســـكو حيث اتهمته سلطات الأمن الروسية بالعمالة للجيش الأبيض . وهو امر ينطوي على المفارقة حيث أنه سبق للروس البيض أن شكوا في أن يكون بلشـــفيا يعمـــل لحساب الجيش الأحمر رغم أنه كان قد قطع كل صلة تربطه بالبلاشـــفة مـــنذ عام ١٩٠٩ ، ولحسن الحظ أطلق البلاشفة سراحه بعد وقت قصير . وفي فترة إقامته في موسكو اسندت إليه مهمة الإشراف على مسارح الأطفال .

واجتاحته رغبة جارفة في تأليف رواية " جوليو جورينيتو " التي تتضمن جانبا من سيرة حياته وأحس أن روسيا ليست المكان المناسب لتأليفها فطلب في ربيع عام ١٩٢١ من السلطات السوفيتية إذنا بالسفر إلى فرنسا . كان ذلك قبل أن يغلق الطاغية جوزيف ستالين باب السفر إلى خارج البلاد . وسمحت لــه السلطات السوفيتية بالسفر إلى فرنسا وكانت المشكلة أن فرنسا اعترضت على دخوله إليها فهي تشك في كل السوفييت الوافدين إليها من موسكو . فضلا عـن أنها لم تكن آنذاك تعترف بشرعية النظام السوفيتي . ولم يكن هناك بين روســيا وفرنســا أي تمثيل دبلوماسي الأمر الذي اضطره إلى الالتجاء إلى القنصلية الفرنسية في لا تفيا التي سمحت له بالذهاب إلى فرنسا بعد لأي كبير ووساطة صديق له يعيش في باريس . وما أن وصل إلى باريس حتى استدعاه البولـيس الفرنسي للتحقيق معه والاستفسار الدقيق عن جدته وعماته وخالاته على عكس التساهل الذي قوبل به في كوبنهاجن عاصمة الدانمارك . فقد سمح لــه البوليس الدانماركي بالدخول إلى الأراضي الدانماركية دون استجوابه أو التدقـيق معــه . وحــتى يكتمل تعسف السلطات الفرنسية معه أصدرت أمرا بطرده هو وزوجته من فرنسا . ويرد اهرنبرج هذا الطرد التعسفي إلى تقرير كتبه أحد رجال المخابرات الفرنسية يفيد بأنه سمعه يمتدح المسرح السوفيتي . ويبدو أن البوليس الفرنسي شعر بأنه ارتكب خطأ عندما سمح له بالدخول إلى فرنســا وأنــه أراد تصــحيح هـذا الخطأ فاقتاده ضابط فرنسي إلى الحدود البلجيكــية. ولحســن حظــه أن السلطات البلجيكية منحته تصريحا بالبقاء في بلجيكا لعدد قليل من الشهور ، وتشاء الأقدار على أية حال ألا يكتب أهرنبرج رواية " جوليو جورنتينو " في فرنسا وعلى مقهى الروتوند كما كان يأمل ، بل في بلجيكا على غير المتوقع . والجدير بالذكر أن موقف أهرنبرج من الثورة البلشــفية يــنطوي على التناقض فهو لم يناصب الحكومة السوفيتية العداء بل تمــنى النجاح لتجربتها الوليدة وتعاطف معها . ولكنه كان يدرك أن الطريق أمامها شاق وطويل ومليء بالأشواك . ولهذا رأى أن باريس هي أفضل مكان يمكن للفنان أن ينطلق فيه ويكون على سجيته . ويمكن القول كما يقول بعض

النقاد بأنه أراد التمتع بكلا العالمين : عالم الحضارة الغربية والمتفتحة والمتعددة الأعراق والجنسيات والمتمثلة في باريس وعالم الآمال الجديدة التي تتمثل في موسكو . والدليل على ذلك أنه لم يذهب إلى فرنسا كمهاجر روسي بل ذهب إليها ككاتب سوفيتي يريد أن يتنسم أريج الحرية وعبق الانطلاق .

قلنا أن اهرنبرج ألف رواية " جوليو جورنتينو " في بلجيكا ولم يستغرق تأليفها سوى شهر واحد وأراد بها أن تكون رواية ساخرة طلية الدعابة ذات طابع فلسفي . وهي تدور حول روسيا بعد الثورة البلشفية وتتضمن سخرية من أوشاب الحضارة الغربية . وتنم الرواية عن عدم إيمان مؤلفها بوجود الله وتشككه في صحة الدين . وبالنظر إلى إدراك بطل الرواية للوهدة التي تردت فيها الحضارة الغربية نراه يحاول دون جدوى الإسراع في تدهورها والعمل على تفككها . وعلى عكس رواية كانديد التي ختمها فولتير بنغمة تشاؤم ورحلات جليفر التي تكسوها القتامة تنتهي رواية " جوليو جورنتينو " بنغمة متفائلة . والجدير بالذكر أن الرواية راقت في أعين اثنين من كبار القادة الروس الشيوعيين هما لينين الذي وصفها لزوجته بأنها ليست رديئة على الإطلاق وبوخارين الذي امتدح هجومها على الحرب والنظام الرأسمالي . واتضح لاهرنبرج أن الحرب العالمية الأولى لم تكن كافية للقضاء على أوربا الأمر الذي جعله يؤلف رواية أخرى بعنوان " قصة تدمير أوربا " التي تؤكد تناقض موقفه من أوربا فهو يحبها ويكرهها في آن واحد . ومن الجلي أن المؤلف استخدم بعض عناصر قصص الخيال العلمي في روايتيه " جوليو جورنتينو " و " قصة تدمير أوربا " .

وبعد أن انتهى من كتابة رواية " جوليو جورنتينو " عام ١٩٢١ قرر اهرنبرج السفر إلى برلين حيث نشر هذه الرواية وظل يعيش في برلين لمدة عامين . وبالنظر إلى أن مؤلفنا كان باستطاعته أن يعود إلى روسيا في أية لحظة فإن الكاتب الكبير فكتور سكولوفسكي (الذي استبد به حنين العودة إلى روسيا) شعر نحوه بشيء من الحسد . وأصابت رواية " جوليو جورنتينو "

قـدرا ملحوظـا من النجاح والشهرة ودرت على صاحبه ما يكفيه لأن يعيش ميسور الحال . وفي فترة إقامته في برلين اتفق مع مجلة أدبية روسية يشرف علـى تحريـرها البروفيسور الكسندر ياتشنكو على نشر مقالاته. وفيها كتب مقـالا علـى جانب من الأهمية عن تأثر الأحكام الأدبية بالمواقف السياسية . والرأى عنده أن الفن نشاط مقدس لا ينبغي أن يتأثر بالسياسة . ولهذا نراه من هـذا المنطلق يمتدح شاعرين متباينين تمام التباين هما بالمونت الذي يزدري الشـيوعية ويسخر منها والشاعر بريوسوف الذي يثني عليها ويتغنى بها فكلا الشاعرين جديران بالاحترام رغم ما بينهما من خلاف سياسي واضح . يقول اهرنبرج في هذا الشأن : " أنا شخصيا لا أحب قصائد بالمونت أو بريوسوف كمـا أنـي من الناحية السياسية أقف على مبعدة من كل منهما . ولكن هذا لا يعطيني الحق في الإساءة اليهما أو الحديث عنهما باحتقار" . ويأسف اهرنبرج علـى أن الكثيرين هاجموا الكسندر بلوك أعظم شاعر في جيله لأنه عبر عن قبولـه للـنظام الشيوعي في قصيدته " الاثنا عشر " وأيضا انتقد مؤلفنا النقاد الـروس فـي المهجـر لأنهم نالوا من باسترناك وهونوا من شأنه . والجدير بالذكر أن البروفيسور ياشنكو امتدح روايته " جوليو جورنتينو " ولكنه عاب علـى مؤلفها زرايته بكل شيء وهدمه دون أن يرى بصيصا واحدا من النور يدعو إلى احترام الجنس البشري الأمر الذي يؤكد افتقاره إلى الإيمان بأية مثل علـيا . لقـد كان اهرنبرج يصور نفسه على أنه شكاك في سائر قيم الإنسان ومعـتقداته . فضلا عن أنه لم يجد غضاضة في التهوين من شأن نفسه الأمر الـذي حـدا بأحد النقاد إلى القول أنه ينظر إلى البشر من فوق كوكب المريخ ومن خلال تليسكوب فلا تتميز لهم معالم أو ملامح ويصبحون قطعة من أديم الأرض . وتميزت إقامة اهرنبرج لمدة عامين في برلين بوفرة الإنتاج وتحقيق الشـهرة وكسب المال . غير أن برلين عجزت عن إسعاده وظل لا يكف عن الاشـتياق للـرجوع إلى باريس التي قست عليه وطردته من جنتها . غير أن الفـرحة مـا لبثت أن عرفت طريقها إلى قلبه عندما سمحت له فرنسا بالعودة إليها .

وبعد أن انتهى اهرنبرج من كتابة روايته " جوليو جورنتينو " عام ١٩٢١ اضطلع بنشر دراسة عن الفن الحديث بعنوان " ورغم ذلك فإن الأرض تدور " حيث يدافع عن مذهب فني جديد يعرف بالمذهب البنائي Constructivsm والرأي عنده أن الغلبة في عصر التصنيع سوف تكون لهذا الفن الذي يقوم على تصوير ما في الآلات الحديثة من جمال . وانطلاقا من إيمانه بمذهب البنائية رأي مؤلفنا في الرافعات العملاقة الرابضة في ميناء كوبنهاجن جمالا لا يعدله جمال . ومن ثم تنبأ بأن التصنيع سوف يقضي على كافة المفاهيم الفنية التقليدية وسوف يتمخض عن مولد مفهوم جديد يمتزج فيه الفن بالحياة امتزاجا كاملا . وامتدح اهرنبرج أمريكا – ولعلها المرة الأولى والأخيرة التي امتدح فيها العالم الجديد – بسبب تفوقها على العالم كله في مجال التصنيع والتقنية . ومن جانبه حاول اهرنبرج أن يشرح مفهوم المذهب البنائي في الأدب والكتابة . قال إن روح المذهب البنائي تتجسد في اختراعين حديثين هما طباعة الصحف والتلغراف فالإنتاج الشعري سوف يأخذ من الصحافة وضوحها ومن التلغراف إيجازه . يقول فيكتور سكولوفسكي في هذا الشأن أن اهرنبرج اليهودي الكاثوليكي والمؤمن السابق بالمذهب السلافي قد تحول إلى مؤمن بالمذهب البنائي الأوربي .

كان اهرنبرج في فترة إقامته في برلين يؤلف كتبه بسرعة غير عادية . وهناك ألف رواية بعنوان " حياة وسقوط نيكولاي كيرموف " تباينت نحوها ردود فعل النقاد والمعلقين . فقد استقبلها النقاد السوفيت بالملامة والتقريع في حين أن النقاد الروس في المهجر رأوا فيها تعاطفا مع النظام السوفيتي وكانت آخر رواية يؤلفها أثناء إقامته في برلين بعنوان " حب جان ني " . وفي نهاية عام ١٩٢٣ غادر اهرنبرج ألمانيا ليعيش لمدة قصيرة في براغ وذلك قبل أن يعود إلى موسكو في أوائل عام ١٩٢٤ . وبذلك يكون قد غاب عن بلاده لمدة ثلاثة أعوام ونصف . وفي المهجر كتب الناقد رومان جول مقالا ينم عن حصافة صاحبه وبعد نظره فقد تنبأ بأن الصحافة الروسية سوف تهاجم رواية " حياة وسقوط نيكولاي كيربوف " . وتحققت نبوءته بالفعل فقد اشتكى ناقد

سوفيتي من بذاءة الرواية الجنسية واعتبرها هجوما على تاريخ الحزب الشيوعي ومؤسساته وزعمائه .

وأيضا تصدت مجلة سوفيتية أدبية اسمها نابوستو بالهجوم على اهرنبرج واتهمت كتاباته بأنها تروق للبورجوازية الصغيرة وشباب الطبقة العاملة غير المتزن . وأردفت قائلة أنه يعلم جيدا أن الحضارة البورجوازية محكوم عليها بالسقوط ورغم ذلك فإن مؤلفنا لا يخرج عن أن يكون بوجوازيا صغيرا يتصف بالأنانية ويعجز عن فهم حقيقة الثورة الشيوعية . ثم ذكرت المجلة أنه تنبأ في كتاباته بانهيار جميع الحضارات . غير أن هذا الانهيار أفزعه وبث فيه الرعب فحاول أن يخفيه تحت ستار الزراية بكل شيء والسخرية من كل شيء . وتذهب المجلة السوفيتية إلى أن اهرنبرج مجرد مثقف بورجوازي يتمسك بشدة بالعالم القديم الذي هو جزء منه وإن كان بعض أصدقائه انخدعوا بسخريته من العالم القديم وهجائه له . ثم تلومه المجلة على اليأس الذي يشيع في كتاباته وتصف إنتاجه الأدبي بأنه سم ناقع تعززه البورجوازية المضمحلة.

وقد شارك لوناشارسكي وزير التعليم المستنير في حكومة لينين في إصدار مجلة " العالم الجديد " المعروفة باتجاهاتها الليبرالية المتحررة . وقامت هذه المجلة بعرض الأربع روايات التي ألفها اهرنبرج والتي كانت بحلول عام ١٩٢٥ قد ظهرت في الاتحاد السوفيتي . وهذه الروايات الأربع هي : " جوليو جورنتينو " و " قصة تدمير أوربا " و " سقوط نيكولاي كيربوف " و " غرام جان ني " . ونشرت مجلة " العالم الجديد " مقالا يعترف بموهبة اهرنبرج الأدبية وقدرته الفائقة على الهجاء . ولكنها عابت عليه أنه لا يوجه هجاءه ضد النظام الرأسمالي من أجل إقامة مستقبل أكثر إشراقا . بل هو يهاجم المستقبل بنفس الضراوة التي يهاجم بها الحاضر . وهو يفعل ذلك لأن قلبه مليء بالحقد والكراهية اللذين ينمان عن تهافت صاحبهما وهزاله . وهو يرى أن الثورة نقمة على من أوقدوها وعلى رأسهم فلاديمير لينين نفسه . لقد سبق لمجلة نا بوستيو أن اتهمت اهرنبرج بأنه نصير للثورة المضادة تدعمه عناصر مناهضة

للمجتمع تستفيد من اتباع لينين للسياسة الاقتصادية الجديدة التي سمحت للروس بـالعودة إلى مزاولة أنشطتهم الرأسمالية والاستثمارية . ولكن نقد مجلة العالم الجديد لاهرنبرج كان مختلفا فقد وصفته بأنه إنسان بوهيمي منحل يؤمن بالفردية وينتمي إلى نوع من البشر في سبيله إلى الانقراض . فاهرنبرج عدمى لا يؤمن بالثورات أو السعادة الإنسانية أو تقدم الجنس البشري فجميع هذه الأشياء سوف تؤول إلى العدم . وهو لا يكتب ولكنه يتقيأ .

وكان ليوناشارسكي رأى في اهرنبرج مفاده أن هذا الأديب ليس في قامة الشاعر اليهودي الألماني الكبير هايني ولكن يشبهه في كثير من الوجوه. ويذكر ليوناشارسكي أن كتابات اهرنبرج تتضمن قدرا كبيرا من العواطف المنسكبة بلا ضابط أو رابط كما انها تتسم برنة حزن . ويعزو ليوناشارسكي هذا إلى أنه فقد الثقة بكل مبدأ وأنه دائم الذبذبة والتأرجح فقد انضم في بادئ الأمر إلى صفوف الجيش الأبيض ثم ما لبث أن انضوى تحت لواء الجيش الأحمر . وحقيقة الأمر أنه لا يكترث بأي منهما ويسخر منهما في كتاباته . وهو شكاك يسعى إلى تدمير كل شيء ولا يرتاح قلبه إلا إذا قام بتحطيمه . ولأنه يشك أيضا في العالم القديم فإن ليوناشارسكي يعتبره بمعنى ما حليفا للنظام السوفيتي . ولا شك ان مقارنته بالشاعر الألماني هايني ملأت قلب مؤلفنا بالزهو والفخار لأن هذا الشاعر كان أثيرا إلى قلبه .

وبعد عام ١٩٢٤ سمحت له الحكومة الفرنسية بالعودة إلى الجنة التي طردته منها فأقام في باريس التي احبها من سويداء قلبه لقد رأينا في الصفحات السابقة استياءه الشديد من احتقار الأوربيين للروس واعتبارهم في مرتبة أدنى الأمر الذي استفزه وجعله يناصرهم على محتقريهم . ولكن مشاعره تجاه أهله وذويه لم تكن بمثل هذه البساطة بل كانت معقدة ومركبة . فقد ساءه كثيرا تدهور أحوال الروس الشديد في ظل الثورة البلشفية وما أعقبها من مآس دامية الأمر الذي جعله ينتقد النظام السوفيتي بنفس القسوة التي سبق أن انتقد بها النظام الرأسمالي . وعندما لامه البعض على نقده اللاذع للنظام

الســوفيتي تعلــل بأنه يعرف حدوده ككاتب وأنه يتمتع كأديب بموهبة الهجاء والســخرية مــن العيوب والمثالب وأن إتقانه لعمله يقتضي منه استغلال هذه الموهبة . ويعلق بعض النقاد على ذلك قائلا أنه حتى ولو كان تفسيره صحيحا فإنه لا يكفي لتبرير المرارة والقسوة التي صاحبت هجومه القاسي على النظام الســوفيتي . ولكن جو الحرية الذي يسمح له بهذا النقد لم يدم طويلا وخاصة بعــد مجـــيء ستالين إلى الحكم . ومع تقلص الحرية في الاتحاد السوفيتي بدأ الناشــرون الــروس لأعمــال اهرنبرج يأخذون حذرهم ويكتبون لها مقدمات يتــبرءون فيها من آراءه ويقولون إن دافعهم إلى النشر هو ما يتحلى به أديبنا من موهبة أدبية لا يرقى إليها الشك .

قلــنا أن اهرنبرج عاد إلى باريس عام ١٩٢٤ . ونظرا لأنه كان في يوم مــن الأيــام مطــرودا من فرنسا فقد استمر قرار طرده نافذ المفعول . ولهذا الســبب سافر مع زوجته إلى إيطاليا حيث طلبا من القنصل الفرنسي في روما الســماح بدخول فرنسا . ولما كان القنصل يجهل أمر طرده فإنه لم يمانع في مــنحهما تأشيرة دخول . وعند وصول الزوجين الأراضي الفرنسية ساعدهما سياسي ليبرالي باستخدام نفوذه في وزارة الداخلية الفرنسية حتى لا تثير أمامها المشاكل والعقبات . غير أن الأيام كانت قد غيرت اهرنبرج كما أن عددا من أصــدقائه الفنانين مات أو عاد إلى موطنه الأصلي. الأمر الذي جعل أمله في بــاريس يخيب وحماسه لها يخبو . حتى حماسه القديم لمذهب البنائية في الفن أخذ يفتر فهو لم يعد يؤمن بأن الصناعة والفن سوف يتحدان لخلق فن جديد . وبعــد أن كــان يعقد الآمال العريضة على أمريكا في تجسيد اندماج الصناعة بالفــن نفض عن نفسه هذه الأوهام وأصبح يمقت كل ما هو أمريكي في الفن وغــير الفــن . واســتاء كثيرا من تأثر نمط الحياة الباريسية بجحافل السواح الأمــريكان القادمين عبر المحيط الأطلنطي حتى مقهاه الروتوند أصبح مكتظا بالســواح الأمريكان فلم يجد فيها موطئا لقدم الأمر الذي اضطره إلى النزوح إلى مقهى أخر قريب هو مقهى الدوم .

وبعـــد عودته إلى باريس ألف اهرنبرج رواية بعنوان " صيف ١٩٢٥ " ضـــمنها ما شاهده من تغيرات في الحياة الباريسية . ويبدو أنه شعر في تلك الفترة من حياته بالوحدة القاتلة في مدينة النور التي تزدحم بالناس لدرجة أنه شـــعر بروحه تفارق جسده وأن باريس التي تمور بالحياة جدباء وخاوية على عروشـــها . ويصـــف اهرنبرج كتابه " صيف ١٩٢٥ " بأنه أكثر كتبه مدعاة للحـــزن " . فضلا عن أن الكتاب يعبر عن تشكك مؤلفه المعتاد في كل شيء الأمر الذي سمم ينابيع حياته وأصاب روحه بالسقم .

اهرنبرج يتناول مشكلة اليهود في أدبه :

يقول اهرنبرج في رواية " جوليو جورنيتو " أن هذا الرجل الذي تسمى الـــرواية باسمه كان قبيل الحرب العالمية الأولى يبذل جهدا متكاسلا للإسراع فـــي تدمير الحضارة الغربية . ولهذا أعد مسودة أعلن فيها نبوءته عن تدمير شعب إسرائيل بالأسلوب التقليدي الذي يتمثل في حرقهم ودفنهم أحياء أو عن طـــريق إجلائهم أحيانا أخرى . ولكن تلميذ جورنيتو الروسي اعترض على هذا بقوله أنه ليس من المعقول أن تحدث مثل هذه الفظائع في القرن العشرين فرد عليه استاذه قائلا إن هذا القرن سوف يكون بدون أي وازع من ضمير . ولا غـــرو فقـــد شـــاهد اهرنبرج بنفسه مذابح اليهود في روسيا إبان الحرب الأهلية. فضلا عن أنه استشعر الأهوال التي سوف يتعرض لها اليهود . غير أن تلميذ جورنيتو الحالم يرفض أن يصدق حدوث هذه البشاعات قائلا : " أن اليهود بشر مثلنا " فأجاب جورنيتو بالنفي قائلا : " بالطبع أنهم ليسوا كذلك ". ثـــم أردف قولـــه أن الخلاف الرئيسي بين اليهود وغير اليهود أن غير اليهود يقـــبلون العالم على علاته في حين أن اليهود لا يكفون عن التساؤل : " ولماذا يجب أن يكون العالم كله هكذا ؟! " وهم لا يكفون عن التساؤل والتشكك القاتم ســـاعين إلى القضاء عليه باختراع أديان ثورية في طليعتها الدين المسيحي . والمشكلة أن هذه الديانات الثورية سرعان ما تفقد قدرتها على الثورة وتصبح جزءاً من النظام القائم . وبمجرد تحولها إلى جزء من النظام القائم تنبذ اليهود

وتلفظهم كما أن اليهود يقومون بنبذها ولفظها . ولكن هذا لا يشفى اليهود من نقطة ضعفهم القاتلة بل هم يستمرون في ضرب رءوسهم في الحائط ويدفعون حياتهم نتيجة لذلك . ويقول جورنيتتو أن شعب إسرائيل أنجب الآن طفلا جديدا يتمـثل في الشيوعية . وهو مولود له عينان متوحشتان وقوي مثل الحصان . ولكـنه مخلـوق لا يهمه إقرار العدل بل تحقيق المصالح . عندئذ يقوم اليهود بضرب رءوسهم في الحائط وهم يئنون قائلين : " حتى متى ؟ " وسوف تتلطخ الأرض بدمائهم . ويصف جورنيتتو هذه الدماء بانها " الدواء العظيم لأمراض العالم " . ولأن جورنيتتو اضطلع بدور الهادم الأكبر للحضارة فإنه يحب الأداة التـي يستخدمها في الهدم . ويذهب جورنيتتو إلى تلميذه اليهودي الذي يعيش وحيدا فيقوم بتقبيله على جبينه .

ونظـرا إلى أن كلام جورنيتتو يحتمل التأويل والتفسير وليس له مدلول محـدد فإنه راق في عيون أعداء السامية وأنصار الصهيونية على حد سواء فـأعداء السامية فسروه بأن اليهود طغمة من المتآمرين لا يهدأ لهم بال حتى يشيعوا الفوضى وعدم الاستقرار في كل مكان في حين أن أنصار الصهيونية فهموا منه أن اليهود شعب محكوم عليه بالاضطهاد لأنه لا يستطيع أن يتخلص مـن رغبـته الملحـة في تغيير العالم . ولأن اهرنبرج لم يكن من المؤمنين بالصـهيونية فإنـه لم يتفق مع الصهاينة على ضرورة تركيز اليهود أذهانهم لإيجاد حل لمشاكلهم . ولا غرو فقد كان اهرنبرج نفسه من النوع الذي يتباهى بضـرب رأسه في الحائط ولا يرى ضرورة لأن يتخلى اليهود عن مصيرهم المأسـاوي الفريد أو أن يستبدلوا هذا المصير بحياة مستقرة داخل حدود قومية ضيقة . ولعل هذا هو السبب في وصفه اليهود المطالبين بإنشاء جامعة لهم أو بولـيس خاص بهم أو وطن قومي مخصص لهم بأنهم مجموعة من الوطنيين السذج . يقول اهرنبرج أن اليهود ظلوا يكدون ويجتهدون لأكثر من ألفي عام وتمكـنوا من اكتشاف ترياق لكثير من الأوجاع الدينية والفلسفية والاجتماعية ولكنهم لم يقوموا بالاستفادة منه بل تركوا الآخرين يفعلون هذا . وهو يرى أن كـل يهـودي يحمـل بيـن جنباته يهوديا متجولا من يهود الشتات . ويشير

اهرنبرج إلى أن اليهودي بات يتوق إلى الحرية بعد أن كان يتوق إلى الفردوس الذي طرد منه الأمر الذي ينم عن انفتاحه على العالم .

ثم سطر اهرنبرج رواية تدور جميع أحداثها حول اليهود ترجمت من الروسية إلى الإنجليزية بعنوان " حياة لازيك روتشفانتز العاصفة " وهو الكتاب الوحيد ضمن مؤلفاته الذي لم يسمح الاتحاد السوفيتي بنشره . ولازيك ترزي يهودي من مدينة جومبل في بلوروسيا يتعرض للخسف والاضطهاد . ويقدم السوفيت لازيك إلى المحاكمة بتهمة باطلة مفادها أنه هتف هتافات معادية للسوفيت . ويتحمل الرجل هذا الاضطهاد بنوع من الصفاء النفسي ولا عجب فهو يدرك أنه مكتوب على اليهود أن يقاسوا ويعانوا في الحياة . ورغم أن لازيك لا يضمر أي شر حقيقي ضد أي مخلوق فإن الآخرين لا يكفون عن إيذائه واضطهاده وغشه والقبض عليه والزج به في السجون مرارا وتكرارا . ويدفعه الخسف إلى الذهاب إلى فلسطين أيام أن كانت تحت الانتداب البريطاني الذي يعامله بقسوة لا تقل عن قسوة معاملة المستوطنين اليهود له . وتحت وطأة التعذيب والاضطهاد تفيض روح هذا اليهودي اليائس وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حلوة . وشخصية لازيك تنطوي على المتناقضات فهي تعرف معنى الإيمان بالله رغم أنها تشك في وجوده . وهو يعرف أن البشر اخترعوا الله على صورتهم في حين أن صورة الله الحقيقي مختلفة تماما .

وأيضا من بين القصص التي ألفها اهرنبرج عن اليهود قصة تاجر يهودي أصدرت إليه السلطات في روما أمراً بالعدو والتسابق وهو عريان من أجل تسلية البابا وضيوفه الكرام وعندما بلغ به الإعياء كل مبلغ وكاد ان يسقط مغشيا عليه من الانهاك ظهر عداء عريان آخر ليحل محله اتضح أنه المسيح فيعده المسيح بالراحة والطمأنينة في العالم الآخر . ولكن المسيح نفسه لا يعرف الراحة والطمأنينة لكثرة الجرائم التي ترتكب باسمه وكثرة الضحايا الذين ينتظرون منه العون والمساعدة .

وبمجــرد نشرها أصابت رواية " حياة لازيك العاصفة " نجاحا عظيما . حتى اليهود المهاجرين الذين يناصبون النظام السوفيتي العداء والذين سبق لهم الهجوم على اهرنبرج اعتبروه كاتبا يهوديا يدافع عن اليهود ويعطف عليهم . وفي غمرة تحمسهم لاهرنبرج نسوا أن معظم الذين يسومون لازيك مر العذاب ويغشونه ويستغلونه هم من بني جلدته . والذي راق لليهود في هذه الرواية أن مؤلفهـا امــتدح حكمــة الجيتو والقاطنين فيه وقد نشرت رواية " حياة لازيك العاصــفة " باللغة الروسية في باريس ثم في برلين . ولكن الاتحاد السوفيتي امتــنع عــن نشــرها ولا غرو فالجزء الأول منها يتضمن هجوما عاتيا على النظام السوفيتي . صحيح أنه سبق للاتحاد السوفيتي أن نشر أعمالا لاهرنبرج تنتقده انتقادا شديدا ولكن جو الحرية الذي كان متوفرا في بادئ الثورة ما لبث أن اختفى وبدأ النظام البلشفي يضيق ذرعا بالنقد والهجوم . وفي عام ١٩٣٤ عقــد أول مؤتمــر للكتاب السوفيت . ودعى اهرنبرج إلى حضوره واستقبله جمــيع أعضـــاء المكتــب السياسي (فيما عدا ستالين الذي لم يكن حاضرا) بالــترحاب ولكــنهم عـــابوا عليه انه ضمن روايته إشارات إلى وجود معاداة للســامية فــي الاتحاد السوفيتي . كما عاب البعض على الرواية أنها تتضمن نزعة إلى القومية اليهودية .

وفـــي عقــد العشرينات وبعد أن نشر روايته " شارع موسكو " و " حياة لازيــك العاصفة " تواترت إشاعة بإن اهرنبرج كان على وشك قطع علاقته بالاتحاد السوفيتي ولكن لم يكن لهذه الإشاعة أي نصيب من الصحة إذ كان من الناحــية الرســمية لا يزال كاتبا سوفيتيا يحمل جواز سفر سوفيتي مكنه من الدخــول إلى كثير من البلاد بعد توقيع معاهدة لوركانو في اكتوبر ١٩٢٥ . وفي عام ١٩٣١ نشرت الجازيت الأدبي الصادرة في الاتحاد السوفيتي مقالا حــول قصــته " تأشيرة الزمن " جاء فيه ما يلي : " لقد رأى اهرنبرج الكثير وفكر في الكثير .. ذلك الجوال الروحي المتنقل الهارب من بلده والذي يشعر بالغربة حيثما ذهب . " وخطر له أن يكتب عن سائر البلاد التي قام بزيارتها محاولا أنه يفهم روح كل بلد وأن يتحرى الموضوعية في الحكم عليه . ولكنه

يـبدو أنه لم يتمكن قط من الفكاك من الحالة النفسية التي سيطرت عليه أثناء الكـتابة . فبعد زيارته لبولندا شنت الصحافة البولندية المعادية لليهود هجوما علـيه فجاء حكمه قاسيا ضد أعداء السامية والمتدينين اليهود المتعصبين على حد سواء وخلص إلى نتيجة مفادها أن قرب بولندا الشديد من روسيا هو الذي يجعـل الروس يكرهون البولنديين . فالروس يضايقهم كثيرا أن يكون الغرباء على أبوابهم . وهم في نظرهم اسوأ من الأجانب البعيدين عنهم مثل الفرنسيين والأسبان . وفي منطقة روثانيا في وسط أوربا سمع اهرنبرج الأهالي يتحدثون الروسـية فتمـنى أن تصـبح هـذه المنطقة جزء من روسيا . وأيضا فضل النرويجيين على السويديين لأن النرويج بلد فقير في حين أن السويد بلد غني. وفي عام ١٩٢٦ استطاع أن يدخل اسبانيا بدون تأشيرة دخول فراقت له كثيرا. وكان يعتبر الإنجليز من كوكب آخر ومع ذلك فقد رق قلبه لهم عندما اكتشف أنهم يقرأون مسرح تشيكوف بحب وأنه يسيل في عيونهم الدموع .

ويذكـر الدارسون أن اهرنبرج رغم هجومه الشديد على النظام السوفيتي ظـل يحـتفظ بوطنيته الروسية وكان أحيانا يتخذ موقفا شوفينياً مستعليا على الأمـم الأخرى . فضلا عن تعبيره عن مقته الشديد للقرن العشرين ومنجزاته التكنولوجية . فلا غرو إذا رماه النقاد بالرومانسية . كره مؤلفنا انغماس الرجل العصـري في الملذات ومشاهدة الأفلام السينمائية والزواج غير المبارك بين النظام الرأسمالي والتقدم التكنولوجي . وهو موضوع شغل باله كثيرا وعالجه فـي كـتاباته . ونحن نطالع هجومه العنيف على صناعة السينما في قصتيه " مصنع الأحلام " و " سجل الزمن الذي نعيشه " كما أنه يهاجم السيارات في قصته " قوة ١٠ حصان " . غير أن هجومه على التصنيع والنظام الرأسمالي لـم يكن من منطلق ماركسي كما أنه يتناقض مع إيمانه السابق بمذهب البنائية الـذي يؤلف بين الفن والصناعة . وفي ازوراره عن صخب القرن العشرين وضجيجه يستبد به الحنين إلى الهدوء المخيم على القرن التاسع عشر . وأيضا أزعجـه إيقـاع القرن العشرين السريع الناجم عن التقدم التكنولوجي فالسيارة علـى سبيل المثال تنهب الأرض نهبا ولا تتيح لراكبها التأمل والتمعن. وهو

يســوق إلينا حوادث السيارات ليثبت أنها نقمة وليست نعمة وأنها مصدر شر مستطير .

والجديــر بالذكر أن صحيفة الجازيت الأدبي السوفيتية هاجمته لأنه انتقد الــنظام الرأسمالي من منظور فردي وليس من منظور اشتراكي . فهذا النظام قميــن بالقضـــاء علــى دور الفرد وتحويله إلى مجرد ترس في آلة المجتمع الضخمة . والحقيقة أن اهرنبرج رأى أن الشيوعية السوفيتية لا تقل سوءا عن الرأسمالية البورجوازية . وإذا كان النظام الرأسمالي يبعث على السأم والملل فــإن الــنظام السوفيتي لن يدخل على النفس السعادة . ومن الواضح أن انتقاد الجازيــت الأدبي لاهرنبرج كان يعبر عن موقف السلطات السوفيتية الرسمي مــنه بدليل أنها أوردت نص مقالها الذي نشرته عن اهرنبرج في " الموسوعة الســوفيتية العظــيمة " ، ومــن الواضح أيضا أن موقف اهرنبرج من النظام البلشــفي يطابق موقف باسترناك من الفن الاشتراكي الذي سيفضي في نهاية الأمر إلى القضاء على جميع الفنون .

اهرنبرج يساند ستالين :

حــتى الأربعيــن مــن عمره نذر اهرنبرج قلمه للاعتراض على النظام الســوفيتي والســخرية مــن عيوبه ومثالبه رغم أن هذا النظام لم يكن بعد قد خضع بعد لحكم ستالين القاسي . والغريب أنه تصالح مع النظام الشيوعي إبان حكــم ســتالين أي وهو في ذروة طغيانه وجبروته . وفي عام ١٩٣٢ أصبح مؤلفــنا المراســل الصحفي في باريس للجريدة السوفيتية الرسمية ازفتستيا . ولكــنه أدرك أن مناصــرته للــنظام الستاليني تقتضي أن يدفع ثمن تنازلاته فيضطر للصمت أحيانا وإغماض العين أحيانا أخرى . كان اهرنبرج قبل حكم ستالين يأخذ راحته في الهجوم على النظام البلشفي فهو في روايته " شارع في موسكو " يذهب إلى أن قائد المركبة السوفيتية فقد عقله ولم يعد يعرف أين هو ذاهــب بركاب مركبته . وعندما تولى ستالين مقاليد الحكم لم يكن يسمح لأي كاتب بتوجيه أي نوع من النقد إلى نظامه . فهو على استعداد لقمع المعارضة

دون رحمة . وخشى مؤلفنا مغبة الاعتراض على النظام ومن أن أعماله سوف لا تـرى الـنور فـي روسيا الأمر الذي سوف يؤدي إلى خبو اسمه بمضي الوقت. ومعنى هذا أن هناك شبهة في أن يكون اهرنبرج ساير النظام الستاليني مـن أجل المحافظة على مصالحه . غير ان المدافعين عن اهرنبرج يبررون مناصـرته لستالين فيقول البعض منهم أن مؤلفنا قرر مساندته لإدراكه أنه لن يقـف مكتوف اليدين أمام الزحف النازي . ولكن شانئيه يعترضون على هذا التبرير بقولهم أنه بدأ في مساندة الستاليني عام ١٩٣١ أي قبل مجيء هتلر إلى الحكـم عـام ١٩٣٣ . وهناك تفسير آخر لمساندته لستالين وهو أنه تعب من الاعتراض على النظام وبات يتوق إلى شيء يؤمن به لأنه ضاق ذرعا بالشك الذي عاش فيه الأمر الذي جعله يستبشر خيرا بالخطة الخمسية الأولى . ثم إنه لـم يكـن يتصـور البته أن الأمر سوف يصل بستالين إلى حد تعيين أندريه زادانوف وصيا على الفنون والآداب . وفي عام ١٩٣٢ وقبل تعيينه بشهر في وظيفة مراسل لصحيفة ازفستيا ألف رواية بعنوان " موسكو لا تؤمن بالدموع " عبر فيها عن اشمئزازه من الحضارة الغربية وشبهها بمراحيض فندق قذر من الدرجة الخامسة .

وفـي تلـك الفترة من حياته قرر زيارة الاتحاد السوفيتي والتجوال من ربوعه حتى يتبين بنفسه أحواله . وقبل عام واحد من هذه الزيارة كانت مجلة الجازيـت الأدبي قد غضبت منه لزرايته بالحياة السوفيتية ونصحته بمعالجة تشاؤمه بالعمل في مصنع لإنتاج السيارات حتى يرى بنفسه الخطوات الحثيثة التي يخطوها الاتحاد السوفيتي في طريق التصنيع . وبعد أن كان فيما مضى يسخر من الحياة السوفيتية نراه قبل عودته من زيارته للاتحاد السوفيتي يؤلف رواية تشيد ببناء مصنع هائل للحديد والصلب في سيبريا . وأطلق على روايته عنوان " وفي اليوم الثاني " وهو عنوان ديني استمده من سفر التكوين بالكتاب المقـدس . ولـم يكن مألوفا أن يستوحي مؤلف الكتاب المقدس للإشادة بالتقدم الذي يحرزه الاتحاد السوفيتي . ولهذا امتنع الناشرون الروس عن نشر روايته ولكـن اهرنـبرج لـم يستسلم فقد قام في باريس بطبع عدد محدود من النسخ

الفاخرة من هذه الرواية التي كبدته كثيرا من النفقات . ثم أرسل هذه النسخ إلى أعضـــاء المكتــب السياسي في الاتحاد السوفيتي . ويبدو أن فكرة الدفاع عن تصـــنيع الاتحاد السوفيتي من منظور غير تقليدي راقت في عين ستالين فأمر بنشـــرها . وساعد على هذا ان اهرنبرج بات يتوخى الحذر في انتقاد الاتحاد الســـوفيتي فهـــو ينتقده أحيانا ويهادنه أحيانا اخرى . وأيضا تتضمن الرواية تلميحا بأن التصريحات السوفيتية عارية عن الصحة وإلى أن أفران المصانع ليســـت أجمـــل من تمثال فينوس وأن زهرة الليلاك جاءت إلى العالم قبل أن يجيء إليه كارل ماركس وأن الربيع سبق ثورة أكتوبر في المجيء . كما تقول الـــرواية أن النمل البشري هو الذي يبني الدولة السوفيتية الصناعية الجديدة . وخلصـــت الـــرواية إلى نتيجة مفادها أن الناس في الشرق والغرب على حد سواء أصبحوا يتحركون حركات آلية منتظمة كالساعة حتى لا يتجشموا مشقة التفكير . وفي مقابلة أجراها الباحث الكندي بول أوستن مع اهرنبرج قبل وفاته نراه يكرر ما سبق أن ذهب إليه وهو أن عقد الثلاثينات من القرن العشرين لا يسمح للفرد بالاحتفاظ بفرديته .

وفـــي بداية عام ١٩٣٤ تم استبعاد نيكولاي بوخارين من السلطة الأمر الـــذي اضـــطره إلى المصالحة والتوائم معها . واسند إليه المسئولون رئاسة تحرير صحيفة ازفستيا حيث أصبح رئيسا لاهرنبرج الذي بات عضوا مرموقا في النظام السوفيتي . وقد ربطت بين هذين الرجلين صداقة قديمة . وفي نفس العـــام تـــم عقد أول مؤتمر للكتاب برئاسة بوخارين . واشترك اهرنبرج في أعمـــال المؤتمر حيث جلس احيانا على المنصة بجوار باسترناك الذي وصفه بوخاريـــن بأنه أعظم شاعر روسي على قيد الحياة . ومن سخرية الأقدار أن أندريـــه زادانوف الذي انقض على حرية الإبداع بأمر من ستالين كان يجلس بجـــوار كل من اهرنبرج وباسترناك . ويعترف مؤلفنا بأنه كان ساذجا عندما استبشر خيرا من عقد هذا المؤتمر . ورغم أنه لم يعارض دعوة زادانوف إلى الواقعـــية الاشتراكية فإنه ذهب إلى ضرورة أن يعالج الأدب السوفيتي البشر ويكـــف عـــن الحديث عن الآلات إذا أريد لهذا الأدب أن يكون مصدر الهام

للشعب الروسي وأن يكون دافعا لبناء الاشتراكية . وأعلن اهرنبرج أنه يتعين علـــى هذا الأدب أن يقول الحقيقة للقراء مهما اكتنفتها الصعوبات . باختصار أكــد علـــى أن يكـــون الأدب السوفيتي فنا وليس مجرد نشرة دعاية من أجل الخطـــة الخمسية . يقول اهرنبرج في خطابه الناجح إلى المؤتمر : " كثيرا ما يظهر العمال في رواياتنا وقد انقطعت الوشائج التي تربطهم بالحياة ، في حين أن العمـــال بشـــر يكافحون ويحبون ويلثمون الشفاه ويقرأون ويحلمون . وهم أيضـــا أزواج وعشاق يكابدون نار الغيرة . فضلا عن أنهم في بعض الأحيان يأتون بأفعال سخيفة " ويعيب اهرنبرج على الكتاب السوفيت الذين لا يقدمون إلـــى قـــرائهم شخصيات نابضة بالحياة وأنهم يتجنبون أحيانا المشاكل الصعبة ويهربون إلى موضوعات تاريخية أو يتحدثون عن بلاد غريبة ونائية. وكذلك أنحى مؤلفنا باللائمة على نقاد الأدب الذين يفتقرون إلى الموضوعية في الحكم فهم يكيلون عاطر الثناء على العمل أدبي ثم لا يلبثون أن يحقروه ويحطوا من شأنه .

ولـــم يســـلم العـــاملون في قطاع السياحة السوفيتية من هجومه الضاري عليهم، الأمر الذي جعلهم يتخذون منه موقفا معاديا . ففي إحدى زيارته لبلاده لحضـــور مؤتمر الكتاب السوفيت استأجر غرفة في فندق كبير في موسكو . وبعد مرور أيام أمره مدير الفندق بإخلاء غرفته بحجة استضافة فوج سياحي غربـــي واستشاط مؤلفنا غضبا لهذا التمييز الصارخ ونشر مقالا روى فيه ما حـــدث وهاجم المسئولين عن السياحة السوفيتية متهما إياهم بالكذب والتمويه وإخفاء الحقائق غير المرغوب فيها . ولكن انتقاده لقطاع السياحة لم يمنعه من الإطـــراء على انتشار التعليم بين الشباب السوفيتي فقد سمعهم يناقشون مالرو في الأدب الفرنسي كما أنهم تحدثوا إلى اهرنبرج نفسه عن بلزاك وستاندهال وبول فاليري . فضلا عن أنه أكد أن الصورة القبيحة للاتحاد السوفيتي سوف تختفـــي بمرور الزمن لتحل محل صورة مشرقة وناصعة . غير ان المتمرد السابق فقد الكثير من تمرده وركز لومه وتقريعه على الحضارة الغربية الآفلة. واســـتخدم اهرنـــبرج فـــي تأييده للنظام الستاليني اسلوبا غير مباشر تمثل في

الهجوم الضاري على الغرب . كما يتمثل في التراجع عن هجومه السابق على التصـــنيع فنحن على سبيل المثال نراه يهاجم الأديب الفرنسي جورج ديهاميل لأنـــه يهـــاجم صـــناعتي السينما والسيارات . فضلا عن هجومه على الأدباء الغربييـــن الذين يناصبون الاتحاد السوفيتي العداء . ثم أنه امتدح أندريه جيد عندما كان جيد نصيرا للنظام السوفيتي ثم انقلب عليه بعد أن انقلب جيد على هذا النظام . باختصار أصبح اهرنبرج نموذجا للمواطن السوفيتي الموالي كل الولاء للنظام السوفيتي القائم .

ولـــم يـــنقذ اهرنبرج من وصمة التردي في مداهنة النظام الستاليني غير ظهـــور هـــتلر واجتـــياح بربريته النازية لكافة القيم والمقاييس الحضارية . وتصـــدى مؤلفـــنا بكل قوة وحزم لهذه البربرية وقارن بين روسيا السوفيتية وألمانيا النازية فاعترف أن فردية الفرد الروسي يتهددها خطر النظام الجماعي الســـوفيتي وأن البيروقراطية السوفيتية قاسية ولا تعرف الرحمة وتملى على الكـــتاب مـــا يكتبون وتمنع من النشر الكتب غير المرغوب فيها . ولكن مهما كـــان الأمـــر فـــإن روســـيا لا يمكن أن تهبط إلى مستوى الهمجية النازية . فالسوفيت لا يحرقون الكتب في احتفاليات سارة وبهيجة مثلما يفعل النازيون .

وبعد مغادرة روسيا وعودته إلى باريس اتفق اهرنبرج مع جان ريتشارد بلـــوخ علـــى تكوين جبهة لمناهضة الفاشية وتوحيد كل الصفوف في الشرق والغرب ضدها . وسطر اهرنبرج خطابا أرسله إلى موسكو يتضمن عددا من المقـــترحات في هذا الشأن . وفي نهاية المطاف وصل هذا الخطاب إلى أيدي ستالين الذي عبر عن رغبته في مقابلته . فتم استدعاؤه على عجل من باريس إلى موسكو . وكان للخطاب وقع طيب في نفس ستالين الذي شعر أنه بإمكانه أن يســـتفيد من اهرنبرج . ولكن الظروف حالت دون مقابلة ستالين فقد صار ستالين مشغولا للغاية بعد اغتيال كيروف .

وفـــي عام ١٩٣٥ ظن اهرنبرج أنه يستطيع أن يفعل شيئا لإقالة الآداب والفنون السوفيتية من عثارها وأن يحقق للأدباء والفنانين في روسيا قدرا أكبر

مـــن حـــرية التعبير . وبالفعل نشر مقالين في جريدة ازفستيا طالب فيهما بأن يتمـــتع الكـــتاب في الاتحاد السوفيتي بمساحة أوسع من الحرية . وألف كتابا آنـــذاك بعـــنوان " كتاب للكبار " . وفي تلك الفترة وجه اهرنبرج كل نشاطه وحيويـــته إلـــى منفذ جديد . فقد اندلعت الحرب الأهلية الأسبانية عام ١٩٣٦ فسافر إلى أسبانيا كي يكون قريبا من موقع الأحداث .

اهرنبرج يراقب أحداث الحرب الأهلية الأسبانية :

كان من حسن حظ إليا اهرنبرج أنه قرر السفر إلى أسبانيا لمتابعة وقائع الحـــرب الأهلـــية هناك الأمر الذي وفر له فرصة الهروب من بطش ستالين ومحاكمات التطهير التي أجراها للتخلص من كل شكل من اشكال المعارضة. وهـــي المحاكمـــات التـــي أطاحـــت بكل من الزعيمين السوفيتيين زينوفيف وكامينيـــن. وقد تزامنت محاكم التطهير مع نشوب الحرب الأهلية الأسبانية . وظـــل اهرنبرج في أسبانيا مدة عامين ونصف يتابع فيهما أحداث هذه الحرب ويكتـــب التقارير الصحفية عنها . وفي أسبانيا أحب اهرنبرج الشعب الأسباني المـــتطلع إلـــى الحصـــول على حريته . وزاد فقر الأسبان من حب اهرنبرج لهـــم. ولا غـــرو فالروس فقراء ويعطفون على أمثالهم من الشعوب الفقيرة . وفي أسبانيا التقى مؤلفنا ببعض الفوضويين من أتباع باكونين ومن الواضح أنه اســـتطاع أن يقيم معهم علاقات طيبة فقد أحبهم لولائهم واخلاصهم ومثاليتهم وسذاجتهم ولجنونهم الرائع على حد تعبيره . وبسبب قدرته غير العادية على فهم الفوضويين الشواذ في نظر مبعوثى الاتحاد السوفيتي إلى اسبانيا فقد عهد إليه هؤلاء المبعوثون بمهمة الاتصال بهم والتفاهم معهم : والجدير بالذكر أن اهرنـــبرج تعـــرف فـــي أســـبانيا علـــى الكاتب الأمريكي المعروف أرنست همجنواي.

والأمر الذي يثير الدهشة والاستغراب أن ستالين لم يصب اهرنبرج بأي أذى رغم تعطشه للدماء وأنه أطاح برءوس اقرب المقربين إليه . وعندما عاد مؤلفـــنا في ديسمبر عام ١٩٣٧ إلى الاتحاد السوفيتي اكتشف اختفاء الكثيرين

من معارفه في حملات التطهير حتى صديقه القديم بوخارين (الذي كان يعمل تحت رئاسته في صحيفة ازفستيا) حكم عليه بالإعدام . ولهذا يعتبر الكثيرون نجاة اهرنبرج من الموت أعجوبة ولغزا يحير الألباب . وعندما تقدم اهرنبرج إلى المسئولين بطلب للسماح له بالعودة إلى الغرب لم يستجيبوا إليه فأقدم على عمـــل طائش إذ أرسل خطابا إلى ستالين نفسه يطلب منه السماح بالسفر إلى الغـــرب ولكن ستالين رفض إجابته إلى طلبه فتهور أكثر من ذي قبل وسطر خطابا آخر إلى ستالين الذي وافق له هذه المرة على السفر . لقد كان اهرنبرج يستخدم موهبته في الهجاء للنيل من النظام السوفيتي . ولكن الأيام حنكته أكثر وأكثر وعلمته أن يكون في منتهى الحذر فلا يفتح فمه إلا بقدر محسوب .

وفي عام ١٩٣٨ نجح اهرنبرج في العودة إلى الغرب . وغادر بلاده وقد مـــلأ الحزن قلبه . فلم يكن يتصور أن مآل الاتحاد السوفيتي سوف يكون بهذا الســـوء لدرجـــة أنه كتب في مذكراته يقول أنه فقد الرغبة في الاستمرار في الحـــياة . وأراد أن يغـــرق همومه وأحزانه في لجة النسيان فلم يجد ما ينسيه أحـــزانه غـــير العـــودة إلى تناول الحرب الأهلية الأسبانية والتعبير عن مقته للفاشية .

لقـــد كـــان فيما مضى لاذع الانتقاد لأوربا التي احبها أما الآن وقد شاهد بـــلاده تفقـــد رشدها فلم يجد أمامه سوى التركيز على أوربا الغربية التي ظل يحبها رغم كل ما شابها من عيوب ومثالب . وبعد عودته إلى الغرب أمضى وقـــته فـــي الانـــتقال بيـــن أسبانيا وفرنسا . وزاد تشامبرلين رئيس الوزارة البريطانـــي بمهادنـــته واستسلامه لهتلر من أحزانه . وأحزنه أيضا أن يرى فرنســـا الحبيبة إلى نفسه تتآكل وتضمحل من الناحية الأدبية . فمجازر اليهود التي ارتكبتها ألمانيا النازية لم تحرك منها ساكنا في حين احتدمت المظاهرات في الاتحاد السوفيتي ضد البربرية النازية بتحريض من جوزيف ستالين نفسه فـــي كـــل من موسكو ولننجراد وكييف وتبليست . وشارك الكاتب المعروف الكســـي تولســـتوي فـــي مظاهرات الاحتجاج ضد البربرية النازية . وشعر

اهرنبرج بالأسى لانتصار فرانكو وخاصة لأنه أخطأ في تقديره عندما تنبأ له بالهــزيمة والاندحار. وفي تلك الفترة بدأت صحيفة ازفستيا تزور عن مقالاته وبات من الواضح أن النظام الستاليني لم يعد بحاجة إلى خدماته وإلى هجومه الضــاري علــى الفاشية وتأليب المشاعر ضدها بسبب رغبة هذا النظام في التصالح مع هتلر . وأخيرا قررت ازفستيا الاستغناء عن خدماته دون أن تعني بإبلاغه بل تركته حائرا يضرب أخماسا في أسداس مما جعله يرسل خطابا إلى الصحيفة يستفسر فيها عن وضعه وعن سر امتناعها عن نشر مقالاته . عندئذ أخـــبرته الجريدة أن يكف عن إرسال المقالات إليها بعد أن طمأنته بأنه.سوف يحصل على راتبه كالمعتاد . ويرجع السبب في استبعاد اهرنبرج من ازفستيا إلـــى رغـــبة الـــروس في التقرب من الألمان الذي كانوا يكرهون اهرنبرج ليهوديته ومقالاته المعادية للفاشية . أي ان وجوده سوف يقف حجر عثرة في ســـبيل التفاهم بين السوفيت والنازيين وهو التفاهم الذي أدى فيما بعد إلى عقد معـــاهدة عـــدم اعـــتداء بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا . وجاءت هذه المعاهدة كصدمة عنيفة لم تتحملها أعصاب اهرنبرج الذي رأى كل ما حارب من أجله يـــنهار فـــي غمضة عين ومر بأزمة نفسية جعلته يزهد في تناول الطعام بل عاجزا عن ازدراده . ولم تشفه من حالته هذه غير صدمة أخرى تلقاها عندما وردت الأنـــباء بأن ألمانيا النازية مزقت معاهدة عدم الاعتداء وقامت باجتياح الأراضـــي الروســـية . لقد استشاط اهرنبرج غضبا عندما رأى بلاده تهادن ألمانيا وتسعى إلى تبرير هذه المهادنة .

وممـــا زاد مـــن متاعب اهرنبرج أنه كان في باريس في وضع لا يحسد علـــيه ففـــي الماضي اعتبرته الحكومة عميلا شيوعيا يعمل مراسلا لصحيفة روسية . أما الآن فقد ازدادت شكوك الحكومة الفرنسية فيه إذ كان يهاجمها في مقالاتـــه ويـــتهمها بخيانة أعداء فرانكو واتباع سياسة المهادنة مع هتلر . فهو الآن في نظرها عميل للنازية . وزاد من شكوك البوليس الفرنسي في عمالته للـــنازية أن الاتحاد السوفيتي تحالف أخيرا مع هتلر . ونسى البوليس الفرنسي أن اهرنـــبرج نـــذر قلمـــه لمحاربـــة الفاشية . وأيضا تعرض مؤلفنا لهجوم

الصـــحافة الفرنســية عليه كما انفض من حوله عدد من الأصدقاء لدرجة أنه حــاول مغـــادرة الأراضي الفرنسية ولكنه فشل واضطر إلى البقاء في فرنسا بسبب عدد من التعقيدات الإدارية التي حالت دون مغادرتها .

كـــان اهرنـــبرج مقتنعا بهشاشة معاهدة عدم الاعتداء التي عقدتها روسيا السـوفيتية مـــع ألمانـــيا النازية . وعندما أسر بشكوكه ومخاوفه إلى معارفه واصدقائه رفضوا مجرد الاستماع إليها . وزاد من ضيقه شعوره بأن الألمان يزورون عنه بسبب يهوديته وأن السوفيت لا يريدون منه إقحام نفسه في رسم سياســة بلادهم لنفس السبب . وهال اهرنبرج أن يرى القوات النازية تجتاح فرنســا وتحــتلها دون أي مقاومـــة ، الأمر الذي سبب له غما شديدا . وأراد أهرنبرج أن يروي لبني جلدته قصة الغزو النازي لفرنسا التي عرف عن كثب أدق تفاصيله بحكم وجوده في باريس . ولكنه اصطدم بعقبتين كبيرتين أولاهما أن ستالين لا يريد أن يعكر صفو معاهدته مع هتلر عام ١٩٣٩ ومن ثم فهو لا يـــريد ذكـــر هـــتلر والجيش الألماني بأي سوء وثانيهما أن الألمان أنفسهم لا يـــريدون أن يذكرهم أحد بالسوء . وهكذا اتضح لمؤلفنا أنه يسير على طريق مليء بالأشواك أو على حبل مشدود يؤدي السقوط منه إلى الهاوية . وتوخي اهرنـــبرج في مقالاته وتقاريره الصحفية أقصى درجات الحذر . وثمة مشكلة أخرى واجهته وهي ان الصحف الكبيرة مثل برافدا وازفستيا أحجمت عن نشر مقالاته رغم شدة حرصه في اختيار الكلمات . ولكن صحيفة سوفيتية مغمورة قبلت أن تنشرها .

وفي هذا الجو الشائك الدقيق ألف اهرنبرج رواية " سقوط باريس " ونشر الجزء الأول منها وهو يتناول باريس قبل دخول الألمان . وعندئذ حدث ما لم يكـــن في الحسبان فقد طلب إليه المسئولون أن يتصل تليفونيا بستالين وكانت هـــذه المرة الأولى التي تحدث فيها إليه . ولعلنا نذكر أن ستالين حدد له عام ١٩٣٤ موعـــدا لمقابلته ولكن هذه المقابلة لم تتم بسبب اغتيال كيروف . وفي حديـــثه التليفونـــي مـــع ستالين قال له ستالين أنه قرأ الجزء الأول من رواية

" سقوط باريس " بكثير من الاهتمام ثم سأل المؤلف إذا كان ينوي تناول الغزو النازي لفرنسا في الأجزاء التالية . فأجاب اهرنبرج بأنه ينوي هذا ولكنه يخشى رفض الرقابة . عندئذ شد ستالين من أزره قائلا : " استمر في الكتابة وسوف نسعى سويا لإخراج عملك إلى النور " ولم يصدق اهرنبرج أذنيه . فبالأمس القريب رفض الجميع مجرد الاستماع إليه وإلى شكوكه في نوايا النازيين نحو السوفيت فقد توقع منهم الغدر بروسيا والاعتداء عليها بنفس الطريقة التي اعتدوا بها على فرنسا . فإذا برئيس الدولة يشجعه على المضي قدما لاستكمال روايته ويعطيه الضوء الأخضر لمهاجمة الألمان الأمر الذي أكد له أن الحرب بين روسيا السوفيتية وألمانيا النازية وشيكة الوقوع . وبدلا من أن يحس اهرنبرج بالسرور والابتهاج لهذا الانتصار الشخصي الساحق خيمت سحابة كئيبة على قلبه عندما تذكر كيف تجري الأمور في بلاده .

بوق دعاية ضد الفاشية ليس له مثيل :

عندما قامت القوات النازية بغزو الأراضي السوفيتية في ٢٢ يونيه ١٩٤١ اضطلع اهرنبرج بدور تاريخي بارز في تأليب المشاعر الروسية ضدها . وذاع صيته في كل أرجاء روسيا وأوربا بسبب حملاته الضارية على النازية فقد نشر مئات المقالات وبث مئات الأحاديث الدامغة للبربرية النازية . ولم يكن اهرنبرج يتصور أن نبوءته عن شهادة اليهود سوف تتحقق على أيدي النازيين على هذا النحو المرعب . وفي أغسطس ١٩٤١ ألقى خطابا هاجم فيه الفاشية في المؤتمر اليهودي المناهض للفاشية . قال : " إنني كاتب روسي ولكن النازيين جعلوني أتذكر شيئا آخر وهو أن أمي اسمها حنة وأنني يهودي". وعندما وصل صوته إلى إسماع اليهود الذين وطأهم هتلر تحت أقدامه بكوا بكاء مرا. ولم يكن اليهود وحدهم هم الذين تأثروا بكلماته النارية فقد كان له فعل السحر على الفلاح الروسي . وفي حثه للروس على القتال المستمر ضد الغزاة الألمان أصبح الجنود الروس في الخنادق وميدان القتال يطالعون بنهم شديد مقالاته الموجهة إليهم في جريدة الجيش الأحمر " النجمة الحمراء " .

وأيضـا كلفـته مصلحة الاستعلامات السوفيتية بعمل الدعاية المناسبة للاتحاد السـوفيتي بيـن الـدول الأوربية فلا غرو فقد عاش في الغرب وانفتح على حضـارته وتمـرس بأساليبه وعرف كيف يخاطب الأوربيين الذين يرزحون تحـت وطـأة الغـزو النازي بالمنطق الذي يستسيغونه . واتقن اهرنبرج فن التحريض وتهييج الخواطر ضد الفاشية والنازية اتقانا لا مزيد عليه . وعرف كـيف يغرس الكراهية لهما في نفوس مستمعيه . فعل اهرنبرج هذا في أحلك الظروف التي مرت بها روسيا عندما توغلت القوات النازية داخلها ، وحين لم تكـن هـناك بارقة أمل في النصر . واستطاع بعباراته البسيطة والمؤثرة أن يجعل الروس يتشبثون بأراضيهم ويذودون عنها بأرواحهم حتى بدأ الأمل في رد العدو ثم دحره يلوح .

غـير أن كلماتـه الـنازية التي كان لها مفعول السحر على أبناء وطنه اسـتغلتها أجهزة الإعلام النازية أسوأ استغلال فنسبت إليه أقوالا لم ترد على لسانه قط مثل الزعم بأنه قال إنه لا يكفي للروسي أن يسفك دم الألماني فحسب بـل أن يستبيح نساءه الأمر الذي جعل الألمان ينتقمون من الروس ويظهرون نحوهـم شراسة غير عادية . وهكذا كانت كلمات اهرنبرج سلاحا ذا حدين . وكان من الطبيعي أن تكرمه الدولة السوفيتية على الدور الوطني العظيم الذي اضـطلع بـه فقد منحته وسام لينين وهو أرفع الأوسمة . وكان قبل ذلك بعام واحد قد حصل على جائزة ستالين بسبب تأليفه رواية " سقوط باريس " .

غـير ان سياسـة اهرنبرج التي لم تتوقف قط حتى في وقت النصر عن المطالـبة بالانتقام من الألمان والتشفي من وحشيتهم لم تجد قبولا لدى بعض الدوائـر الغربـية . فضلا عن أنها - وهو الأهم - لم تعد مقبولة لدى القيادة السـوفيتية بعـد أن تحقق لها النصر . ففي ١٤ أبريل ١٩٤٥ نشرت جريدة البرافدا مقالا بقلم رئيس قسم الدعاية بعنوان " الرفيق اهرنبرج يبالغ في تبسيط الأمـور " وكان هذا إيذانا بان ستالين لم يعد راضيا عن سياسة اهرنبرج في مواصلة حض الروس على كراهية الألمان والفتك بهم . وأشار المقال إلى أن

شراســة الألمــان واستماتتهم في مقاومة الروس ترجع إلى خوفهم من تنكيل الروس بهم . وتكلم ستالين فقال إن الاتحاد السوفيتي لا يحمل الموجدة للشعب الألماني بل لهتلر والقيادة النازية .

وقد كان مؤلفنا يحلم بعد انتهاء الحرب بإقامة علاقات يسودها الوئام مع الــدول الأوربية . والجدير بالذكر أنه بالرغم من حبه الشديد لأوربا فإنه كان يعيب عليها احتقارها للفلاح الروسي . وتملكته فكرة لم تبرح ذهنه أبدا مفادها أن النازييــن في حربهم ضد الأوربيين امتنعوا عن ممارسة الوحشية التي لم يتورعوا عن ممارستها في حربهم ضد الروس .

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها تحول اهرنبرج إلى تابع ذلــيل لستالين . لقد كان اهرنبرج يحلم بعلاقة طيبة لبلاده مع الغرب ولكن لم يمــر وقــت طويل حتى أخذت الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا تلوح في الأفــق. ودعته أمريكا لزيارتها وأحسنت استقباله . وهناك تحدث في اجتماع عقــده المجلس اليهودي لتقديم المعونة للمشاركين في الحرب السوفيتية. وفي هذا الاجتماع قام الحبر اليهودي وايز بالتنويه والإشارة بدور الاتحاد السوفيتي فــي محاربــة معاداة السامية . وبوجه عام تركت أمريكا في نفس اهرنبرج أطيــب الأثــر ولكــن هذا لم يمنعه من الإشارة إلى التناقضات الموجودة في المجــتمع الأمريكي ونزعة بعض قطاعاته إلى الاصطدام بالاتحاد السوفيتي . وبعد عودته إلى بلاده نشر اهرنبرج سلسلة من المقالات عن رحلته الأمريكية في صحيفة ازفستيا . وبحلول عام ١٩٤٧ اعتبر ستالين الولايات المتحدة عدو الاتحــاد السوفيتي رقم ١ فتبعه اهرنبرج وسار على دربه وشن حملة شعواء علــى الأمــريكان ولكــنه ذكــر بالخير أدباء أمريكا العظام أمثال همنجواي وشــتانيبك وفولكــنر . وأيضــا في عام ١٩٤٧ انتهى كاتبنا من تأليف أولى رواياتــه بعــد الحــرب العالمية الثانية وهي بعنوان " العاصفة " التي تصور بانورامــا هائلــة لروسيا في فترة الحرب كما تعطينا وصفا مفصلا لمجازر اليهود على أيدي النازيين في بابي يار بالقرب من كييف .

اهرنبرج والمشكلة اليهودية :

يــتهم بعض المؤرخين جوزيف ستالين بتدبير حملة ضد اليهود في السر وأن ملامح مؤامرته لم تكن واضحة في حينها . ويقول هؤلاء المؤرخون ان هــذا يــتجلى مــن مقتل الممثل والمخرج المسرحي اليهودي الكبير سليمان مــيخاويل الذي رأس اللجنة اليهودية لمحاربة الفاشية والذي لقى مصرعه في منيسك في مطلع عام ١٩٤٨ حيث ادعت السلطات السوفيتية وفاته في حادث سيارة . وبعد موته بدأ المسئولون السوفيت ينعتونه بأنه عدو الشعب . ويعتقد الآن أن المخابرات السوفيتية هي التي دبرت قتله . وبعد وفاة ستالين اعترفت صحيفة سوفيتية أن بريا هو المسئول عن مصرعه . فضلا عن أن ابنة ستالين سفتلانا أليلوينيفا تؤكد هذا في كتاب ألفته بعنوان " سنة واحدة فقط" وقد ملأت الصــحف كلمات التكريم والثناء على هذا اليهودي لدرجة تجعل من المستحيل الشك في أن للحكومة السوفيتية ضلعا في مصرعه أو أنها أرادت أن تتخلص مــنه . وبعد انقضاء ثمانية شهور على الحادث أوحت السلطات السوفيتية إلى اهرنــبرج أن يكتب مقالا يحذر من مغبة الإندفاع في مؤازرة إسرائيل وتأييد نزعتها القومية . فقد ظن كثير من اليهود السوفيت خطأ أن الحكومة السوفيتية تشــجع التــيارات القومية في إسرائيل فستالين لن يسمح لهم بالولاء المزدوج لإسرائيل والاتحاد السوفيتي . ويروي لنا موردخاي نامير في كتابه " مهمة في موســكو " أن المخرج السينمائي السوفيتي المشهور مارك دورنسكوي تحمس لإســرائيل لدرجــة أنــه ســعى إلى إقناع الحكومة السوفيتية بالسماح لليهود السوفيت بالهجرة إلى إسرائيل حتى لا تتحول إلى قلعة للبورجوازية اليهودية الوافــدة مــن بلاد العالم المختلفة . والجدير بالذكر أن جولدا مائير طلبت من الحكومــة السوفيتية السماح لليهود بالهجرة إلى إسرائيل أثناء فترة عملها في موسكو كممثلة ديبلوماسية لبلادها.

نشر اهرنبرج مقاله في برافدا عن موقف اليهود من إنشاء دولة إسرائيل بــتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٤٨ أي بعد انقضاء أحد عشر يوما على تقديم جولدا

مائير أوراق اعتمادها كممثلة لإسرائيل في الاتحاد السوفيتي . يقول اهرنبرج في تبريره لكتابة المقال أنه تلقى رسالة (قد تكون مختلقة) من طالب يهودي ألمانـــي حائر يسأله فيها عن موقف الاتحاد السوفيتي من إنشاء دولة إسرائيل وإذا كـــان إنشاؤها كفيل بحل المشكلة اليهودية . وتدل إجابته عن استفسارات هـــذا الطالـــب علـــى نزوعه إلى التوافق مع النظام السوفيتي . فضلا عن أن إجابـــته لـــم تكن موجهة إلى الحكومة الإسرائيلية فحسب بل إلى اليهود الذين يعيشون في الاتحاد السوفيتي أيضا . والمهم أن قناعة مؤلفنا الشخصية جاءت متفقة مع السياسة التي انتهجتها السلطات السوفيتية .

ينقســـم مقال اهرنبرج إلى جزءين . يتناول الجزء الأول وهو موجه إلى الـــيهود الروس الموقف السوفيتي الرسمي من إنشاء دولة إسرائيل . ويشرح اهرنـــبرج هذا الموقف قائلا أن الاتحاد السوفيتي أيد فكرة إنشاء دولة يهودية فـــي فلســـطين مـــن بـــاب مؤازرة اليهود الضعفاء الذين ينكل بهم الانتداب البريطانـــي في فلسطين . ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال تأييد دولة إســـرائيل فهـــي دولـــة رأسمالية لا تقل في شرها عن سائر الدول الرأسمالية الأخرى : ومن ثم فإنه من الخطأ أن يعتقد اليهود السوفيت أن الوشائج تربطهم بهذه الدولة . أما الجزء الثاني من المقال فيتناول مذهب الصهيونية حيث يقول اهرنبرج أن الهجرة إلى إسرائيل قد تكون مقبولة إذا كان المهاجر اليهودي من ألمانـــيا بســـبب الأهـــوال التي عاني منها اليهود على أيدي النازيين . ويرى اهرنبرج أن ما ينطبق على يهود ألمانيا لا ينطبق على بقية اليهود المنتشرين في أرجاء العالم .

فلا معنى لتضامن اليهود إلا إذا تعرضوا للاضطهاد . وبما أنهم يعيشون عيشة عادية في البلاد المختلفة فلا معنى لاتحادهم وتضامنهم ويرى اهرنبرج أن المشـــكلة الـــيهودية لا تعدو أن تكون اختراعا اخترعه أعداء السامية فهي مشـــكلة لا وجود لها في ظل النظام الاشتراكي . ومن ثم فلا حاجة لليهود في أوربا الشرقية أن يذهبوا إلى إسرائيل بحثا عن حل لمشكلتهم في حين أن الحل

الحقيقي يكمن في القضاء على ما البلاد المختلفة في جهالة وتعصب وظلامية قد تتفشى في المجتمعات التي يعيش اليهود فيها .

ولم يكن في هذا الموقف أي جديد فهو الموقف التقليدي الذي تبناه الليبراليون والاشتراكيون سواء كانوا يهودا أم غير يهود ، ويزور عن الانسياق وراء النزعات القومية . وأضاف اهرنبرج أنه من السهل على اليهود في الشتات أن يتخلصوا من الأفكار القومية الضيقة الأفق فمن شأن الاضطهاد الذي تعرضوا له عبر تاريخهم الطويل أن يمكنهم من تفهم أهمية الإيمان بالفكر العالمي وأن ينفضوا عن المذهب الصهيوني الذي يمثل رجعة إلى الخلف وليس تقدما إلى الأمام . واستطرد اهرنبرج قائلا أن معاداة السامية سوف تختفي من المجتمعات الإنسانية مع التقدم وإعمال العقل . وقد بدأ هذا المنطق معقولا ومستساغا لدى اليهود وغير اليهود على السواء حتى جاء هتلر ليهدم كل الأفكار المؤمنة بالأخوة الإنسانية ونبذ التعصب القومي . وفكر اليهود الكوزموبوليتان في محنتهم فانتهوا إلى أن إنشاء دولة إسرائيل – مهما كانت التحفظات عليها – أفضل من الإبادة النازية الجماعية لليهود . والحقيقة أن اهرنبرج لم يعطف في حياته أبدا على الفكر الصهيوني ولا غرو فقد كان إيمانه بالحضارة الغربية راسخا لا يتزعزع . وفي إجابته عن استفسارات الطالب اليهودي الألماني نراه يهاجم تقوقع اليهود على أنفسهم ويدعو إلى موقفه القديم القائم على الانفتاح على الغرب .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يحرص اهرنبرج على تأكيد يهوديته . عندئذ يستشهد اهرنبرج ببعض أشعار شاعر بولندي يهودي يساري أثير إلى قلبه هو جوليان تورويم الذي حمل له شديد الإعجاب . يقول تورويم عن نفسه أنه يهودي " بسبب الدم " دون أن يعني بهذا أية إيماءات عرقية . يقول تورويم شارحا رأيه: " هناك نوعان من الدم . الدم الذي يجري في عرق المرء والدم الذي يسيل من عروقه (إشارة إلى معاداة السامية التي تفضي إلى سفك دماء اليهود). يقول دورويم أن الدم الذي يجري في عروقه لا يختلف مطلقا عن دم

أي إنســان آخر ولكن الدم الذي يسيل من عروق اليهود هو الذي يميزهم عن بقــية البشر . ولم يقلل هذا من حب جوليان توويم لبولندا تماما كما أن شعور اهرنــبرج بيهوديــته لم يقلل مطلقا من حبه لوطنه روسيا . وبعد وفاة ستالين تحــدث اهرنبرج بصراحة وحرية أكثر فقال " طالما أن هناك فردا واحدا في العالم يناصب السامية العداء فسوف أفخر بأن أسمى نفسي يهودياً " .

وأيضـــا اقــتطف اهرنبرج في المقال المشار إليه وصف ستالين معاداة السامية بأنها ظاهرة بربرية . ورغم فخر مؤلفنا بيهوديته فقد أثار مقاله ردود فعل غاضبة لدى الكثير من يهود إسرائيل . فلم يكن هذا ما توقعوه من الرجل الــذي أبكـــاهم بحديثه عن شهادة الشعب اليهودي واعتبروا ما جاء في مقاله إذعانـــا رخيصـــا للسلطة السوفيتية وخضوعا وخنوعا لستالين بالذات . ولكن مؤلفـــنا وجد بين الكتاب اليهود من يدافع عنه مثل جريجوري سفيرسكي الذي كتــب واحـــدا من أبرز وأهم الكتب التي تتناول اضطهاد اليهود تحت عنوان " الرهائـــن " فقـــد ذكر أن اهرنبرج بذل قصارى جهده دائما لمناصرة اليهود وإدانـــة معـــاداة الســـامية بوجـــه عام . فضلا عن أنه لم ينكر يهوديته على الإطـــلاق. فقـــط أراد بنشر مقاله أن يتنبه يهود الاتحاد السوفيتي إلى خطورة الانـــزلاق فـــي حمـــاس مفرط بشأن إنشاء دولة إسرائيل وتحذيرهم من مغبة الانسياق وراء هذا الحماس .

وأيضـــا قصد اهرنبرج من مقاله أن يبين للحكومة الإسرائيلية ألا تسرف في أحلامها فتأمل في موافقة الحكومة السوفيتية على هجرة اليهود الروس إلى إسرائيل . وفي أواخر نوفمبر ١٩٤٨ تقابل المخرج السينمائي اليهودي مارك دونســكوف مـــع اهرنبرج في حفل استقبال دبلوماسي فطرح عليه دونسكوف الفكرة القائلة بأن مصلحة الاتحاد السوفيتي تقتضي منه السماح لليهود الروس بالهجرة إلى إسرائيل حتى لا تكون الغلبة السكانية فيها للعناصر البورجوازية. فكرر اهرنبرج أمامه عدم إيمانه بالمذهب الصهيوني وبضرورة انفتاح اليهود على المجتمعات الأخرى . ونصح اهرنبرج حكومة إسرائيل بأن تترك اليهود

الروس في حالهم ولا تحاول بالصهيونية أن تغريهم بالهجرة إلى إسرائيل لأن السلطات السوفيتية سوف تعارض هذا بكل حزم وشدة .

ويبدو أن اهرنبرج كان على حق فقد قام ستالين في نوفمبر ١٩٤٨ بحل اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية وإلقاء القبض على زعمائها ومن بينهم شاعر البيديش الكبير بيرتس ماركيش الذي كان مؤلفنا يحمل له التقدير والإعجاب . ثم قامت السلطات السوفيتية بإعدامهم بالرصاص في سرية تامة. وبعدئذ شن ستالين حملته الضارية على الدعوة إلى الانفتاح على العالم. وكانت هذه الحملة تهـدف بالتحديد إلى القضاء على العناصر اليهودية التي يثبت أنها موالية لأية دولة خارج الاتحاد السوفيتي وبخاصة دولة إسرائيل .

ورغـم أن ستالين انقض على الصهاينة الداعين للولاء لإسرائيل وعلى الانفتاحيين الموالين للغرب فإن هذا لم يضر كثيرا بمصالح اهرنبرج . ولكن شيئا من الضرر أصابه بسبب حبه الشديد والمعروف للغرب ولأنه ألف رواية متعاطفة مع اليهود بعنوان " حياة لازيك العاصفة " التي رفض الاتحاد السوفيتي السماح بنشرها . فضلا عن أن أسمه كان له مفعول السحر على اليهود في كل أرجاء العالم وأنه كان عضوا بارزا في اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية التي ألقى القبض على أعضائها البارزين . ومرة أخرى بدأ اصدقاؤه ومعارفه ينفضون من حوله تحسبا لغضب ستالين عليه كما أن رؤساء الصحف أصدروا تعليماتهم بعدم الإشارة إلى اسمه في صحفهم . وبلغ الأمر أن واحدا من الشامتين فيه – وهو عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اسمه جولوفنشكو – أعلن في اجتماع عام والبهجة تغمره أن البوليس ألقى القبض على اهرنبرج باعتباره عدو الشعب رقم "١" . وبسبب هذه الشماتة السافرة كتب اهرنبرج خطابا إلى ستالين الذي اهتم بالموضوع وكلف نائبه مالينكوف بتقصي الحقائق . واتصل مالينكوف تليفونيا باهرنبرج . وانتهى الأمر بالإعلان الرسمي عن نقل جولوفنشكو إلى المستشفى أثر الإصابة بأزمة قلبية . ويرجع السبب في عدم إصابة اهرنبرج بأي أذى إلى

رغبة ستالين في الاستفادة منه والاستعانة به كما كان الحال في المرات السابقة . ففي ابريل ١٩٤٩ عقد مؤتمر للسلام العالمي في باريس واختار اهرنبرج ليكون واحدا من أهم المتحدثين فيه ليشرح للعالم كله أن الاتحاد السوفيتي يرغب في السلام العالمي . وانتهز اهرنبرج هذه الفرصة السانحة ليكرر أنه يهودي وأنه لن يكف أبداً عن اعتبار نفسه يهودياً وألمح من طرف خفي إلى وجود بعض العناصر المناهضة للسامية داخل السلطة السوفيتية. وتوفر اهرنبرج على إعداد نص الخطاب الذي يزمع القاءه في مؤتمر السلام العالمي المنعقد في باريس وأورد فيه العبارة التالية : " ليس هناك شيء أكثر بشاعة من الصلف القومي أو العرقي " وقبل مغادرة اهرنبرج موسكو متوجهاً إلى باريس طلب منه ستالين الاطلاع بنفسه على مسودة الخطاب المزمع إلقاؤه. وسطر ستالين كلمة برافو أمام الفقرة التي وردت فيها العبارة السالفة الذكر . ولعل ستالين أراد أن يذكر مؤلفنا بأنه يستحيل عليه أن يفعل أي شيء دون إذنه . ولعله سمح لاهرنبرج بإيراد هذه العبارة حتى يبعد أنظار العالم الخارجي عن أية ممارسات معادية للسامية تحدث داخل الاتحاد السوفيتي .

والجدير بالذكر أن الصحافة الغربية انهالت عليه بالعصى الغليظة عام ١٩٥٠ بعد أن اشاع الكاتبان اليهوديتان برجيلسون وفيفر أن اهرنبرج وشى بهما لدى السلطات السوفيتية وأنه المسئول عن محنة سجنهما وكان هذان الكاتبان عضوين في اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية . وهو اتهام لا يستطيع الباحثون الجزم بصحته . ولكنه يبدو أن اهرنبرج يكذب أحيانا ويراوغ أحيانا كثيرة حتى يتحاشى التورط في تصريحات قد تكون سببا في إدانته . واتهمته استر زوجة الشاعر المحبوس ماركيش بأنه ارتضى أن يلعب دور البارفان كي يغطي على ممارسات ستالين المعادية للسامية وحتى يقنع الدول الأجنبية بعدم وجود أي عداء للسامية داخل الاتحاد السوفيتي بدليل أنه يعطي أديبا يهوديا كإهرنبرج مكانا مرموقا .

والـــذي لا شـــك فـــيه أن وفاة ستالين وفرت له مساحة أكبر من الحرية وشجعته على انتقاد الاتحاد السوفيتي لافتقاره إلى الحرية . ويتجلى لنا هذا من هجومه غير المباشر على ستالين في الرواية التي أصدرها عام ١٩٥٤ بعنوان " ذوبان الثلج " . وهي الرواية التي فتحت الأبواب لدخول الليبرالية في النظام الســـوفيتي . وتشـــير إحـــدى فقرات الرواية إلى ما يعرف في تاريخ الاتحاد السوفيتي الحديث بمؤامرة الأطباء . وهي مؤامرة مزعومة كشفت عنها وكالة تاس للأنباء يوم ١٣ يناير ١٩٥٣ وفحواها أن عددا من الأطباء اليهود حاولوا تســـميم بعض الزعماء السوفيت فقدموا إلى المحاكمة وصدرت ضدهم أحكام بالســـجن . وتبين أن المؤامرة ملفقة الأمر الذي جعل السلطات السوفيتية بعد وفاة ستالين تعيد إليهم الاعتبار وتطلق سراح من بقى منهم على قيد الحياة .

وإلـــى جانب التعريض بستالين انتقدت الرواية بصورة واضحة سياسته المخـــربة في تكميم أفواه الأدباء والفنانين وفرض الواقعية الاشتراكية عليهم . ولهـــذا لـــم يكـــن ممكنا أن تمر الرواية مر الكرام فقد أثارت حنق الرجعيين وأنصار ستالين فشنوا هجوما ضاريا عليها . وكان الروائي فسفولد في طليعة مـــن هـــاجموه . وذهـــب اهرنبرج في روايته أن مهمة الأدب ليست وصف الإنـــتاج الصناعي أو الزراعي بل وصف المشاعر البشرية والقيم الإنسانية . وقـــد شجعت وفاة ستالين أيضا رؤساء تحرير الصحف والمجلات على نشر مقـــالات تفوح بالليبرالية لم يكن من الممكن نشرها في حياته . وتولى رئيس تحريـــر مجلة " العالم الجديد " الأديب المتفتح الكسندر تفاردوفسكي الذي كان مغضـــوبا علـــيه أيام ستالين فاتفق مع اهرنبرج على نشر مذكراته " الناس والحياة " على حلقات .

والغريب أن خروشوف الذي حطم أسطورة ستالين وهاجمه بضراوة ليس لها نظير لم يتورع عن مهاجمة رواية " ذوبان الثلج " فقد ادرك أنها ستفتح بابا ســـوف يكـــون من العسير إغلاقه . والتقى اهرنبرج بخروشوف وتحدث إليه بصـــراحة عـــن ضـــرورة توفير الحرية للأدباء والفنانين فهي السبيل الوحيد

للارتقاء بمستوى إنتاجهم الإبداعي . وأصاب مؤلفنا كثير من الغم عندما رأى أن خروشوف ينتقده . غير أن مركز اهرنبرج لم يتأثر كثيرا بهجوم القيادة السياسية عليه خاصة لأن أيام الطغيان الستاليني ولت بلا رجعة. فضلا عن أن خروشوف نفسه شعر بأنه في حاجة إلى خدمات اهرنبرج ورغم أن خروشوف عبر عن زرايته ببيكاسو ومذهبه السوريالي في الرسم فإن اهرنبرج وجد في نفسه الشجاعة لمدح بيكاسو ومدح الكثيرين من الأدباء الروس المنشقين أمثال بابل وأوسيب ماندلستام ومارينا سفتيفا (انظر د. رمسيس عوض " أدباء روس منشقون في عهد جوزيف ستالين " الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١) وأسندت السلطة السوفيتية إلى اهرنبرج مهمة رد الاعتبار إلى كثير من الأدباء الذين قام ستالين ظلما بإعدامهم أو نفيهم أو الإلقاء بهم في غياهب السجون .

وقد كشف اهرنبرج عن معلومة بالغة الأهمية مفادها أنه في عام ١٩٤٣ – ١٩٤٤ اشترك مع أديب يهودي آخر هو فاسيلي جروسمان في توثيق مجموعة من السجلات التي تلقى الضوء على إبادة اليهود على أيدي القوات النازية أثناء احتلالها لبعض المناطق السوفيتية . وبعد نشر هذه الوثائق في إحدى المجلات السوفيتية قاما بجمعها في كتاب بعنوان " الكتاب الأسود " غير أن ستالين أمر بتدميره في عقد الأربعينات بعد أن قام بحل " اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية " واضطهاد أعضائها .

واللافت للنظر أنه رغم خضوع اهرنبرج شبه الكامل لجبروت ستالين فقد كانت جذوة التمرد التي بدأ بها حياته تتأجج في قلبه حتى النهاية . كل ما هنالك أنه أتقن اللعب بالبيضة والحجر يناور أحيانا ويداري أحيانا أخرى ويكذب أحيانا ثالثة كي يدرأ عن نفسه المخاطر المحيطة به . ومن ثم قال الشاعر السوفيتي يفتشنكو " لقد علمنا كيف نبقى على قيد الحياة " .

سنيافسكي وصديقه اليهودي دانييل

يعتبر أندريه سنيافسكى وصديقه يولي دانييل من أحدث الأجيال المنشقة في الاتحاد السوفيتي . فهما ينتميان إلى فترة ما بعد ستالين ، كما أن اتجاهاتهما الليبرالية جاءت نتيجة زوال النظام الستاليني . وحتى نفهم حقيقة الظروف والملابسات التي أثارت حنق السلطات السوفيتية عليهما يجدر بنا أن نلقي شيئا من الضوء على التطورات الفكرية والفنية في روسيا التي أعقبت وفاة ستالين وصاحبت مجيء خروشوف إلى الحكم من بعده . فقد شجع هجوم خروشوف الضاري على ستالين في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي عام ١٩٥٦ جيلا جديدا من الأدباء والفنانين على الاقتداء به في الزراية بستالين ، الأمر الذي خلق في النهاية جوا من السماحة الفكرية لم يسبق لها مثيل في روسيا السوفيتية.

وفي فترة حكمه وبمناسبة انعقاد مؤتمر الكتاب الأوروبيين في روسيا دعا خروشوف في مقر إقامته الصيفي ضيوفه الأجانب ومن بينهم جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وألان روب جرييه إلى سماع قصيدة ألفها واحد من أبرز الروس المشايعين للأفكار الليبرالية هو ألكسندر تفاردوفسكي بعنوان " تيوركين في العالم الآخر " نشرتها فيما بعد عام ١٩٦٣ مجلة " العالم الجديد" السوفيتية المعروفة باتجاهاتها الليبرالية . وفي قصيدته يسخر الشاعر تفاردوفسكي من جبروت النظام الستاليني ويتخيل أن إنسانا يدعى تيوركين بعد انتقاله من دار الفناء إلى دار الخلود والبقاء يجد أن العالم الآخر يحكمه نفس النظام الستاليني الغاشم الذي كان يعاني منه على الأرض كما وجد نفس الحكم الإرهابي البوليسي ونفس البيروقراطية الباغية والرقابة الغبية الخانقة .

وبطبيعة الحال تطورت هذه الحرية في التعبير إلى تجرؤ على السلطة السوفيتية وصل أحيانا إلى حد التحدي السافر . ولاشك أنه من أشد المفارقات مدعاة للاستغراب أن نرى في السنوات الثلاث الأخيرة من حكم خروشوف (الذي انتهى عام١٩٦٤) تقلصا في الحريات التي أينعت وازدهرت في عهده ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدولة السوفيتية كانت منقسمة على نفسها يضنيها الصراع بين أجيال جديدة ترنو إلى الحرية وأجيال قديمة تحتل في كثير من الأحيان مواقع السلطة وتدين بالتزمت والتشدد . وهكذا ظلت الدولة

السوفيتية في نهاية عهد خروشوف تتأرجح بين الإباحة والحظر ثم جاء عهد برجنيف وكوسيجين ليحسم الأمور ويعيد البلاد إلى خطها المتشدد القديم . وفي فترة ترددها كظمت العناصر المتشددة غيظها حتى استطاعت أن تستجمع قواها لتوجيه ضربة قاضية إلى التيار الليبرالي الذي خلقه خروشوف بهجومه على ستالين . غير أن هذا التيار الليبرالي كتب له النصر والظفر في نهاية المطاف على يد ميخائيل جورباتشوف الذي أحدث - كما يعلم العامة والخاصة - ثورة سلمية في النظام السوفيتي لم تكن تخطر على بال أحد .

ومن المفارقات أيضا أن يكون خروشوف نفسه أول من بدأ تضييق الخناق على الاتجاه الليبرالي المناصر للحريات . فقد قام عام ١٩٦٢ بزيارة معرض الرسم والنحت السوفيتي الحديث فانتهز هذه المناسبة لشن هجوم شديد الوطأة على الاتجاهات الحديثة في مجال الفنون التشكيلية ، وبوجه خاص الفن التجريدي . وكان هذا الهجوم إيذانا بانحسار المد الليبرالي الذي وقفت له العناصر المتشددة بالمرصاد . ولم يمض وقت طويل حتى تعرضت الآداب بدورها إلى نفس الضغوط التي تعرضت لها الفنون التشكيلية . وازدادت وطأة هذه الضغوط في الفترة من نوفمبر ١٩٦٢ إلى مايو ١٩٦٣ . ففي مارس ١٩٦٣ عاد خر وتشوف إلى الهجوم من جديد على الفن الحديث متهما أنصار هذا الفن بالسعي نحو التعايش الأيديولوجي مع العالم الرأسمالي. وحتى تثبت الدولة أنها جادة في رغبتها في فرض النظام على الأدباء والفنانين المنفلتين قامت بلوى ذراع يفتشنكو وتأديب فكتور نكراسوف الذي بلغت به الجرأة أنه امتدح أحيانا في كتاباته الفن الأمريكي والحياة الأمريكية وصورهما على نحو محبب للنفوس . ولكن هذا الوضع الخانق بدأ يتحسن في مايو ١٩٦٣ . فقد خفت حدة الهجوم الذي تشنه أجهزة الدولة على الكتاب الليبراليين . وكان هذا التحسن بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة . ففي ربيع عام ١٩٦٤ فوجئ العالم بتقديم بعض الأدباء السوفيت إلى المحاكمة في مدينة لننجراد. وكانت أغرب محاكمة تلك التي أجريت مع الأديب يوسف برودسكي . فقد وجهت إليه هيئة المحكمة اتهاما هزيلا ومضحكا مفاده أنه رجل متصعلك وعالة على المجتمع لا يقوم فيه بأي عمل نافع أو مفيد ، وعندما أجاب المتهم بأنه يعمل كشاعر ومترجم استهزأ به القضاة وسخروا منه وأصدرت المحكمة عليه حكما بالسجن لمدة خمسة أعوام من الأشغال الشاقة يقضيها في شمال البلاد وفي

الســجن كلفــه المسئولون بنقل روث البهائم من مكان إلى آخر .وعندما علم العالم بما حدث اجتاحته موجة من الاحتجاج على هذا الظلم في داخل الاتحاد الســوفيتي وخارجه ، الأمر الذي اضطر النظام السوفيتي إلى وقف العقوبة . وفــي تلك الأثناء أمكن تهريب قصائد برودسكى إلى الولايات المتحدة وأوربا حيــث نشرت باللغة الروسية وترجمت إلى عدة لغات (وغنى عن الذكر أن الغــرب تغمره الفرحة العارمة كلما رأى السلطات السوفيتية تنكل بواحد من أدبائها وفنانيها أو مفكريها وعلمائها باعتبار أنها فرصة ذهبية للتشهير بالاتحاد الســوفيتي) ويلاحــظ الدارســون أن برودسكى رغم ما تحتويه قصائده من تفصــيلات ملموسة فإنها تميل أساسا إلى تصوير عالم من الخيالات والأحلام أشبه ما يكون بالعالم السوريالى . والجدير بالذكر أن إغراق كل من سنيافسكى ودانييل في الخيال كان من أهم الأسباب التي أدت إلى إنزال العقوبة بهما ، فقد شــجعهم هــذا الخــيال علــى انتهاك المفاهيم والمواضعات التقليدية الخاصة بالواقعية الاشتراكية وهو ما سوف نتناوله بشيء من التفصيل فيما بعد .

أول محاكمة من نوعها في العالم

فـــي نفس الشهر الذي تم فيه الإفراج عن برودسكى وهو سبتمبر ١٩٦٥ ألقـــت السلطات في موسكو القبض على كاتبين آخرين هما أندريه سنيافسكى وصـــديقه الـــيهودي يولى دانييل لأنهما قاما بنشر أعمالهما خارج البلاد تحت اســـمين مســـتعارين، الأول تحت اسم إبرام ترتز والثاني تحت اسم نيكولاى أرزاك ويجـــدر بنا أن نذكر في هذا الشأن أن هذا الضغط على الحريات خلق سيلا منهمرا من الكتابات السامزادتية التي يروجها الكتاب وينشرونها بأنفسهم تحـــدث عنه سنيافسكى بقوله إن موظفي الجمارك في روسيا يفتشون حقائب الداخلين إليها بمنتهى الدقة ليس بحثا عن الذهب والمخدرات ، ولكن بحثا عن المخطوطـــات المهربة والكتب الممنوعة ، فغايتهم الأولى والأخيرة هي إقامة ســـد منـــيع يحول دون دخول الكتب والمخطوطات إلى الأراضي السوفيتية . ويســـتطرد سنيافســـكى في هذا الشأن قائلا إن الكاتب السوفيتي الذي يرفض الخضـــوع لتوجيهات الدولة يجد نفسه مضطرا إلى الكتابة في الخفاء ، الأمر الـــذي يعرضه لأشد العقوبات من جانب الحكومة السوفيتية . ولكن هذا المنع بمثابة الفاكهة المحرمة ومن شأنه أن يغرى الأدباء بالكتابة فى السر وارتياد طريق الغواية المحفوف بالمهالك والأخطار .

تعتبر محاكمة هذين الكاتبين السوفيتيين المنشقين أندريه سنيافسكى ويولى دانيـــيل الأولـــى من نوعها في العالم كله ، فهذه أول مرة تقدم فيها السلطات الســـوفيتية كاتبيـــن للمحاكمـــة لـــيس بتهمة الإتيان بأفعال مناهضة للدولة أو الاشـــتراك فـــي نشـــاط هـــدام لها ولكن بتهمة تأليف الكتب المعادية للنظام الســـوفيتي. صـــحيح أن الفـــترة التي أعقبت وفاة ستالين عام ١٩٥٣ شهدت مجموعـــة مـــن الأعمال الأدبية التي أثارت حنق النظام السوفيتي عليها مثل رواية دادينتسين المعروفة " ليس بالخبز وحده " (١٩٥٦)،كما شهدت الهجوم علـــى باسترناك عام ١٩٥٨ وعلى قصيدة " بابى يار " (١٩٦١) التي نظمها الشاعر يفتشنكو ، ولكن النظام السوفيتي لم يفكر مطلقا في تقديم هؤلاء الأدباء إلـــى المحاكمـــة علـــى أساس كتاباتهم .ولعل الخطاب الذي أرسله خمسة من الباحثيـــن فـــي معهد اللغويات بموسكو إلى برجنييف السكرتير الأول للحزب الشيوعي يلخص لنا غرابة هذه المحاكمة وشذوذها ، ففي خطابهم يقول هؤلاء الباحـــثون اللغويـــون :" لأول مرة في تاريخ الدولة السوفيتية يحدث أن كاتبا

يقبض عليه ويحاكم علنا بزعم ممارسة أنشطة مناهضة للنظام السوفيتي والدولة السوفيتية تتلخص في كتابة كتب مناهضة للنظام السوفيتي ومناهضة للدولة (ونشرها داخل البلاد أو خارجها) " . لقد سبق أن كتب بولجاكو " أيام التوربينات " التي أخرجها مسرح موسكو للفنون ، وهو عمل حكم عليه جوزيف ستالين بأنه يناهض النظام السوفيت . ومع ذلك فان بولجاكوف لم يقبض عليه أو يحاكم من أجل مسرحيته ، فضلاً عن أن بلنياك نشر في الخارج رواية " خشب الماهوجانى " المناهضة للنظام السوفيتي . ومع هذا فان بلنياك لم يقبض عليه أو يقدم للمحاكمة من أجل روايته. كما أن باسترناك نشر روايته "دكتور زيفا جو " في الخارج وهى رواية اعتبرها النظام السوفيتي معادية له . ويضيف الباحثون اللغويون الخمسة إلى ذلك قولهم أن هذه أول سابقة ليس في روسيا وحدها بل في العالم بأسره .حتى القياصرة الذين حكموا روسيا قبل الثورة البلشفية لم يقدموا على محاكمة كاتب على أساس كتاباته . ويعلق هؤلاء الباحثون على هذا الموقف الفريد بقولهم طالما أن هذه المحاكمة أدبية تتم على أساس ما كتبه سنيافسكى ودانييل من كتب فإنه من واجب المحكمة حتى تكون محاكمتها عادلة أن تسمح لهما بالدفاع عن أدبهما في إطار الفحص الدقيق للغة هذا الأدب وأخيلته والحيل الأدبية التي يستخدمها .

ألقى القبض على كل من سنيافسكى ودانييل في نفس الوقت في سبتمبر ١٩٦٥ وأودع كل منهما زنزانة انفرادية لمدة شهور لم يسمح لهما فيها برؤية أي إنسان . واستمعت المحكمة في موسكو إلى أقوالهما في الفترة بين ١٠ و ١٤ فبراير ١٩٦٦ دون أن يسمح للجمهور أو المراقبين الأجانب بحضورها. ولم يجد القاضي أية غضاضة في أن يستند في توجيه اتهاماته ضد سنيافسكى إلى شريط تسجيل استطاعت المخابرات السوفيتية أن تخفيه في شقته . واتفقت شكوى كل من سنيافسكى ودانييل ضد المحكمة على إصرار المحكمة على عدم الاستماع بالمرة إلى دفاعهما عن نفسيهما ، وبدأت الأخبار تصل إلى العالم الغربي بعد مرور ما يقرب من شهر من القبض عليهما . لكن سيركوف سكرتير اتحاد الكتاب السوفيت لم يعترف بالقبض عليهما إلا في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٥ ، وذلك في مؤتمر صحفي عقده في باريس أكد فيه للحاضرين أن السلطات السوفيتية سوف تلتزم في محاكمتها بالشرعية والقانون ، ورغم هذا فان السلطات السوفيتية لم تعلن رسمياً عن القبض عليهما إلا فى١٣ يناير

١٩٦٦ وذلك عن طريق مقال نشره ديمترى اريمين في جريدة ازفستيا بعنوان "الخونـة " وفـيه يهاجم المثقفين الغربيين لاحتجاجهم على إلقاء القبض على سينافسـكى ودانييل اللذين اتهمهما بالتظاهر بالولاء للاتحاد السوفيتي والعمالة الفعلـية للغـرب فهما على حد قوله يخفيان كراهيتهما للنظام وزرايتهما بكل عزيـز علـى الأوطان تحت ستار أنهما يمارسان نشاطا مشروعاً . والجدير بالذكـر فـي هـذا الصدد أن قانون العقوبات السوفيتي لا ينص على تحريم اسـتخدام الكاتب اسماً مستعاراً أو النشر خارج البلاد أو التضارب في التعبير عن الرأي ، ولكن الشيء الذي يعاقب عليه القانون السوفيتي هو شن الحملات الدعائـية المضـادة بهـدف إضعاف الاتحاد السوفيتي أو النيل منه ..وطبقا للقوانين السوفيتية تتراوح عقوبة هذا النشاط الهدام بين السجن لمدة ستة شهور وسـبع سـنوات أو النفـي لمـدة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات أو بكلتا العقوبتيـن معـا . وذهب ديمترى اريمين إلى أن سينافسكى لم يقلل من شأن الجيش السوفيتي فحسب بل أنه يحقر من شأن لينين أيضا . وفي يناير ١٩٦٦ نشرت الجازيت الأدبية مقالاً كتبته زويا كدرينا(وهى امرأة طلب الادعاء فيما بعـد شـهادتها كممثلة للرأي العام) تتهم فيه زميله يولى دانييل بالدعوة إلى الإرهاب والفاشية وسفك الدماء للإطاحة بالنظام الشيوعي .

بدأت محاكمة سينافسكى و دانييل في ١٠ فبراير ١٩٦٦ واستمرت لمدة أربعة أيام ، وكما أسلفنا كانت هذه المحاكمة الأولى من نوعها في تاريخ اتحاد الكـتاب السـوفيت . فلم يسبق للسلطات السوفيتية أنها حاكمت كتباً محددة أو مؤلفـات بعيـنها مثلما فعلت في هذه الحالة . وبالرغم من أن المحكمة أدانت سنيافسـكى ودانيـيل وحكمت عليهما بالحبس فليست هناك البتة أية أوراق أو وثائق تتضمن تفاصيل المحاكمة أو تسجيل أقوال الادعاء والمتهمين والشهود، وهـو الأمر الذي أغضب الكثيرين من الشيوعيين البارزين في البلاد الغربية مـثل الأديـب الفرنسي الكبير لويس أراجون الذي لم يستطع أن يكظم غيظه فأصدر بعد التشاور مع رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي آنذاك بياناً أدان فيه المحاكمة . وسوف نعرض فيما بعد لمزيد من التفاصيل عن موجة الاحتجاج على المحاكمة .

جـاءت الضـربة مـن مجموعة تتكون من ثمانية عشر أستاذاً في كلية الفيلولوجـيا بجامعـة موسكو فقد وقع هؤلاء الأساتذة على خطاب أدانوا فيه

زميلهم سنيافسكى ، الأمر الذي استنكره الطلبة بجامعة موسكو فقرروا الإضراب عن حضور المحاضرات بعد أن اعترف واحد من أساتذتهم أنه تطوع دون أدنى إكراه للتوقيع على الخطاب الذي يدين سنيافسكى ، ومن المؤسف أن الأديب الروسي المعروف ميخائيل شولوخوف لم يتورع عن الاشتراك في الحملة الموجهة ضده . ولم يكن شولوخوف وحده يناصب سنيافسكى العداء فقد شاركته في ذلك الباحثة والناقدة زد كدرينا التي نشرت في مجلة الجازيت الأدبية بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٦٦ مقالاً تتهم فيه سنيافسكى بمعاداة النظام السوفيتي ومعاداة السامية فضلاً عن الدعوة إلى التهتك والانحلال . وأضافت كدرينا إلى ذلك أن سنيافسكى لص سرق ممن سبقوه من الأدباء والمؤلفين .

ويتضح لنا من محاكمة سنيافسكى دانييل أن السلطات تجاهلت استدعاء بعض شهود النفي الذين أرادوا تبرئة هذين المتهمين من الاتهامات التي سعت النيابة العامة إلى إلصاقها بهما . وليس من شك أن الشهادة التي سطرها ف . ف . ايفانوف الذي منعته المحكمة من الإدلاء بها على درجة بالغة من الأهمية. يقول ايفانوف - وهو خبير أكاديمي في علوم الفيلولوجيا - في دفاعه عن سنيافسكى ان الأذى الذي ألحقه ستالين بالبلاد أشد وأنكى من أية كتابات أو مقالات يمكن أن يكون سنيافسكى قد قام بنشرها خارج حدود الاتحاد السوفيتي ويؤكد ايفانوف أن هجوم سنيافسكى في كتاباته ينصب تماما على الطاغية ستالين ومبدأ عبادة الفرد ، وهو الأمر الذي يتفق تماما مع سياسة الدولة في الفترة التي تلت انعقاد المؤتمر العشرين في عام ١٩٥٦ .

وكذلك عندما منعت المحكمة الكاتب والمترجم أ . أ . ياكوبسون من الإدلاء بدفاعه عن المتهمين نراه يبادر بتسجيل هذا الدفاع فيقول إن دانييل لم يرتكب أي جرم . فكل ما فعله هو أنه استخدم أسلوب الهجاء في كتاباته . وهو تقليد أدبي راسخ في الأدب الروسي سبقه إليه جوجول وسالتيكوف - شيد رين وزوتشنكو والف وبتروف ، وليس جريرة دانييل وصديقه سنيافسكى أن الهجاء بطبيعته أداة للنقد والقدح وليس الثناء والمدح . وإذا كانت الصحافة الغربية قد استغلت كتاباتهما للتعريض بالاتحاد السوفيتي فالذنب في ذلك ليس ذنبهما . وعلى أية حال فقد استغل الغرب هجوم المؤتمر العشرين في الاتحاد

السوفيتي على ستالين وعلى مبدأ عبادة الفرد بصورة أبشع وأفظع من استغلاله لكتابات كل من سنيافسكى دانييل .

وهناك أيضا جولومشتوك الشاهد الثالث الذي منعته المحكمة من الإدلاء بشهادته . يمتدح جولومشتوك سنيافسكى لأنه يعبر عما تنطوي عليه الحضارة الحديثة من تمزقات وتناقضات لا يخلو منها أي مجتمع في العالم بما في ذلك المجتمع السوفيتي الاشتراكي . ويستطرد جولومشتوك قائلاً إن روايته " بدأت المحاكمة " تعالج موضوعا يهم جميع البشر هو موضوع الوسائل والغايات كما أن روايته " تجربة صنع السلام " لا تتضمن حضا على كراهية الحياة السوفيتية فهي تنبض بالمشاعر الوطنية الجياشة وحب الوطن . ويذكر جولومشتوك أنه لا يوافق سنيافسكى في تشاؤمه ولكن التشاؤم لايمكن أن يكون مسوغا لتقديمه للمحاكمة .

والرأي عندي أن محاكمة سنيافسكى و دانييل ليست سخيفة فحسب بل أنها مملة أيضا . ويروى لنا تفاصيل هذه المحاكمة واحد من الحضور اعتمد في سرده للوقائع على ما دونه من مذكرات سريعة أثناء المحاكمة واختزانه ثم استرجاعه لهذه التفاصيل ويقول هذا الراوي إن المتهمين مثلا أمام المحكمة بعد احتجازهما لمدة خمسة شهور ، وأن الادعاء استند في اتهامهما إلى أن الدعاية البورجوازية في الغرب سعت ما وسعها السعي إلي نشر أدبهما والترويج له بسبب ما تضمنه هذا الأدب من إساءة بالغة إلى الاتحاد السوفيتي، ودلل ممثل الادعاء على ذلك بقيام الناشرين المعادين للاتحاد السوفيتي بنشر رواية " بدأت المحاكمة " في أربعة وعشرين لغة من لغات العالم المختلفة . أضف إلى ذلك أن مجلة الثقافة التي تناصب النظام السوفيتي العداء والتي يصدرها في باريس المهاجرون البولنديون قامت بنشر هذه الرواية كما أن راديو الحرية الذي يرسل بثه الإذاعي في ميونيخ بكل لغات الاتحاد السوفيتي قام بإذاعتها .. وأشار الادعاء إلى أن سنيافسكى يتخذ من الهجوم على ستالين ومبدأ عبادة الفرد ذريعة يغطي بها هدفه الحقيقي وهو الزراية بالنظام السوفيتي ومبادئ الماركسية اللينينية . فضلاً عن أن مقاله " عن الواقعية الاشتراكية " الذي سوف نعرض له بشيء من التفصيل - ليس سوى محاولة للرجوع عن المبادئ الماركسية وإلغاء للدور الذي يلعبه الحزب الشيوعي في الثقافة السوفيتية . ويذهب الادعاء إلى أن سنيافسكى سلم هذا المقال لدانييل

عام ١٩٥٦ ، كما أنه اطلعه على روايته المعروفة باسم " ليوبيموف " والتي لا تهــاجم الاشتراكية فحسب بل تحط من شأن الزعيم فلاديمير لينين . واتهم الادعــاء سنيافسكى بأنه ساعد كلا من يولى دانييل (الذي اتخذ اسما مستعارا هو نيكولاى أرز هاك) وريميزوف (الذي اتخذ لنفسه اسم ايفانوف المستعار) علــى نشــر أعمالهمــا المعاديــة للنظام السوفيتي خارج البلاد تحت أسماء مســتعارة. وبعــد أن تولــى الناشرون في الخارج نشر أعمال كل من ترتز (سنيافســكى) وأرز هاك (دانييل) احتفظوا لهما بالعوائد المادية الوفيرة من حقوق التأليف .

وعندما ضيق الادعاء الخناق على دانييل اضطر إلى الاعتراف بأنه ربما أضــر بــبلاده بأن أعطى فرصة لأعدائها من الأجانب للنيل منها . واعترف دانيــيل أيضــا بأنه قام بتهريب مخطوطات كتبه وأنه لم يحاول نشرها داخل الاتحاد السوفيتي لتأكده من أن دور النشر السوفيتية لن تسمح بنشرها . ورغم أن الادعــاء اضطر دانييل إلى الاعتراف بأن سنيافسكى ساعده على تهريب أعمالــه إلى الخارج عن طريق تمكينه من الاتصال بالسيدة زامونسكا (وهى امرأة فرنسية تزوجت من دبلوماسي بولندي ساعدت سنيافسكى نفسه على نشر أعمالــه بالخــارج) فانــه أصر على تبرئة صديقه سنيافسكى من أية شبهة تحــريض أو تــورط . واعترف دانييل بأنه ليس صاحب فكرة رواية " هنا موسكو " التي سوف نتناولها فيما بعد وأنه استمد هذه الفكرة من أفكار صديق لــه أســر له بها وأن الدافع وراء كتابته هذه القصة هو خوفه من عودة القمع الستالينى إلى الحياة السوفيتية . وأضاف أن الوقائع المتخيلة التي تنسبها القصة " هــنا موســكو " إلى النظام السوفيتي لا تعتبر شيئا بالمقارنة بالفظائع التي اقترفها النظام الستالينى والتي يتحمل الشعب السوفيتي بأسره وزرها . وذهب دانييل في رده على الادعاء أنه ليس من المعقول أن كل هذه الجرائم من صنع فرد واحد وسأله الادعاء عما جاء في روايته من تشبيه السوفييت بالنازيين في عدائهــم للسامية فرد بقوله أنه لم يقل أن كل الشعب الروسي يناصب السامية العداء بل بعض الأفراد فيه . ويجدر بالذكر أن القوات النازية في فترة غزوها للأراضــي السوفيتية قامت عام ١٩٤١ بإعدام آلاف من اليهود وألقت بهم في هاويــة سحيقة في مدينة كييف . هذه الهاوية تعرف باسم بابى يار الذي اتخذه الشــاعر يفتشــنكو عنوانا لقصيدة من أهم قصائده . وقرأ عليه الادعاء بعض

فقــرات من كتاباته التي تصور كيف يقوم أهل جو رجيا بذبح الأرمن وكيف يفعــل الأرمن نفس الشيء بأهل جو رجيا . وكيف يقوم المواطنون السوفييت في الجمهوريات الواقعة في وسط آسيا بذبح الروس . وكل هذا يتم بتوجيه من اللجــنة المركــزية للحــزب الشيوعي . أجاب دانييل بقوله أن الفظائع التي يصورها فى كتاباته من نسج الخيال ولم تقع فعلا . ومعنى هذا أن دانييل يرى أن من حقه كأديب أن يطلق العنان لخياله وليس من حق السلطة أن تخلط بين الخــيال والواقع . وهذه نقطة بالغة الأهمية - سوف نعود إليها - كانت السبب فــي تقديــم سنيافســكى و دانييل إلى المحاكمة . وأضاف دانييل أن مثل هذه الفظائع ممكنة الحدوث لو قيض لمبدأ عبادة الفرد أن يسود مرة أخرى .

ثم ناقش الادعاء المؤلف دانييل في بقية أعماله التي وصمها بأنها معادية للســوفييت (وهــى "رجــل من ضباب "و " الأيادي " و " الكفارة ") . يقول الادعاء في هذا الشأن إن المؤلف قصد من وراء " الكفارة " أن يحمل الشعب كله وزر الطغيان الستالينى ومبدأ عبادة الفرد ، فضلا عن اتهامه بأنه لا يؤمن بمــبادئ الحزب الشيوعي . واتهم الادعاء قصة " الأيادي " بأنها ليست سوى هجوم علي رجال الأمن السوفييت وعلى الحزب الشيوعي الذي ينتهج سياسات مــن شــأنها تصــفية الفكر الشيوعي . وانبرى دانييل للدفاع عن نفسه فقال للادعــاء أنــه يــتحداه أن يجد لفظا واحدا يناصب النظام السوفيتي العداء . وأضاف أن الادعاء يستنكر في هذه القصة التجاء النظام السوفيتي إلي العنف. ولكن هذا الاستنكار ينم عن نظرة علمية محدودة وغير دقيقة . فضلاً عن أنه تجاهل أسس الماركسية - اللينينية فالثورة على حد قول لينين تلجأ إلى إخضاع الأقلــية للأغلبية عن طريق القسر . ويعلق دانييل على " رجل من ضباب " بقوله انه غير راض عن هذه القصة بسبب رداءة أسلوبها وافتقارها إلى الذوق الســليم ، ولكــنه يــنكر أن القصة تتضمن أي هجوم علي النظام السوفيتي . ويضيف دانييل أنه كتب قصة " رجل من ضباب" للسخرية من تمجيد التافهين مــن العلمــاء وتمكينهم من النابهين منهم وما يجره ذلك من آثار وخيمة على الــتقدم العلمــي ودلل على ذلك بقصة عالمة البيولوجيا أولجا كيبشنسكانا التي حظيت برضاء ستالين عنها ومنحها أرفع الجوائز ورفعها إلى أرقى المناصب رغم ضحالة اكتشافاتها العلمية .

وفى دفاعه عن نفسه علل دانييل نشر أعماله في الخارج بأن دور النشر السـوفيتية ترفض أن يعالج الأدب مثل هذه الموضوعات . وفسر نشره تحت اسم مستعار بأنه معروف لدى الناشرين السوفيت بأنه مترجم وليس ككاتب خلاق ، وعبر دانييل عن الندم على تصرفه على هذا النحو غير أنه عاد فيما بعد لينكر هذا الندم ويرده إلى حالة الإعياء التي أصابته المحكمة بها .

ويدفع دانييل عن نفسه تهمة التشهير بالاتحاد السوفيتي في الخارج بقوله ان الهجوم على بعض الأفراد في النظام لا يعنى الهجوم على النظام السياسي والهجـوم علـى الحكومة لا يعنى الهجوم على الدولة . فالحكومة شئ مؤقت وزائل في حين أن الدولة تدوم لقرون وقرون . ورغم أن دانييل عبر عن ندمه على نشر أعماله خارج البلاد تحت اسم مستعار (ثم تخلى عن هذا الندم فيما بعد) فانه لم يندم مطلقاً على ما تناول من موضوعات في قصصه ورواياته ، فالـرأي عـنده أن الأديب ينبغي أن يكون حراً في اختيار الموضوعات التي يراها مناسبة .

وحيـن سأل الادعاء دانييل عما يعرفه عن سنيافسكى أقر بأنه على علم بكـل ما نشره سنيافسكى خارج البلاد وبأن سنيافسكى اطلعه على مخطوطات كتابـيه " ليوبـيموف "و "قصص خيالية " ولكنه لا يذكر أنه قرأ مقاله " حول الواقعـية الاشـتراكية " ويتضح من ردود دانييل على الادعاء أنه بدأ نشاطه الأدبي عام ١٩٥٧ وأن أول عمل أدبي سطره في حياته هو " الهروب " الذي بـدأه بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٣ وانتهى منه في الفترة بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ وكتب " الأيادي " بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٨ وأرسلها إلى الخارج في ١٩٦٠ ، وكتـب " هـنا موسكو " عام ١٩٦١ وأرسلها إلى الخارج في نفس العام. ثم كتب " الكفارة " وأرسلها إلى الخارج عام ١٩٦٣ .

وفـى يـوم ١١ فـبراير ١٩٦٦ اسـتأنفت المحكمة التحقيق مع أندرية سنيافسـكى الذي أنكر أنه ساعد الكاتب ريزيموف على نشر أربعة من أعماله بالخارج . وعندما سأله الادعاء عما حدا به إلى تصوير لينين على نحو غير جـذاب رد بقوله أنه أراد أن يصوره كانسان عادى يشبه سائر البشر ويختلف عـن ستالين الذي جعل من نفسه إلها . ويذكر القاضي إشارة سنيافسكى الذي كتـب عـن وضـع أجهزة التجسس في دورات المياه ويتساءل : " أليس هذا

تشهيرا صريحا بالنظام السوفيتي " فيدافع سنيافسكى عن نفسه بقوله أنه يقصد بذلك فترة معينة هي الفترة الستالينية . وينكر سنيافسكى أثناء التحقيق معه انه أراد الـتعريض بماركس ولينين فهو يكن الاحترام لهما . ولكنه هاجم ستالين بقوله انه شخصية لا يفهمها أو يقدرها غير أصحاب البورجوازية الصغيرة .

ويجـدر بنا قبل أن نتناول حياة سنيافسكى وأدبه بشيء من التفصيل أن نـتوقف عـند " هـنا موسكو " التي تعتبر أهم أعمال دانييل القصصية على الإطـلاق والتي كانت من أهم الأسباب في تقديم صاحبها إلى المحكمة . وفى " هـنا موسـكو " يطلـق المؤلف العنان لخياله بشكل أثار غضب السلطات السوفيتية وحنقها عليه .

" هنا موسكو "

تدور أحداث "هنا موسكو" حول خبر أذاعه راديو موسكو مفاده أن اللجنة المركـزية للحزب الشيوعي قررت أن يكون يوم الأحد الموافق ١٠ أغسطس ١٩٦٠ " يوم القتل العمومي" يحتفل به المواطنون السوفيت مثلما يحتفلون بعيد العمال في أول مايو . وبمقتضى هذا القرار أصبح من حق المواطن السوفيتي الـذي بلـغ السادسة عشرة من عمره أن يقوم بقتل أي مواطن سوفيتي آخر باسـتثناء الصـغار دون السادسـة عشرة وأفراد الميليشيا أو القوات المسلحة وعمال النقل والمواصلات .

وكذلك حظر القرار قتل أي إنسان من أجل السطو أو الاغتصاب الجنسي وقضـى بمعاقبة المخالفين لهذه التعليمات . فضلا عن أنه حظر الاعتداء على الممتلكات وإشعال الحرائق وقتل رجال الشرطة . وسمحت السلطات في " يوم القـتل العمومي " بتشغيل القطارات والأوتوبيسات. كان الراوي لأحداث "هنا موسكو " - وقت إذاعة القرار - يحتفل مع نفر من أصدقائه وصديقاته في أحد المنـتجعات يلهـون ويرقصـون ويعاقـرون الخمر حتى الثمالة . واختلف المحـتفلون فـي تفسير الخبر فمنهم من قال انه خبر مكذوب أذاعه للتضليل راديـو أمريكا على نفس الموجة التي يذيع عليها راديو موسكو ، ومنهم من أنكر هذا قائلاً إن هذا مستحيل من الناحية الفنية ، فلو كان هذا صحيحاً لوجدنا أن صوت أمريكا وراديو موسكو يذيعان نفس البرامج في نفس الوقت . ومنهم

مــن قال إنها مؤامرة دبرها الحزب الشيوعي للتخلص من اليهود . يقول أحد المحتفليــن من اليهود عقب سماعه نشرة الأخبار : "لو حدثت مذبحة جماعية للــتخلص مــن الــيهود في العاشر من أغسطس فسوف أقاتل ولن أسمح لهم بتكرار مجزرة وادي بابى يار السحيق، سوف أقتل هؤلاء الخنازير . ولسوف ترون ذلك بأنفسكم " .

وكان للراوي عشيقة اسمها زويا وهى امرأة متزوجة من رجل أصبحت تمقــته وترغــب فــي التخلص منه . وهو تخونه مع الراوي ومع غيره من الرجال وحين سمعت زويا الخبر مالت على عشيقها الراوي وهمست في أذنه أن أمامــه فرصة ذهبية سانحة للزواج منها بعد أن يقوما سوياً بالتخلص من زوجهــا . وأضافت أنها على استعداد للقيام بالمهمة وحدها ولكنها تحتاج إلى من يساعدها في نقل جثة زوجها . واستبشع الراوي الفكرة فهزأت به عشيقته ورمته بالجبن .

واســتبد الضــيق والحيرة بالراوي فتوجه لزيارة فنان معدم عجوز من معارفه القدامى حيث شاهد في مرسمه صورة تخيلها هذا الفنان للإعلان عن رجــل مقتول في "يوم القتل العمومي " وعندما حل هذا اليوم عن للراوي أن يخــرج مــن منزله إلي الشوارع والميادين ليراقب الأحداث ، فشاهد رجلاً مســجى علــى الأرض وقد فارق الحياة في نفس الوضع الذي تخيله صديقه الفــنان العجــوز في إعلانه . وأبصر الراوي رجلاً من رجال الشرطة قادماً نحــوه فناداه وقد اهتاجت مشاعره وصاح فيه أنهم وجدوا رجلاً مقتولاً ، فهدأ الشــرطي مــن روعه وعاتبه لأنه لا يقرأ الصحف ولا يتابع ما تذيعه وسائل الإعلام من قرارات .

وغــادر الــراوي المكــان ليواصل سيره ، وما أن وصل إلى قبر لينين وســتالين حتى هجم عليه رجل يبغى قتله ، ولكنه استطاع بعد جهد جهيد أن يــرد عــن نفسه هذا العدوان ، ورغم أن الراوي استطاع في نهاية الأمر أن ينتصــر علــى غــريمه فانــه تركه حيا يرزق ومضى لحال سبيله وغريمه يستصرخ به أن يقتله تنفيذاً لأوامر الحزب واحتراماً لقرارات الوطن . وتنتهي "هــنا موســكو" بعــودة الحياة إلى مجاريها وجمع شلة المعارف والأصدقاء القدامــى وفى نهاية القصة نرى الراوي مع نفس شلته القديمة وبينهم عشيقته

الســـابقة زويا يحتفلون بمناسبة قومية أخرى هي ثورة أكتوبر المجيدة . ولكن تغــيرا واحدا طرأ على الراوي فقد اصطحب معه إلى الحفل عشيقة جديدة . وتلعــب الخمــر برءوس الموجودين ويتراقصون تماما كما كانوا يفعلون في أيامهم الخوالي قبل الإعلان الخاص بيوم القتل العمومي . وتجاذب الموجودون أطراف الحديث الذي تطرق إلى عدد القتلى في يوم القتل العمومي والى بعض المخالفــات التــي ارتكــبها المواطنون السوفيت في هذا اليوم مثل قتل سكان جورجــيا للأرمن وقتل الأرمن لسكان أذربيجان وقتل المواطنين السوفيت في أواســط البلاد للروس ، وبطبيعة الحال أدانت اللجنة المركزية هذه التجاوزات وعاقبت المسئولين فى المناطق المخالفة بالطرد .

هــذه هــي أحداث القصة التي اعتبرتها السلطات الروسية معادية للدولة والــنظام الســوفيتي بسبب خلطها بين الحقيقة والخيال ، وسوف نلاحظ نفس الشيء عند دراسة أعمال سنيافسكى .

نبذة عن حياة سنيافسكى

حصـــل سنيافســكي على درجة الكانديدات المعادلة لدرجة الدكتوراه في الدراســات الفولكلوريــة من جامعة الدولة بموسكو عام ١٩٥٢ وذلك بعد أن قبلــت هــذه الجامعة رسالته عن رواية "كليم سامجين " التي شرع في كتابتها مكسيم جوركي دون أن يكملها . وبعد حصوله على هذه الدرجة العلمية عين باحثاً وزميلاً في معهد جوركى للأدب العالمي . وهى فترة معروفة من حياته يســهل على أي باحث أن يستقى المعلومات عنها . وبعد وفاة ستالين وانفتاح روســيا على الغرب سمحت السلطات السوفيتية لشاب فرنسي اسمه ميشيل أو كوتوريــيه بالالــتحاق بمعهــد جوركـــى حيث تعلم الأدب الروسي على يد سنيافســكى ، ويذكــر هذا الطالب عن أستاذه أنه كان يحاضرهم عن الشاعر ألكســندر بلوك وسط سحابة كثيفة من دخان السجائر التي يدخنها . فضلا عن أنـــه وزوجته رحبا باستقبال طلبته في مسكنهما المتواضع الذي شاركتهم فيه أربع عائلات روسية أخرى والذي لفت نظر زواره إلى شقته المتواضعة أنها تزخر بالأيقونات ومشاهد الفنون الشعبية التي جمعها وزوجته أثناء زيارتهما لمــناطق فـــي البلاد . واستطاع سنيافسكى وزوجته بفضل مشاعرهما الفنية الدافــئة أن يحظيا بحب المتصلين بهما ، فضلاً عن أن سنيافسكى كان متحدثا جذابــاً يثـــير إعجاب المستمعين إليه واستفاد سنيافسكى من موقعه كأستاذ في معهد جوركى في الحصول على بعض الكتب والمراجع التي حظرت السلطات تداولهــا بين القراء العاديين ، كما أنه قرأ بكل الحب والتقدير أعمال المدرسة الرومانســية الــثورية التـــي سادت الأدب الروسي في العشرينات من القرن العشــرين والتـــي ســعى ســتالين وأعوانه إلى القضاء عليها . يقول ميشيل أوكوتورييه أن سنيافسكى أظهر اهتماما ملحوظا بموضوع دراسته عن الثورة والشــعر لدرجة أنه كتب مقالاً قصيراً عنه ثم طوره فيما بعد في شكل دراسة ضافية موثقة تناولت الشعر الروسي إبان الفترة الأولى من الثورة كما أنه أمد هذا الباحث الأجنبي بأهم المراجع وأندرها .

واتضح من مناقشات سنيافسكى مع أوكوتورييه أنه يحيط بالثقافة الغربية وبالأدبيــن الأمريكـــي والفرنســـي ولفت نظره أيضاً عشق سنيافسكى للحياه واستملاح دعابة الفلاح الروسي والأغاني الرومانسية التي يتغنى بها المساجين والحكايــات المضـــحكة التـــي تجمع بين الغرابة وجنوح الخيال . وروى له

سنيافسكي حادثة فكهة مفادها أن لصا سطا على مكتبته ثم عاد إليه في منتصف الليل ليقترح عليه أن يعيد إليه الكتب المسروقة لقاء مبلغ من المال . ومن الموضوعات التي تطرق إليها حديث سنيافسكي بشكل متكرر التناقض بين روسيا والغرب والرأي عند أوكوتورييه أنه بالرغم من استقلاله الفكري فقد شكلت الأيديولوجية السوفيتية عقله ، الأمر الذي جعله لا يستطيع ان يفرق بين روسيا ونظامها الاشتراكي .

كان موقف سنيافسكي من الغرب مزدوجا فهو رغم حبه لحرية الغرب وسماحته يرى أن الثقافة الروسية أعظم وأروع من ثقافات العالم طراً . حتى موقفه من ستالين كان مزدوجا ، فهو -على حد قول أوكوتورييه - يمقت البطش الستاليني ويرحب بعهد السماحة والانفتاح الذي أعقب وفاة ستالين . غير أنه يرى أنه بزوال عهد ستالين اختفت من النظام الشيوعي السوفيتي عناصر دينية وتصوفية عزيزة على نفسه اقترنت بتأسيس هذا النظام وإرساء قواعده ، ومن ثم فان سنيافسكي لم يكن مرتاحا تماما للعناصر العلمانية التي دخلت الحزب الشيوعي بمجيء عهد خروشوف . ولهذا فانه يدعو إلى استخدام الفانتازيا أو التحليق على جناح الخيال ليصف به ما يعانيه العالم والإنسان الحديث من جدب ديني وفوضى روحية .

ويذكر أوكوتورييه أن علاقته بيولي دانييل أيضاً توثقت وأن دانييل كان يقرأ بصوت معبر مشحون بالعاطفة قصائد الشعراء الذين يفضلهم أمثال بابل وباسترناك وبراجنسكي .

وعندما كان سنيافسكي طالباً بجامعة موسكو تعرف في عام ١٩٧٤ على ابنة أحد الدبلوماسيين في السفارة الفرنسية وهي فتاة اسمها هيلين بليتييه (تزوجت فيما بعد برجل بولندي فأصبح اسمها هيلين زاميوسكا) منحتها السلطات السوفيتية استثناء نادرا للغاية بأن سمحت لها بحضور محاضرات الأدب الروسي في الجامعة ، وهو استثناء نادر وغريب من جانب النظام الستاليني الذي يسعى ما وسعه السعي إلى عزل بني جلدته عن الأجانب خشية أن يتلوثوا بأفكارهم .

تقــول هيلين زاميوسكا أنها قابلت سنيافسكى لأول مرة في حياتها عندما التحقــت بجامعة موسكو في الفترة بين ١٩٤٧ و ١٩٥٠ ، وهى فترة اشتغال والدها كملحق بحري بالسفارة الفرنسية في موسكو ، وكان سنياڤسكى قد سرح لــتوه مــن خدمـــة الجيش دون أن تتيح له الظروف فرصة الاشتراك في أية أعمـــال عســـكرية . وفى إحدى زياراتها لسنيافسكى التقت زاميوسكا بصديقه يولــى دانييل الذي شاركه بئس المصير ، تقول زاميوسكا أن الصداقة المتينة ربطت بين سنيافسكى ودانييل رغم اختلافهما في المشارب والطباع . فقد تميز سنيافسكى بالسخرية والنبرة القاطعة في حين اتسم دانييل بالعاطفية. غير أنهما اجــتمعا علـــى الصدق والأمانة وحب الوطن والتقدير العظيم للفنون والآداب سواء كانت عالمية أو روسية ، فضلاً عن روح الفكاهة والدعابة التي تميزت بها كتاباتهما .

وتذهب هيلين زاميوسكا إلى أن ثقافة سنيافسكى تشوبها بعض الفجوات، فهو لم يقرأ كافكا أو بيراندللو أو بروست أو جيمس جويس ، وتقول انه توفر علـــى دراســـة اللغـــة الفرنسية حتى يتمكن من قراءة فيلون وبودلير وريمبو ومالـــيرو وســـيلين فـــي أصولهم . وذلك إلى جانب اهتمامه بكل من الأديب الأمريكـــي وفيرهارن .هذا وقد تأثر سنيافسكى بأسلوب بعض الكتاب الروس الذيـــن ســـبقوه مثل جوجول وبلى ولسكوف الذين احتفلوا في كتاباتهم النثرية بالزخرف والعناية باللفظ .

كان موقف سنيافسكى من الغرب موقفاً متشابكا يتراوح بين الإعجاب به والاحـــتقار له والغيرة منه والشك فيه . غير أنه لم يكن في أي يوم من الأيام موالـــيا أو ممالـــئا له. آمن سنيافسكي في شبابه عندما كان عضواً في منظمة الشباب الشيوعية بالثورة البلشفية وبإفلاس الحضارة الغربية والدين المسيحي معـــا . ولكن هذا لم يمنعه من الإعجاب الشديد بما خلفته الكنيسة الروسية في مجـــاهل روسيا من أيقونات ورسوم دينية ، كما أن إنكاره للدين المسيحي لم يحل دون تمتعه بالشفافية الروحية ، وتذكر هيلين زاميوسكا في هذا الصد أنه قال لها أيام الدراسة في الجامعة : " إن المسيحية ظلت في تدهور مستمر منذ عصر النهضة أي منذ أن جعلت الخلاص الفردي الشيء الوحيد الذي له أهمية ، والمسيحية الحديثة تعنى بالفرد في حين أن الشيوعية تعنى بمجموع البشر . ومن ثم فان مغزاها الأخلاقي أرقى من المسيحية " .

الزج بوالد سنيافسكي في السجن

مر سنيافسكي في شبابه بتجربة مريرة هزت كيانه وجعلته فيما بعد يعيد تقييمه للأشياء . ففي عام ١٩٥١ ألقى البوليس القبض على والده وزج به في السـجن بـتهمة ملفقة ولم يفرج عنه ويرد إليه اعتباره إلا بعد وفاة ستالين . والـذي أذهـل سنيافسـكي تـأكده من إيمان والده المخلص والعميق بالنظام السـوفيتي. وتضـافرت هذه التجربة الشخصية المريرة مع هجوم خروشوف العاتـي علـى ستالين في أن يفقد الثقة في كل ما يحيط به ، يشاركه في ذلك الكثـيرون من الشبان من أبناء جيله . وتلفت هؤلاء الشباب حولهم كل منهم يسـعى إلـى الإمساك بطوق نجاة يحميه من طوفان الكذب والختل والبطش والاستبداد . كان والد سنيافسكي ثورياً دفعته ثوريته إلى الانخراط في ثورات روسـيا السابقة على ثورة ١٩١٧ البلشفية ، ثم تطوع بعد اندلاع هذه الثورة بنشاطه البارز في إقامة مزارع جماعية ، الأمر الذي أثار حنق الفلاحين عليه وجعلهـم يرغبون في الفتك به لولا تمكنه من الهرب في آخر لحظة . ووجد سنيافسـكي فـي حـياه والده المحفوفة بالمخاطر أريجا رومانسيا يتضوع به ونبراسـا مقدسـا يهديه سواء السبيل . تقول ألفريدا أوكوتوربيه أن السلطات ألقـت القـبض على والده في الساعة الثانية صباحاً وأن رجال المباحث ظلوا يفتشـون البيت لمدة ثمان وأربعين ساعة واعترض الابن عليهم فالتفت واحد مـنهم إلى سنيافسكي ليقول له انه كان ينبغي القبض عليه مع والده .وفي هذه المحـنة لم يجد الشاب سنيافسكي مخرجا من هذا البطش والاستبداد الستاليني غـير باسترناك العظيم الذي استطاع في وحدته وبإصراره وصلابته أن يقف في وجه البطش والإرهاب الستاليني .

الكتابة تحت أسماء مستعارة

استطاع سنيافسكي أن يضلل أجهزة الأمن السوفيتية لمدة خمسة أعوام تقريبا دأب فيها على نشر أعماله بالخارج وهو أمر لا يعاقب عليه القانون السوفيتي ، وان كان يثير غضب المسئولين السوفيت . وفي هذه الفترة سمحت له السلطات بنشر مقالاته وأبحاثه في مجلات الدولة الرسمية .

بدأت الحكاية عندما سعت هيلين بليتيه (هيلين زاميوسكا) بعد عودتها إلى الاتحاد السوفيتي عقب وفاة ستالين إلى تجديد صلاتها القديمة به . وأسر إليها سنيافسكي برغبته في نشر أعماله خارج الاتحاد السوفيتي . وكان أول عمل ساعدته على نشرة في الخارج مقالا بعنوان " عن الواقعية الاشتراكية " تولت نشره في فبراير١٩٥٩ مجلة أدبية فرنسية اسمها " لسبريه" أي الروح . ثم نشر رواية قصيرة عام ١٩٦٠ بعنوان "بدأت المحاكمة " ظهرت أولا باللغة الروسية في مجلة الثقافة البولندية التي يصدرها بعض المهاجرين البولنديين ثم في ترجمة إنجليزية في مجلة أنكوتر (حوار) ، وتلت ذلك مجموعة قصصية ظهرت في باريس عام ١٩٦١ تحت عنوان "قصص خيالية" أعقبتها رواية قصيرة خيالية بعنوان " مدينة ليوبيموف"عام ١٩٦٤ التي نشرت في ترجمتها الإنجليزية عام ١٩٦٥ بعنوان "تجربة صانع السلام " . وبعد أن اكتشفت أجهزة المخابرات الروسية أمره في عام ١٩٦٥ ظهرت له الأعمال الأدبية التالية "أفكار عفو الخاطر" و "صوت من الكورس" و "تسورس القزم " كما أنه ألف مع أي جولومشتوك كتابا عن بيكاسو أظهر فيه اهتماما واضحا بالمذهب السوريالي . وحين جاءت السلطات للقبض عليه عثرت في بيته على مخطوطة له بعنوان "في التحليل الذاتي "اختفت إلى الأبد لدرجة أن الدارسين لا يعرفون فحواها .

وقبل أن نعرض لاهتمامات سنيافسكي الأدبية بالتحليل يجدر بنا أن نشير إلى موقف زوجته من الزج به في معسكر العمل والى احتجاج كبار الأدباء والمفكرين في العالم الغربي وعلى رأسهم صفوة الشيوعيين الأوربيين ضد الحكم عليه وعلى زميله دانييل بالسجن بسبب كتاباتهما وهو الأمر الذي لم يسبق له نظير في العالم كله ، فقد أصدرت المحكمة حكمها بالسجن على

سنيافسكي لمدة سبعة أعوام وعلى دانييل بالسجن لمدة خمسة أعوام في معسكرين للاعتقال .

موجات احتجاج تجتاح العالم

عندما أصدرت المحكمة الحكم بالسجن على سنيافسكي دانييل اجتاحت الاتحاد السوفيتي والعالم بأسره موجات احتجاج على هذا الظلم البين الذي ليس له ما يسوغه . واهتزت فرائص دانييل فنشر في ٢٩ مايو ١٩٦٦ وهو في معسكر الاعتقال خطاباً يعبر فيه عن شئ من الندم على تصرفاته الخاطئة، غير أنه استطاع أن يستجمع قواه بعد أن خارت وأن يستمر في الصمود ضد السلطة السوفيتية وتحديها . أما سنيافسكي فقد ظل ثابت الجنان منذ البداية .

واحتج أكثر من ستين كاتباً سوفيتياً في موسكو على الأحكام الصادرة وأرسلوا احتجاجهم إلى رئيس الدولة السوفيتية وسكرتير الحزب الشيوعي وذكروا في احتجاجهم أن سنيافسكي ودانييل ارتكبا خطأ عندما سمحا لنفسيهما بنشر أعمالهما في الخارج ولكن النيابة فشلت في إثبات تهمة قيامهما بنشاط معاد ضد الدولة وأضاف هؤلاء الأدباء أن معاقبة الأدباء لأنهم يستخدمون أساليب الهجاء من شأنه أن يصيب الثقافة السوفيتية كلها بالضمور. واختتم أدباء موسكو احتجاجهم بالمطالبة بالإفراج عن المحكوم عليهما على ضمانتهم .

والذي لاشك فيه أن الخطاب الذي وجهته الكاتبة ليديا تشوكوفسكايا إلى اتحاد الكتاب الروس والى رؤساء تحرير البرافدا وازفستيا والجازيت الأدبي وروسيا الأدبية ومولوت كما وجهته إلى الروائي المعروف ميخائيل ألكسندروفتش شولوخوف مؤلف رواية " وينساب نهر الدون هادئا " من أشد الكتابات مناصرة للمحكوم عليهما وتحمساً لهما . تقول تشوكوفسكايا إلى شولوخوف انه لا يليق به أن يتبرأ من سنيافسكي و دانييل أو يعبر عن خجله من أن يدافع عنهما عدد من الأدباء ويضمنون حسن تصرفهما لدى الدولة ، كما أنها عابت على شولوخوف قوله انه ما كان ينبغي للقضاء السوفيتي أن يتعب نفسه وينظر في أمرهما ولكنه كان من الواجب عقابهما وفقاً لروح الثورة البلشفية والحرب الأهلية أي وفق نهج العشرينات في باكورة الثورة

دون الحاجة إلى اللجوء إلى أية إجراءات قانونية لا مسوغ لطولها . وقارنت تشوكوفسكايا بين الدور النبيل الذي لعبه ماكسيم جوركى في العشرينات في حماية الأدباء والفنانين من السلطة والشفاعة لديها من أجلهم وتخلى شولوخوف المخجل عن واجبه نحو زميليه بل وادانتهما واستعداء السلطة عليهما لإنزال أقسى عقاب بهما . إن تقديم هذين الأديبين إلى المحاكمة في رأيها في حد ذاته مخالفة للقانون والشرعية بغض النظر عن قيمة أدبهما ، فمن العار على السلطة السوفيتية أن تقدمهما إلى المحاكمة بغير ذنب أو جريرة غير تأليف الكتب ونشرها خارج البلاد .

ولعل العالم لم يشهد من قبل مظاهرة احتجاج بمثل هذه القوة وذلك الصخب من قبل صفوة المفكرين والأدباء والعلماء إزاء ما لحق بسنيافسكى و دانييل من ضرر . وحتى ندرك مقدار السخط الذي اجتاح العالم يكفينا أن نذكر أن الشيوعيين الغربيين أنفسهم كانوا أول من هب للذود عنهما في السويد والنرويج والدانمارك وفنلندا وبريطانيا والنمسا وإيطاليا وسويسرا وفرنسا والولايات المتحدة ومن أبرز هؤلاء الشيوعيين لويس فيشر من النمسا ولويس أراجون من فرنسا وتولياتى من إيطاليا بالإضافة إلى ذلك أرسل مفكرون وأدباء وعلماء من جميع أقطار العالم المتحضر خطاب احتجاج وقع عليه فرنسيون بارزون مثل أندريه بريتون ومرجريت دورا وفرانسوا مورياك وأمريكيون مثل سول بيلو وأرثر ميلر ووليم ستيرون وبريطانيون مثل أودين وجراهام جرين وجوليان هكسلى وروزاموندليمان ودوريس ليسنج وأيريس ميردوك وهربرت ريد . وكذلك استصرخت كثير من المنظمات الدولية من هذا الظلم مثل الاتحاد الليبرالي العالمي وأعضاء هيئات التدريس بكبرى الجامعات والجمعية الدولية للمحامين الديمقراطيين في فرنسا. كانت مظاهرة احتجاج تضم صفوة العقول في العالم كله .

وفي روسيا نفسها كتب الشاعر السوفيتي الشاب جنزبرج خطاباً إلى رئيس مجلس الوزراء الرفيق كوسيجين ناقش فيه القانون الذي قدم سنيافسكى و دانييل إلى المحاكمة بمقتضاه ، وهو القانون الخاص بنشر الدعاية المعادية للاتحاد السوفيتي . يقول جنزبرج إن السلطات السوفيتية قدمته شخصياً مرتين للمحاكمة بتهمة نشر الدعاية المعادية للبلاد أولاهما عام ١٩٦٠ - ١٩٦١ وثانيتهما عام ١٩٦٤ ، وأضاف جنزبرج إن المحققين الذين أسندت اليهم مهمة

التحقــيق معه أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أنهم يتصرفون على أساس مفاهيم خاطــئة عن الدعاية التي يعتبرها النظام السوفيتي مناهضة له . والدليل على ذلــك أن أشــعاره وكــتاباته التي سبق للمخابرات الروسية أن حظرتها شقت طريقها إلى النشر فيما بعد في الصحف والمجلات ودواوين الشعر السوفيتية، ويــردف جــنزبرج قائلاً إن المحقق في المرة الثانية وجه إليه تهمة الاتصال ببعض الشخصيات في الغرب ، وأنه بالرغم من مضى أكثر من عامين على تلقــيه رســالة من صديق له في الغرب فقد أجبره المحقق على استنكار هذا الاتصــال وأن يديــن نفســه بنفســه بدعــوى أن ظهوره في الغرب بمظهر المعارض للنظام السوفيتي يقوى من شأن أعداء البلاد . ويعلق جنزبرج على ذلــك بقولـــه ان مثل هذه الدعاوى هزيلة ومجرد مزاعم بدليل ما طرأ على الاتحــاد السوفيتي منذ عام ١٩٦٤ من تحولات أيديولوجية وسياسية فالأعمال التــي كانت السلطات السوفيتية تعتبرها مناهضة للنظام لم تعد كذلك ، كما أن موقــف هــذه الســلطات من الاتصال بالغرب أصبح أكثر سماحة وانفتاحاً . ومعنى هذا أن مفهوم الدعاية المناهضة للسوفيت ليس أمراً ثابتاً ، ولكنه مسألة تتغــير بتغيير الجو الأيديولوجي والسياسي السائد ، ويسخر جنزبرج من هذه الأوضــاع بقولــه أن القاعدة الشعبية إذا عن لها أن تتحدث عن بعض أخطاء الــنظام السوفيتي تتعرض لاتهام هذا النظام لها بأنها تناصب الدولة السوفيتية العــداء ، فــي حين أن الحزب الشيوعي نفسه قد يبرز نفس هذه الأخطاء في مرحلة أخرى .

ثــم ينتقل جنزبرج إلى مفهوم النظام السوفيتي للدعاية المضادة للدولة ، فيقول أن المخابرات الروسية تصدر أحكاماً طائشة بهذا الصدد بسبب عجزها عــن إدراك الــنظرة الجديدة عن مفهوم الحقيقة التي يتبناها الجيل الجديد من الأدباء الروس ، ويسوق للدلالة على ذلك موقف المخابرات الروسية الخاطئ من رواية بوريس باسترناك المعروفة " دكتور زيفا جو "و " قصص خيالية " و " الواقعية الاشتراكية " التي نشرها سنيافسكي تحت اسم ترتز المستعار . و " هنا موسكو " التي نشرها دانييل تحت اسم أرزاك المستعار . ويقول جنزبرج أن ترتز وأرزاك لم يرتكبا جرماً في حق الدولة السوفيتية فالقانون السوفيتي لا يعاقــب شخصــاً بســبب فكــره المستقل أو إخلاصه لمبادئه ، كما أن تعبير المواطن السوفيتي عما يرى فيه الخير للبلاد ليس حكراً على السلطة وحدها .

فضلاً عن أنه من حقهما أن يغضبا على الجرائم التي ارتكبها النظام السوفيتي فـــي الماضي وأن يعبرا عن حبهما لتقاليد بلادهما ، وأنه لمن حق سنيافسكى بـــالذات بســـبب نشاطه الأدبي المنشور وكتاباته عن بيكاسو وعن الشعر في السنوات الأولى للثورة البلشفية ومقدمته لمختارات من شعر باسترناك أن يفسر الواقعـــية على النحو الذى يراه . ومن ثم فان الجهة المعنية باستيضاح مواقف هذيـــن الكاتبيـــن ليست النيابة العامة أو أمن الدولة بل التنظيمات العامة مثل الحـــزب الشيوعي واتحاد الكتاب ونقابات المؤلفين . ويعترض جنزبرج على الزج بكل من هذين الكاتبين في زنزانة انفرادية لفترات طويلة يعرف من واقع تجربـــته الشخصية المريرة ما تتركه من أثر ، ويذهب جنزبرج في مقاله إلى وجوب أن تراعى بلاده المواثيق والمعاهدات الدولية التي توقع عليها . فالمادة رقـــم ١٩ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ عن الأمم المـــتحدة تنص على أنه لكل إنسان الحق في اعتناق ما يراه من آراء والتعبير عـــنها بحرية . وهى حرية تشمل تلقى المعلومات ونشرها عن طريق الدولة وأجهـــزتها . ويختتم جنزبرج خطابه إلى كوسيجين قائلاً انه إذا لم يكن الأمر كذلك لكان من حق الدولة أن تحاسبه على الخوض في موضوع سنيافسكى و دانيـــيل . فوسائل الإعلام السوفيتية لم تشر البتة إلى القبض عليهما وتقديمهما للمحاكمة . ويعترف جنزبرج أنه استمد معلوماته عن هذه القضية من مصادر خارجية ومحطات إذاعات أجنبية .

وارتفعـــت أصـــوات روسية أخرى تدافع عن سنيافسكى ودانييل ومنها صـــوت واى . واى ليفيـــن الحاصـــل على شهادة الكانديدات فى الرياضيات والعلـــوم الطبيعـــية وواى جيرتشـــوك ، ون . كيشـــيلوف و أ . منشوتن و رودينانسكايا عضو اتحاد الكتاب السوفيت ، ويتلخص دفاعهم عن المتهمين في عدة نقاط أبرزها أنه لا يصح اعتبار الآراء الواردة على لسان أية شخصيات روائـــية علـــى أنها بالضرورة معبرة عن آراء المؤلف . كما أنه لا يصح أن يسوق أي ناقد مقتطفات من أية أعمال أدبية متجاهلاً السياق العام الذي وردت فيه هذه المقتطفات . فضلاً عن أنه من حق هذين الأديبين أن يستخدما أسلوب الهجاء بكل ما يقتضيه هذا الأسلوب من شدة المبالغة . ولعل أهم مسألة أثارها المدافعـــون عـــن سنيافسكى و دانييل هي تلك القاعدة القانونية المعروفة التي تـــنص على أن المتهم برئ حتى تثبت إدانته وأنه لا ينبغي على الصحافة أن

تنشـــر أية آراء غير مسئولة من شأنها التأثير سلفاً على القضاة وما يصدرون من أحكام .

والجديـــر بالذكر أن زوجة سنيافسكى كتبت بعد إلقاء القبض عليه خطاباً وجهـــته إلـــى السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي والنائب العام ورئيس لجنة أمن الدولة ورؤساء تحرير البرافدا والازفستيا والجازيت الأدبي ناشدتهم فيه أن يقفوا بجانب زوجها في محنته وتذهب زوجة سنيافسكى إلى أن زوجهـــا ليس أول كاتب ينشر أعماله الأدبية خارج البلاد . فقد سبقته في هذا الصدد كوكبة من الأدباء أمثال جوركى وستانسلافسكى وباسترناك ويفتشنكو ، فضلاً عن أن ما نشره زوجها خارج البلاد لا يتضمن أي هجوم على الاتحاد الســـوفيتي . واســـتطردت الزوجة تقول إن الإجراءات التي اتخذتها السلطات الخاصـــة بتفتـــيش البيت تضمنت إخلالا بالقانون مثل قيام رجال المخابرات الروسية بمصادرة مؤلفات ماند لستام وتسفتيا وباسترناك وأخماتوفا وجميلوف وريمـــيزوف . واختتمـــت الزوجة خطابها بالتعبير عن إعجابها بكل ما كتبه زوجهـــا تحت اسم ابراهام ترتز المستعار ، مؤكدة أنها لا ترى في كتاباته أي مساس بالاتحاد السوفيتي .

وفعلت زوجة دانييل نفس ما فعلته زوجة سنيافسكى فكتبت خطابا مماثلاً أرسلته إلى نفس الجهات تقول فيه إن المحقق الذي تولى التحقيق مع زوجها لا يدرك الفرق بين الأدب القائم على التخيل والأدب التسجيلي والوثائقي .

وحاولـــت الســـلطات السوفيتية أن تخفى خبر القبض على سنيافسكى و دانيـــيل فامتنعت وسائل الإعلام السوفيتية عن نشره . ولكن هذا لم يحل دون ســـرعة انتشـــار الخبر بين المواطنين السوفيت الذين عبر الكثيرون منهم كما رأينا عن التعاطف مع هذين الكاتبين .

فهـــرس